كما يليق بأبٍ يحاول

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
HTTPS://T.ME/RIWAYAT2025

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
HTTPS://T.ME/RIWAYAT2025

مصطفى منير

كما يليق بأبٍ يحاول

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا
@RIWAYAT2025
@RIWAYAT2025

الكرمة

Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

الكرمة

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٣
حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٣
© مصطفى منير ٢٠٢٣
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي. نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

هذا عمل أدبي خيالي. جميع الأسماء والشخصيات والأماكن والأحداث الواردة فيه هي من نسج خيال المؤلف، أو مستخدَمة بشكل فني خيالي، ويجب عدم تفسيرها على أنها حقيقية. وأي تشابه مع أحداث أو أماكن أو منظمات فعلية أو أشخاص، أحياء أو أموات، فهو من قبيل المصادفة.

منير، مصطفى.
كما يليق بأب يحاول: رواية / مصطفى منير - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٣.
٣٢٠ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: 9789778648003
١- القصص العربية.
أ - العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٧٩٤٩ / ٢٠٢٢

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد فرج

إلى شروق...

تغمركِ الأمومة بطاقة، تجعلكِ قديسة صاحبة كرامات، تشبع شارعًا كاملًا برغيف خبز واحد!

إلى تميم...

لما تقابلنا للمرة الأولى، سألتني الرهبة:

«هل هكذا تكون الأبوة؟».

فقلت لها: «إذا تحدث في المهد، سيمشي بين الناس ليقنعهم بعظمة التأويل!».

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا

@RIWAYAT2025

@RIWAYAT2025

Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

حصريا على روايات وكتب عربية
وعالمية
HTTPS://T.ME/RIWAYAT2025

«إن الرجولة هي أسطورة من الرصاص تقع على كتف كل رجل!».
نورا فينسنت

«الإنسانية هي المقاومة الوحيدة، أو يمكنني القول إنها الأخيرة!».
إدوارد سعيد

«إن الانتقام لا يقل عبثًا ولا سخافة عن المغفرة!».
خورخي لويس بورخيس

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا

@RIWAYAT2025
@RIWAYAT2025

Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

حصريا على روايات وكتب عربية
وعالمية
HTTPS://T.ME/RIWAYAT2025

قيل إن المواطن المصري، كريم حسين الورداني، الطبيب النفسي الذي يتابع حالتي، قتل المسيح.

حسب أقوال الشهود، الحكاية أساسها زيارة المواطنة المسلمة ماجدة عبد الله، لجارتها وصديقتها المسيحية مريم نجيب هاني، الأولى ربة منزل، والثانية صاحبة بقالة، ودافع القدوم هو المسيح، وعرفنا بعدها أن المقصود تمثاله وليس الكينونة! ووفقًا لكلام سيدات المنطقة، ابتاعت مريم نجيب منحوتة رخامية مقدسة، ذات حجم هائل يقارب مثيله لإنسان متوسط الطول، بسعر لا يصدَّق.

في محاولة قتل الورداني للرب، شيء من الخبل، درجات انفعال إنسانية متفاوتة، واقتحام فج لعبث ومصيبة عارضة.

كنت أنتظر كريم ظهر يوم الخميس الساعة الواحدة، بشارع الجسر، شبرا، بعد الهروب من زحام ميدان التحرير بسبب تظاهرة رياضية عجيبة بين الجماهير، إذ إن فريقَ نجوم الشمس حصد بطولة الدوري!

تبعًا لكلام كريم، كنا سنغادر شبرا متجهين إلى التجمع فنأكل بأحد

HTTPS://WWW.RIWAYAT2025
حصريا على رواياتنا وقصصنا

المطاعم، ثم نبدأ تمشية هادئة آخر النهار قبل حلول ليل يناير البارد في أحد المراكز الرياضية الشهيرة هناك، تماشيًا مع برنامج علاجي أساسه الحديث بين صديقين لمدة ساعة.

قررت الاستناد على سيارة قديمة، على الرغم من كل السلامات والتحيات بيني وبين أهل الشارع الذين يعرفون وجهي بعيبه الخلقي الواضح، مع رفضي بمنتهى الأدب دعوات الجلوس على المقهى أو باب أحد المحال اتقاءً للسعات البرد.

كمضيعة للوقت، استخدمت تطبيقًا خاصًّا بالصور، واخترت خاصية المرآة العاكسة، فتطابق الجزءان الأيسر والأيمن من ملامحي وكوَّنا وجهًا مثاليًّا لأصبح أكثر وسامة، ابتسمت، ولاحظت تكرار جسارتي مؤخرًا وخروجي إلى الشارع من دون نظارتي الشمسية، الحماية الفعالة ضد نظرات الناس إلى معالم الخلقة غير المريحة.

تناسيت سيرة وجهي الكئيب، متنقلًا بطريقة عشوائية بين الرسائل، وقرأت رسالة قديمة من زوجتي تلومني فيها على بخلي الواضح بسبب المبلغ المتروك لميزانية البيت، فأرد عليها بأن تصرفي حذر وحكمة، وأنني عانيت كثيرًا من وجع العوز حتى أدركت قيمة ونعمة القرش، ولو أنا بخيل فعلًا لماذا تزوجتني.

ضحكت على ردي القاطع، وتذكرت حياتنا معًا قبل الفراق، ليقطع حبل أفكاري وذكرياتي الحزينة والسعيدة وصول عربة وقفت بجانبي، لحظتها أيقن السائق وجوده بالعنوان المضبوط، لما خرجت سيدة تهلل متفاخرة أمام أهل الحي، تلحقها أخرى بالتكبير في عين كل حاسد.

ظننت في البداية أن العربة محملة بأثاث مثلًا، ليقودني الفضول وأنضم بعد مجهود كبير وسط تجمع الحاضرين، لأعرف ما الأمر، وكي أتغلب على إحراجي من شكلي وتفضيلي للانعزال كما نصحني كريم، فسمعتها تقول: «المسيح وصل!».

تجتهد الدراية لتقديم تفسير منطقي، خصوصًا عقب رؤية التمثال، بعد فتح الباب الخلفي ووجوم المتفرجين! المفروض أن الإبانة الأصح هي التفاعل مع عظمة الإبداع، يتبعها الإعجاب ونظرات الافتتان! أما الذي جرى، بعيدًا عن التخمين، فهو أننا سمعنا شهقة عالية، ضربات متتالية فوق صدر، لطمًا متتابعًا على وجه، وصرخت بنت صغيرة: «انظروا! يد الرب مكسورة!».

اقتحم المشهد رجل خرج من خلف المسيح، يتكلم بسرعة معتذرًا: «وحياة وليد ابني، لساعتين كاملتين، وأنا واقف بجانب التمثال أحرسه من الوقوع، وأتأكد من قوة الأحبال المربوطة حوله، والله العظيم يا جماعة بركت كالجمل دقيقتين أريح قدمي وأنا واثق من إجراءات الحماية، لكن الله يخرب بيت المطب الذي أكله السائق، فطارت المنحوتة وتحطمت اليد! وعامةً يا ستنا مريم أنا هاتفت أستاذ منتصر الفنان وهو في الطريق، وأقسم لي أن إصلاحها ممكن!».

الصوت الذي سمعناه وقت أنهى الرجل كلامه هو بدايات جلب المصائب، والخيط الأول لانطباق السماء على الأرض، وذلك بعدما صفعت مريم العامل، وشتمت السائق المقبل مهرولًا لينقذ الموقف، فما كان منهما إلا الطلوع إلى صندوق العربة، وتحت تأثير الغضب

سحبا التمثال وكأنه مصنوع من إسفنج، ورمياه تجاهها، فتفاداه كل الواقفين إلا ماجدة عبد الله التي كانت تكبِّر في عين كل حاسد، والتي استقبلت جسد المسيح الطائر بخبطة في رأسها لتسقط جثة هامدة وبجانبها يسوع المحطَّم.

شعرت بضيق تنفس مفاجئ، أحاول السيطرة على أعصابي وألا أصرخ أو أبكي بعد رؤية مقتل الست الغلبانة، فالواحد لا يقابل كل يوم جثة، وطبعًا لم أتدخل نهائيًا، كنت مراقبًا لاعتباطية اللقطات، وللتحول المباغت من سكون تام وحركة شارع عادية إلى مسرح جريمة وعراك شرس بين أهل منطقة وقاتلين.

في أثناء الاشتباك، مشت مريم المضطربة إلى جثمان صديقتها، تشهد اختلاط دمها بالتراب وقطع الرخام، تراقب صمت الجسد الأبدي، تهز رأسها يمينًا ويسارًا، تجتهد في كتم صرخة ربما تشق روحها إذا خرجت، ليسحبها من تشتتها ومسار حزنها تزايد ولولة السيدات التي توقفت فجأة بسبب ظهور كريم.

حمدت الله على مجيء كريم، أخيرًا سنرحل، على الرغم من عجز عقلي عن تفسير توقف العويل حين جاء!

لمحت شابًّا ورجلين، وتقريبًا دائرة غير نهائية من الستات، يحكون له كيف ماتت تلك الست، وبعد ثوانٍ رأيته يركض تجاه القاتلين، وما بين كر وفر وضرب، وعصبية كريم، ودهسه لتمثال المسيح تنفيسًا عن غضبه، وجمل تتكرر: «والله العظيم لم نقصد!»، «رمينا التمثال!»، «ست كبيرة مخبولة!»، «تشتمنا وتضربنا!»، ثم وبلا أي مقدمات هدأ المشهد مرة واحدة وسكت الجميع انتظارًا لما يجب أن يحدث!

لأول مرة في حياتي أرى التطبيق الحرفي لجملة: «الهدوء الذي يسبق العاصفة!».

كل الواقفين بلا استثناء شاهدوا رجلًا يرفع ورقة غادرت جيب كريم، كانت كفيلة بنقل الاعتراك من كفة إلى كفة، وفي ثوانٍ انعكس فعل الضرب الجماعي، وترك رجال المنطقة الرجلين القاتلين ووجهوا كل قوتهم لطحن كريم، حتى الذين وقفوا متابعين بسلبية انضموا إلى حزب الصفع والركل المشترك.

المواطن المصري، كريم حسين الورداني، الطبيب المجتهد الذي نجح برنامجه العلاجي ولو بشكل مؤقت في انتشال أب من الحزن، يقولون إنه عميل إسرائيلي!

من دون أي مجهود يُذكر، أو أي تدخلات مني، سحبني رجل من ياقة قميصي، وتكالب فوقي أهل الحي، أستقبل الضربات ولا أفهم ما السبب، منذ قليل كانت دعواتهم تغمرني بفيض الكرم، والآن لكماتهم وركلاتهم تخلق مأساة جديدة لديَّ.

بعد فترة تعذيب مكثفة، ومن بين لحظات إدراك خاطفة، سمعت من يقول إن ملازمًا وأمين شرطة قد حضرا أخيرًا، مر نصف ساعة أو أكثر أعتقد، أعجز عن تحديد الوقت، لكنني متأكد من حضور أمارات عدم الفهم على وجه رجال الشرطة! ما الذي يجمع بين جثة وامرأة تبكي، تمثال محطم ورجل فاقد الوعي، وآخر يحتجزه الناس؟

تدخل الأمين كي ينقذني من الأسر، بينما سمع الملازم جملة: «جاسوسان إسرائيليان يا باشا!»، في نفس اللحظة التي صاحت فيها عجوز: «يا باشوات، ابن الكلب المرمي هناك هذا داس على يسوع!

فتنة طائفية يا باشا!»، لتنفجر ماسورة اتهامات، ملخصها يحوم بين الجاسوسية والفتنة العقائدية.

لحسن حظي، مع ظهور الشرطة اختفى النكز والصفع والبصق، ووقف الملازم أمامي، يسمع منهم أصل الموضوع، وجاء أمره صريحًا: «واحد فقط يا حضرات! أين رضا العجلاتي الذي قدم البلاغ؟ أنت؟ تمام، ما الذي حدث؟».

حكى العجلاتي عن المشهد العبثي، وكيف تحولت قضيتهم من قتل جارتهم إلى القبض على خائن وعميل، وفي المنتصف اجتهد صوت ينادي بالفتنة، فيأخذ كريم علقة معتبرة، ويسقط جسده بجانب أمه ويسوع، وتكمل الجماهير الوفية حفلة الضرب على شرفي، ثم ينهي رضا العجلاتي كلامه بإلقاء التحية العسكرية مع مقولة خالدة: «إلا مصر يا باشا! تعالَ يا عبد المسيح، قل للباشا الحكاية كلها!».

ظهر عبد المسيح المكوجي في المشهد، بهالة البطل الذي دبر مكيدة للجواسيس، ورفع كارنيه كريم قائلًا: «تفضَّل يا باشا! شوف حضرتك! علم مصر وإسرائيل، جاسوس يجمع بين البلدين! أنا أصلًا دخلت وسط الهوجة لأبعد كريم عن الجدعين، سيقتلهما يا باشا! الرجلان لا مؤاخذة قتلا أمه! وفي قلب المعمعة شُفت الكارنيه، وعلم إسرائيل زغرد في وجهي!».

بلا داعٍ أو أهمية، خاض الواقفون في عرض كريم فجأة، كنوع من أنواع التأكيد على شرف معيشتهم، عمرو القهوجي مثلًا طلب فرصة التكلم، فوصم الجاسوس بالبخل، وأرجع عدم قعوده على

القهوة إلى اعتبار نفسه من أبناء الطبقة الغنية وتلزمه مشروبات المطاعم الغالية.

رفض عبد المسيح خطف الأضواء منه فقاطع القهوجي، وأوضح سريعًا معاناته مع كي ملابس الجاسوس، وكيف كان يوميًّا يرسل إليه طقمًا جديدًا، حلف عبد المسيح برحمة أبيه والطلاق وبغلاوة النبي أن القذر عدو الوطن لم يتأخر في الدفع نهائيًّا، زبون مثالي يتمناه كل صاحب عمل، وهو ما أكده مجدي البقال: «طبعًا يا باشا، أموال الجاسوسية والتخابر! والله العظيم يا جماعة، وحياة غلاوتك يا عم عبد المسيح، هو الوحيد في المنطقة الذي لم أكتب اسمه ولا مرة في دفتر المديونية!».

أشار الملازم تجاهي، وسألهم عن جريمتي، ليتعامل الجميع مع السؤال بتعجب واندهاش. سأله المكوجي: «وهو الأمر يحتاج إلى تفسير يا باشا؟ شريكه طبعًا! المتهم كان متخفيًا بيننا كطبيب نفسي، عيادته خلفك، في البناية رقم سبعة الدور الثالث، تقدر تكسر الباب وتفتش المكان، والموضوع أصلًا...».

قاطعه الملازم بنبرة حادة: «يا عم عبد المسيح! الله يبارك لك، أنا سألت سؤالًا ومنتظر إجابة! الأستاذ أبو عين واقعة من مكانها عنده كارنيه هو الآخر؟».

هاج الحشد، تكلم الجميع في نفس الوقت، فهمت الاعتراض العام من كلماتهم: «يا باشا! جاسوس إسرائيلي وجاء واحد يزوره، هل عندك أي سيناريو أو كلام آخر غير الشراكة في الجاسوسية؟».

شعر الملازم باحتمالية انقلاب الشهود عليه، فقال بعلو صوته:

«حقكم عليَّ، الحقيقة ستظهر في التحقيقات. يا سيادة الأمين هات الباشا المرمي هناك هذا! ومن فضلكم يا حضرات ممنوع بتاتًا تحريك أي شيء من مسرح الجريمة، النيابة والأمن في الطريق!».

سأله إمام المسجد عن سبب قدوم الأمن، فقال له: «طبعًا الأمن! الجاسوسية قضية كبيرة، تحقيقاتها تبدأ من عندهم، ولو الحوار حقيقي يا ويلهم يا سواد ليلهم!».

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا
@RIWAYAT2025
@RIWAYAT2025

Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

الحياة قبل كريم حسين الورداني

١

كنت واقفًا هناك، في منتصف الحزن والشارع، لا أسمع كلمة أو أفهم حرفًا، يقترب مركز الحدث بنفسه مني لأن المشي صار مستحيلًا، أرى ابني، ابن العامين، جثة هامدة، تحاوطه دماؤه المقدسة، تحميه، ولما لمحتني تفرقت، مقتربة من حذائي، تقبِّله باكية، تقريبًا تطلب مني الغفران وتواسيني في مصابي.

كنت واقفًا هناك، في منتصف المأساة والطريق، تقنعني الصدمة بواقعية المسألة، ابني ليس نائمًا ولا تخدعني براءته، عيناه مفتوحتان، ينظر إلى السماء بثبات مخيف، ترقد لعبة البطل الأمريكي على يمينه، بذراع وقلب مكسورين، البطل الذي ينقذ المدينة دومًا في أفلامه فشل في حماية ابني فسقط صريعًا هو الآخر.

خلعت النظارة السوداء، وخلع عيبي الخلقي الخوف، يسألني رجل عن شيء عدة مرات، أتجاهله، يرفض مجال البصر تغيير مساره، أقف وسط الناس، رؤوسنا محنية، وابني الوحيد الذي ينظر

حصريا على روايات وعالم
HTTPS://WWW.RIWAYAT2025

إلى الأعلى، كلنا نراقبه، ننتظر حدوث معجزة، كخروج موظف غلبان من بيننا، يدعي أنه المسيح ليمسح عليه فيقوم ضاحكًا، أو ربما يترك الرب حبل الوريد، ويسعف ـ سبحانه ـ ابني.

سألت بصوت مبحوح عن السبب، أجابني رجل المرور الذي حمد الله على مجيئي وطلب من الجميع الابتعاد: «مجذوب من مجاذيب السيدة، فجأة سمعنا صراخ ست، ولقينا المجذوب رافع العيل من عربته، ويقول: «أم العواجز نفسها في عيل، وطلبات أم العواجز أوامر!»، و... و... لا حول ولا قوة إلا بالله، ورماه يا أستاذ ناحية السيارات، فخبطه سواق عربة نقل عام الواقف بجانبك! وحد الله يا أستاذ، الإسعاف في الطريق، أو يمكنك أن تأخذه وتجري إلى مستشفى المنيرة، يمكن الروح معاندة إنها تروح!».

في أثناء جمل سريعة خرجت من السائق لتبرئة نفسه من أي تهمة، تذكرت زوجتي التي أسقطتها الذاكرة، فسألت رجل المرور عن مكانها، ليجيبني: «والله يا أستاذ، بائع لعب العيال الواقف خلفك، لا مؤاخذة يا أستاذ، البائع شاف المجذوب يجري ناحية حواري السيدة وهي في ذيله، ومن ساعتها وهي مختفية!».

لم أنتظر عودة زوجتي أو وصول الإسعاف، حملت جسد ابني الرقيق المستسلم السائب تمامًا، لأتوجه إلى مستشفى المنيرة. عرض الواقفون مساعدتهم، تخطيت الزحام ومشيت بين الناس أحمل ابني، وبدلًا من سماع عبارات المدح والبسملة والدعاء بطول العمر سمعت الحوقلة والتعزيات.

مشيت على شوك الانهزام، تدمي الصدمة دقات قلبي، لمحت رجال الشارع وأطفاله، يمشون معي بصمت المأساة، كأنهم أهل قرية تم ترحيلهم، كأنهم أهل الطوفان ينتظرون معي السفينة.

بعينين مغلقتين ووجه ملائكي، تنعكس صورة ابني داخل كياني بأكمله، أقنع ذاتي بنوم صغيري وليس موته، لكن الشفتَين المنفرجتَين عن مساحة ضئيلة تظهر أسنانه الصغيرة تخبراني بعكس ذلك، تذكراني بحركات كان يفعلها في أثناء نومه، كتحرك شفتيه بحثًا عن اللبن أو إغلاق فمه وفتحه عدة مرات كأنه يستطعم وجبة تشاركه الملائكة حلاوتها.

غادرته علامات الحياة، أربت على جسده الصغير، أمسح آثار الدماء عن وجهه، أقبِّله، أرتل آيات، أي آية أتذكرها لها علاقة بالموت أم لا، ثم ألوم الرب، أسأله لماذا وهبني ابنًا تعلقت به وبدأت ترتيب حياتي وفقًا لما يسعده ثم خطفه مني! سألته بصوت مسموع، صرخت بكلام غير مفهوم، الناس تستغفر وتحاول تهدئتي، لكنني أوجه الأسئلة إلى السماء، أسألها بقلب يتألم فعلًا وليس مجازًا: كيف يقبض ملاك الموت روح الأطفال؟ كيف يهون عليك وعليه قلوب الأمهات والآباء؟

طوال المسيرة، مسيرة القهر والكمد، أقول إنني في لحظات قليلة فقدت ابني، كنت أبحث عن مكان لركن السيارة كي أنضم إلى عائلتي الصغيرة سعيًا وراء مغامرة جميلة، وجاء فرج الله بمكان بعد مقايضة مع سايس المنطقة، انتظرته حتى يخرج السيارة، وفتحت هاتفي ومواقع التواصل، لأجد زوجتي في مقطع مباشر تنقل الخروجة

وهي تنتظرني أمام مسجد السيدة، ولما ركنت أخيرًا السيارة بالقرب من مؤسسة دار الهلال ورجعت إليهما مشيًا، لم يعطِني القدر وقتًا عائليًّا سعيدًا، بل فقد روح ابني واختفاء حبيبتي! في أقل من ربع ساعة مات العالم!

وقفت المسيرة أمام سيارتي، فتحت الباب ثم درج التابلوه، لأخرج صورة شهادة ميلاده لأنهم سيحتاجونها في المستشفى، قلت وقد تمكن البكاء مني، واهتزت يدي ولم أعد قادرًا على حمله: واضح أنك سمعتني لما قلت الرحمة والراحة يا رب! وجلست أرضًا أمام سيارتي، أبكي وأعدِّد كنسوان الجنازات، أرثي ابني وأبحث عن زوجتي، أنادي أمي وألوم الرب.

ألوم الرب، ليس فقط على ما حدث لابني، بل لأنه وضعني في اختبارات كثيرة فوق قدرة تحملي الهشة.

المفروض أننا كنا في نزهة لطيفة، كمسعى مني لتهيئة الجو العام والحديث مع زوجتي وإخبارها بحقيقة وضعي ومعاناتي مع اكتئاب ما بعد الولادة!

تخيل رجلًا، من بين كل رجال العالم، وضع الله بروحه المرض النسوي الأشهر، والآن سحب منه الأبوة، وقبل كل ذلك مريض باكتئاب نادر، وهو أصلًا مريض بمرض فريد آخر وعيب خِلقي!

أقول لنفسي يوميًّا يحب الرب الآخرين، أما أنا فيراني الشخص الأنسب لتجربة كل الأمور الغريبة، واقتنعت منذ صغري بأن التقسيم العام للكائنات الحية جاء في آخره قسم جديد عنوانه: فأر تجارب الرب.

٢

مثلما تركتني أمي وماتت فجأة، صرت أبًا فجأة.

الاستثناء الوحيد في حكايتي، حكاية رجل ثلاثيني، مسؤول مبيعات بمحل دراجات صباحًا، وسائق تطبيق «مشوارك» ـ لتحسين الدخل ـ مساءً، هو توفير حياة كريمة لزوجة طيبة وابن سيكبر ذات يوم كي يواجه العالم.

أمر عجيب أن توقظك نصفك الآخر على خبر عاجل: «أنا حامل». تنتبه خلايا مخك لكلماتها، تنتزعك المسألة من غواية النوم، تسترد طاقتك بكامل حيويتها، تعبر عن سعادتك باستفاقة كاملة، كأنك عرفت النبأ في أثناء ركضك، ليس وأنت بين متاهات الاستيقاظ، فتشكر الواهب على نعمة الموهوب، ثم تطلب منها كوب الشاي لتفهم حقيقة المعجزة.

للحياة طرق غريبة في توزيع هداياها. هناك رجل نام مرتاح البال بعد يوم عمل شاق وعودة إلى المنزل بجنيهات قليلة بسبب زبائن أغلبهم يدفع ثمن الرحلة بالفيزا، ليجد صباحًا يدًا تهزه بعنف قائلة: «خذ، هذه مسؤولية جديدة ستتحملها».

قبلها كنت زوجًا عاديًّا، يقلقه المرتب المخصوم نصفه والذي بالكاد يكفي احتياجات الشهر، ويرهقه التفكير في إصلاح محرك سيارته كي تتحمل مشاوير الرزق معه، زوج يعيش حياة متقلبة بين الحلاوة والمرارة، وصراعًا نفسيًّا داخليًّا باعثه ضآلة كينونته أمام إنجازات زوجته المهنية المتتابعة وجمالها الفاتن والحقد الذي يلمحه في أعين الحاسدين.

HTTPS://WEWTAT2025

يمكن إيجاز رد فعلي تجاه مفاجأة الأبوة في سؤال: لماذا يحرمني العالم كذكر شرقي من البكاء؟ البكاء ليس رفضًا للحمل، بل انعكاس معضلة نفسية تتمحور حول شخصي منذ ولادتي، بسبب تربية أمي غير السوية لي، وعدم اعتراف أبي بوجودي، وفوق كل ذلك أنا كائن جاء إلى الدنيا بعيب خِلقي ومرض نادر.

بالنسبة إلى العيب الخِلقي، تخلت العين اليمنى عن التموضع المتعارف عليه، وقررت رسم وجهي كلوحة لبيكاسو، كل الملامح مضبوطة إلا هي، ساقطة إلى الأسفل بميل مستفز، بدلًا من الوضع الطبيعي لشكل العينين في وجه الإنسان، فيحسبني الناظر مسخًا من مسوخ الزمان، أو أن طفلًا قرر تحريك عيني إلى زاوية سفلية مائلة، أو ربما ـ كما يقول أبي الذي لا يطيق سيرتي ـ زهق الرب من كثرة الخلق فلم يكمل تشطيب وجهك.

أما ما يخص حالتي المرضية، فهو مرض نادر لا علاج ولا اسم له، فأطلقت عليه ـ بعد الرجوع لمحرك البحث الشهير ـ اسم «متلازمة بيتهوفن»، وموجز الأمر كله يمكن رصه في عدة نقاط:

- إذا أراد أحدهم أن يعرف هل تعجبني أغنية معينة أم لا، فالأمر الطبيعي هو تشغيل الملف الصوتي لتلك الأغنية.
- المفروض أنني سأسمعها وأخبره بالإيجابيات والسلبيات.
- في حالتي الأمر مختلف تمامًا، فأنا لن أسمع الموسيقى الموجودة في الخلفية والمعروفة باسم «التوزيع»، ولن أسمع الكلام بلحنه، بل سأسمع كلامًا عاديًّا.
- الوصف الأدق للموضوع، أنت ستسمع أغنية «أنت عمري»

لأم كلثوم، أما أنا فأسمع أم كلثوم تقرأ الكلمات، أنت ستسمع الموسيقى والآلات في الخلفية، وأنا لن أسمع شيئًا.

- طول أو قصر الأغنية لا يهم، سأسمع الكلام وستنتهي الأغنية في نفس التوقيت بلا تأخير أو تقديم.
- طبعًا لأنني لا أسمع الموسيقى وطبقاتها، فصرت أسمع الناس كلها تتكلم بطبقة صوتية واحدة في حزنهم وفرحتهم وانفعالاتهم وضحكهم.

تقريبًا أراد الرب فعلًا أن يعرف كيف يعيش الإنسان من دون الموسيقى، مع سماعه لكل الناس بطبقة صوتية واحدة لا تتغير، ليزرعها في فأر تجاربه، أنا.

تم اكتشاف الأمر وأنا طفل، لاحظ أبي الموضوع، خصوصًا أن الأطفال ترقص على الأنغام إلا أنا، مهما حاولوا أقف ثابتًا، حتى مع اجتهاد أمي في التصرف، أنظر إليها بتعجب واستغراب، أسألها بنظراتي: ما المتوقع مني فعله؟

مع مرور الأيام والسنوات، واكتساب قدرة التعبير عن الذات، تأكدت المخاوف لديهما، حين وضع أبي شريطًا بالمسجِّل، وقال: «هل يمكنك إعادة ما يقال هنا؟».

قلت له بمنتهى الثقة: «طبعًا! قالت يا ولدي لا تحزن...».

قاطعني أبي موضحًا: «لا! باللحن!».

فجاوبته متعجبًا: «أنا أقلدها بالضبط!».

ثم جاءت أمي تصفق وتهز رأسها قائلة: «ردد معي، جلست والخوف بعينيها تتأمل فنجاني المقلوب!».

ولما كررت فعلتي صفعني أبي صارخًا: «يا غبي! إنك تردد الأغنية مثل قراءة الجرائد!».

لأرد باكيًا: «والله العظيم قلدتها كما سمعتها!».

لم يهدأ أبي، وطلب منا الاستعداد لزيارة الطبيب، على الرغم من أنها عكس طبيعته المريضة وممارسة داء الشحاذة، لتبدأ رحلتي مع الأطباء، والدهشة ذاتها في كل زيارة، مع الكشف عن مكونات الأذن والاقتراحات. وفي النهاية قالها استشاري كبير بعد دفع ثمن استشارة كاد يصيب أبي بمرض القلب: «خلقة ربنا، ركبنا سماعة، ركبنا القمر الصناعي، هو خلقة ربنا! وفر فلوسك!».

غادرنا العيادة، وأبي يسب اليوم الذي جئت فيه بسبب ثمن الكشف، وشعوره بالذل لأن ابنه حالة خاصة، أما أمي فقد تركتنا وقتها لتحضر اجتماع مركز خيري للحالات الخاصة، شاركت في تأسيسه وتشرف عليه، إذ إنها ساعتها كانت ستتسلم شحنة كبيرة لمعظم مؤلفات نجيب محفوظ هدية من مسابقة نظمتها جريدة، فقرر المركز الاحتفاء بالمناسبة مع أمي وأطفاله، لأرجع إلى البيت من دون حضن أمي للتخفيف عني، مع كراهية أبي المتزايدة ولومه المندفع كالرصاص: «حسبي الله ونعم الوكيل! هو أنا ناقص صرف فلوس!».

وبدلًا من صرف الفلوس، صرفت أمي في تعليمي ـ بشكل ظاهري ـ الكلمات التي نستخدمها لوصف الانفعالات، يصرخ ويزعق ويجلجل، فكنت أرى الوجه منفعلًا ينم عن غضب لا يرحم، ومع ذلك أسمع الكلام كأنه يقرأ لي جريدة اليوم، وليس يعنفني، مع ضرورة التنبيه على عدم الإفصاح عن مرضي، كفانا خلقتي!

لذلك، لما أخبرتني ياسمين زوجتي بحدوث الحمل، السؤال الأول لم يكن كيف عرفت، بل سألت نفسي: هل سيرث الجنين مرضي وعيبي الخلقي أم ستجتذب جيناته مرضًا غريبًا جديدًا؟ هذه إحدى مشكلاتي التي تثبت أن معاناتي الأساسية مع الأبوة لا تقترب تمامًا من استقبال الطفل، بالعكس، القضية بكل بساطتها وتعقيداتها تكمن في خط سير حياتي التي تمشي على وتيرة صوتية واحدة.

٣

طوال فترة حمل ياسمين، مع استضافة القلق بسبب الأبوة والجينات الوراثية والعقد النفسية المكتسبة، يوقظني سؤال يوميًّا: إن لم يرث الجنين مرضي النادر، فهل سيرث العيب الخلقي، أو العكس، أم سيرث انعدام الثقة؟ ليجيبه وسواسي اليومي: طبعًا، الجنين سيرث كل شيء! حتى نظارتك السوداء سيرثها!

مع كل شهر يمر، وبعد كل زيارة للطبيب ومركز الأشعة، وأي اقتراب من معرفة نوع الجنين، أيقنت وجود أزمة جديدة حقيقية بطلها الواضح عيبي الخلقي، وفي الخفاء أمي وأبي! قصتي مع أمي تحديدًا مختلفة، لم أكن مجرد ابن جاء إلى حياتها كدورة طبيعية لأي شخصين متزوجين، بل أنا عوض الله لها عن الإخفاقات التي واجهتها في مسيرة أخواتي التعليمية، تراني مخلوقًا بأمر إلهي لأزرع الفرحة داخل قلبها وأسقيها كل ساعة مهما تكلف الأمر.

نجحت أمي في تشكيل شخصية مطيعة، تحركها وتلبسها ما يناسب مزاجها، وما دامت وافقت على أمر فهو الأصح والأجدر لمصلحتي، ولا جدال حول ذلك! كنت أنفذ أي طلب تريده كي ترضى، حتى لو كان عكس رغبتي، ونسيت نهائيًّا المعنى الكامن خلف جملة «هذه حكايتي».

مثلًا، ونحن نختار حذاء العيد الذي يعجبها هي، سألني غريب ذات مرة لما عرف وقتها أنني في مرحلة الثانوية: «أحلى أيام حياتك تقترب، الجامعة، ما شاء الله يا مدام، الولد محترم جدًّا، شكله ضابط أو مهندس، مضبوط؟».

ضحكت وقلت: «طبيب أطفال، كي أعالجهم من أي أمراض نادرة أو عيوب خلقية».

لتبادرنا سريعًا: «إن شاء الله سيصير كاتبًا أو صحفيًّا مرموقًا مثل قريبه المرموق».

خرجت من المحل وأنا ألعن الطب، وأقول لنفسي: الصحافة رسالة مثل الطب تمامًا!

تأكيدًا على حلمها زرعت أمي الكتب في زوايا البيت، حاوطتني بكل ما يمكنه مساعدتي للدخول إلى بوابة الكتابة والصحافة، حاولت كثيرًا وبطرق مختلفة معالجة الآثار النفسية لمرضي وشكلي وجحيم الحياة مع أبي، بالتعرف على كتابات العظماء والاندماج معهم، لأكبر وأصير رجلًا يعرف كيف يواجه الحياة بفلسفة الأدباء وحكايات الآخرين، ثم تنهي خطابها بدعوتها المكررة: «يا رب أشوفك كاتب أكبر من الدنيا كلها!».

لم أفلح في الهروب من نجيب محفوظ، أو الكُتَّاب الأجانب الذين أجهل أسماءهم، كانت تخبرني بأنهم الصفوة الذين رشحهم الأديب كثيرًا، ثم تبدأ في تكرار الدرس اليومي؛ توضيح الطرق الأفضل لتنظيم المكتبة، ورص الكتب بأسلوب احترافي يسهل عليَّ الوصول إلى ما أريده في أسرع وقت، ومَن غيرها يتقن ذلك؟ أمي، الأستاذة أميرة سلامة العيسوي، مدير إدارة مكتبة كلية الآداب جامعة القاهرة، والشريكة الأكثر فاعلية في المركز الخيري «عالم أجمل» للاهتمام بالحالات الخاصة، أمي التي كنت أجاري أحلامها مازحًا: «إن شاء الله لما أكبر عقلي ينضج ويفهم، وأبدأ أكتب، وأعدك نجيب محفوظ جنبي يبقى أكبر صفر!».

فتغضب مني وترد بسرعة: «اخرس! نجيب محفوظ فوق الكل!».

على الرغم من مجهوداتها، لكنني - وللأسف - ورثت عن أبي كراهية الكتب، وأشاركه في حب السينما أو المحتوى المصور، وهو الأمر الذي جعلني دومًا أصف أشكال الناس بمدى التشابه بينهم وبين أهل الفن، وإذا فشلت في العثور على تماثل مشترك أصف ما أراه مضطرًّا! هذا بجانب دور السينما المحوري في حياتي، إذ إنني بسبب فيلم «النظارة السوداء» للنجمة المتألقة نادية لطفي، كبرت مختبئًا خلف نظارتي الشمسية التي تحميني من أعين الناس، وتجعلني مميزًا وصاحب مظهر غامض تمامًا كبطلة الفيلم الجميلة «مادي».

ولأنني أحب السينما والصور وأكره الكتب، كنت أقرأ ترشيحاتها بالمشي فوق السطور، مع عدم السماح لأي حكم بالدخول إلى

عقلي وإعادة تكوينه وفق وجهات نظر الكاتب. إذ إنها كلما قالت: «اقرأ نجيب محفوظ، سيبهرك»، كنت أفتح أي عمل باحثًا عن بطل بحالة خاصة، لا شخصية جانبية أو هامشية! وللأسف، لم أجد في أعماله التي قرأتها غايتي، لذلك كرهت أدب نجيب محفوظ لأنه كتب عن طوائف المجتمع إلا نحن، أبناء الحالات الخاصة، لم يكتبنا كأبطال قَطُّ! وهو أهم درس تعلمته في حياتي منذ بداية مسيرتي التعليمية.

وعلى ذكر مسيرتي التعليمية، تعاملت أمي منذ الصغر بحزم رادع مع أي محاولة لمضايقتي، واعتمدت على ذيوع صيت قريب لنا كان من أشهر صحفيي الوطن العربي في عدم تعرض الأشقياء لي داخل المدرسة، وعرفت أنها طوال السنوات الدراسية كانت تذهب سنويًّا بكارت التوصية من قريبنا الشهير ليقوم الطاقم الإداري باللازم، واللازم هنا عبارة عن محاضرة تأديبية يرأسها مشرف الدور لتلقين الطلاب أسس التعامل مع الطالب صاحب الحالة الخاصة والواسطة.

لطالما حاولت كسر الحواجز بيني وبينهم وتكوين مجموعة من الأصدقاء، لكن الجميع كان يتجنبني! حتى نشأتي في منطقة شعبية لم تشفع لي للخروج ورؤية الشارع بكثرة والتعرف على أصدقاء جدد، اعتمادًا على جدعنة أهل الحارة، سكان عطفة شق العرسة، المتفرعة من حارة خوش قدم بالدرب الأحمر، على الرغم من سؤالهم المتكرر لأبي عن سبب بقاء الولد بالبيت ورفض إحضاره معه إلى قهوة عاشور، أقدم مقهى شعبي بالمكان، وطبعًا كان رده لا يتغير،

الحجة الكاذبة التي لقنتها أمي له: «تعليمات الدكتور يا سيدي، إلى أن يفرجها ربنا وترجع عينه إلى مكانها. عاوزين العيل البارد أبو طبقة صوت واحدة يقعد معنا؟ هي ناقصة!».

ظل خروجي من هيمنة أمي مرهونًا بعدة تحذيرات؛ لا تبتعد، ممنوع التحدث إلى الغرباء أو أطفال المنطقة، الاكتفاء باللعب أمام المنزل، لا تعطِ فرصة لاقتراب الأشخاص منك، تجنب الاحتكاك بهم، ستظل نفسيتك سليمة ولن تسمع ما يجرح إحساسك. كل الأوامر جعلتني وحيدًا، أخاف من التعامل مع البشر، ابنًا مطيعًا أمه هي صديقه الأوحد والأقرب.

المرة الوحيدة التي تمردت فيها على كلام أمي حين سمعت العيال يركضون مرددين اسم أبي، وأنه يتعارك مع حازم الزلباني، لأن أبي هزمه في منافسات الطاولة، لأجري معهم متجاهلًا التحذيرات إلى أن وصلت إلى قهوة عاشور، فتتوقف العركة لحظة ظهوري، فيقول أبي فور رؤيتي: «أمك وأخواتك بخير؟».

لأجيبه: «كلنا بخير، سمعت حوار العركة».

لكنه أحرجني أمام الجميع مستفسرًا: «والمحروس هو من سينقذني إن شاء الله؟».

وطبعًا ما زال جسدي يحفظ تفاصيل العلقة المعتبرة التي ربتني بها أمي عقابًا على تمردي الفاشل.

أثبتت كل مواقف أبي أنه يطيق العمى ويكره سيرتي، وتمكنت أمي من إقناعه بضرورة الاعتماد عليها بالكامل في تربية ابن بحالة خاصة، وعرفت كيف تقنعني من الصغر بأن النجاة في

طاعة أوامرها مهما كانت، وألا أنظر إلى تربية أخواتي البنات لأنني حالة خاصة، والحالة الخاصة باختلاف كنهها في البيوت المصرية تعامَل دومًا بطريقة فريدة تلائم طبيعة الشذوذ الخلقي لصاحب الحالة، مع تذكيرها الدائم بتحقيق مخططاتها لضمان نجاح مسيرتي التعليمية.

عامةً لم أكن الطالب المجتهد، لكني سمعت كلامها بالحرف الواحد، بعد رسم خريطة كاملة تساعدني على تخطي المراحل الدراسية كي أصل إلى الكلية التي حددتها، آداب قسم مكتبات! وذلك ما حصل في النهاية لطالب كان بالكاد ينجح، وتخرجت في كلية الآداب قسم مكتبات كما حلمت أمي.

حتى أيام الجامعة، لطالما زارتني وحذرتني من الصداقات، وأجبرت الجميع على تجنبي، كي لا تحرجهم، بضرورة التركيز في الدراسة، وأن ابنها حالة خاصة يجب مراعاة نفسيته، على الرغم من سعادتي بمحاولات الزمالة الأولى، لكنها فشلت جميعًا.

إذن، منذ الصغر وهي تختار لابنها كل شيء، تعرف أين مصلحته، رسمت الطريق التعليمي له، حذرته من الناس والصداقات، شجعته على القراءة، وضعت الكتب العظيمة حوله في كل مكان لعله يصير «محفوظ» الجديد، أو كاتبًا متمكنًا مثل المفضلين لدى نجيب محفوظ. ثم فجأة، بعدما حققت كل رغباتها، تموت في حادثة سيارة غريبة، هكذا بمنتهى السهولة على الرغم من طاعتي التامة لمدة عشرين عامًا.

عشرون عامًا، كانت أمي فيها كل شيء بالنسبة إليَّ، وعلى الرغم

من القفص الكبير الذي ربتني داخله لكنني وافقت على قص ريشي! لم أكره يومًا الحبس أو منعي من الطيران، ربتني أمي على أنني طائر مصاب بعيب خلقي يعجز عن بلوغ السماء كبقية الطيور، فعشت حياتي إنسانًا وحيدًا أجبره القدر على مسيرة حياتية مأساوية، ومع ذلك وجد الأمان في وجود أمه التي تحرمه من أغلب الأشياء، لكنها في النهاية أمه، الصديقة الوحيدة وسط عالم يكره المسوخ، وأنا ولدت بوجه ينتمي إلى طائفة القبح.

٤

اللحظة التي وقع فيها ابني، للمرة الأولى، وهو ابن ثلاثة أشهر، سمعت صوت الارتطام ثم البكاء، كانت هي اللحظة ذاتها التي وقع فيها قلبي، وشعرت بأن عرش الرب شاركنا السقوط، والآن هأنا داخل استقبال المستشفى، تجتهد قدماي في حمل جسدي وأنا أحمل جسد ابني، وأطلب من الواقفين طبيبًا أو إغاثة وتفسيرًا لما يجب أن يحدث.

ركضت الممرضة تجاهي، خطفت مني جثمانه، وضعته على سرير متنقل وأسرعت به تجاه غرفة، شاركتها ممرضة أخرى، سمعتها تنادي بصوت عالٍ: «يا منى! يا منى! دكتور جمال في الاستراحة أو الحمَّام تقريبًا، وحياة النبي، بسرعة!»، ثم اعتذرت لي عن غياب أطباء الاستقبال بسبب كثرة الحالات، ثم انضمت ممرضة ثالثة إليهما.

HTTPS://T.ME/RIWAYAT2025

كنت أعرف من نظراتهن أنه مات، لم يكن الأمل موجودًا، رائحة البنج والموت تحتل المكان، لكنهن على الرغم من ذلك حاولن فعل المستحيل، حتى جاء الطبيب راكضًا، وفي ثوانٍ فحص ابني، شارحًا الوضع بصوت مسموع، في أثناء تنفيذه خطوات الإسعاف الأولية: النفس معدوم، النبض متوقف، لون الجلد مائل إلى الأزرق، بارد، لا هو ندي أو يشير إلى وجود عرق، الأذن بها سائل شفاف مما يعني وجود نزيف وكسور بالجمجمة. في ذات الوقت ركضت واحدة لتحضر جهاز ضربات القلب، والأخرى تبحث باستماتة عن أنبوب وقناع أكسجين، وبعدها طلب الطبيب ـ في أثناء فحص جثمان ابني ـ تعرية الجزء الأعلى من جسده بينما هو يخلع بنطاله والحفاض.

تدخلت ولم يمانع، وبقلق أبوي رفعت جسده إلى حضني، حتى إذا كان ابني ميتًا لن أوجعه، أخلع عنه القميص الأزرق الملطخ بدمائه لألاحظ رائحة أعرفها، رائحة لطالما تحدثت عنها مع أمه ونحن نضحك على مدى بشاعتها، أتذكر كيف كان يضحك وهو يشير ناحية الحفاض مرددًا ما حفظته أمه: «ياع!»، ثم سألت نفسي وأنا أغالب الدموع: هل تغوط ابني قبل الحادثة أم فعلها لأنه مات خائفًا؟

لما لمحت تسلخات خفيفة سقطت دفاعاتي مرة أخرى، وبدأ البكاء من جديد. يعرف كيف يهاجمك الحزن فعلًا، ومتى ينشط ذاكرتك بكل المواقف المخزية في حق أحبابك، ومتى تحديدًا يزامل الندم كي يقضي عليك وعلى هشاشتك.

تذكرت كل المرات التي غيرت لابني حفاضه، لكن أصعبها كان في بدايات قدومه، وقتها اجتهدت أن أزيل عن ياسمين مشقة وعناء تغيير الحفاض، وهو ما صرت بارعًا فيه، إلى أن نسي عقلي أهم نقطة، ممنوع استخدام المناديل المبللة في حالة وجود التسلخات! فعلتها وقطع قلبي بكاء صغيري، سألت وقتها نفسي: كيف أصبحت السبب في ألم ابني؟ كنت أعتقد أنني أب يفعل كل شيء من أجل ابنه كي لا أعيد تجربتي الفاشلة مع أبي البشع، واقتنعت حينها أنني ـ مع جهلي بأقل الإجراءات الاحترازية لسلامة الطفل ـ أب فاشل.

استعاد تركيزي عافيته، لأجده أمامي ميتًا، لا يتحرك ولا يناديني ولا يلاعبني، جسد صغير ثابت، ملاك مقتول، شاهدتهم وهم يحاولون مع جثمان ابني، لكن النتيجة واحدة، ناولتني الممرضة التقرير النهائي المكتوب كي أستخرج شهادة وفاة ابني: «وفاة إثر حادث»، لأتدخل وأشرح للطبيب الموضوع كله، وأنني سأعتمد على هذا التقرير في تحرير محضر، ليتحول الأمر إلى مأساة: «محضر لمجذوب؟ يا أستاذ، أولًا البقية في حياتك، ثانيًا ما الذي سأكتبه في التقرير؟ ضرب أفضى إلى قتل؟ هذا لم يحدث، ولم يترصد المجنون لابنك، الموقف كله حدث في ثوانٍ وفقًا لكلامك وكلام الشهود، القصة كلها حول مجنون والناس تقول إنه فص ملح وذاب! عامةً يا منى بسرعة هاتي الأمين إسماعيل من مكتبه، ليرى كيف سنتعامل مع الموقف. وحضرتك يا أستاذ، سنضع ابنك في الثلاجة حتى تحضر تصريح الدفن!».

في أثناء انتظاري للقرار النهائي، حاولت ممرضة مواساتي فقالت: «الله يرحمه، سبقك إلى الجنة وهو شفيعك يوم القيامة، يعوضك الله في شقيقه إذا كان موجودًا أو يرزقك بطفل آخر، البقاء لله يا أستاذ، حضرتك تؤمرني بأي خدمة؟ والله لا أمانع أن أذهب معك إلى البيت لتحضير الطعام أو التنظيف، أكيد المدام في حالة صعبة!».

وفي وسط كل هذا الحزن سألني العقل: صحيح، أين المدام؟

٥

اللحظة الأولى في احتمالية انضمامك إلى عالم الأبوة هي المؤشر العام والصورة التقريبية لشكل تعاملك مع المسؤولية.

لما تركت ياسمين زوجتي، بعد البشارة بالحمل، والركض في الشقة فرحًا، والبكاء داخل الحمَّام سرًّا، هاتفت مديري وأنا أقود مسرعًا للوصول إلى مقر العمل، محل الدراجات الذي أقف فيه كمسؤول مبيعات محترم، تَلفَنتُه لأخبره بأن المدام استيقظت مريضة وهي الآن أفضل، وهذا مبرر التأخير، فتمنى لها السلامة وتبعها بجملته المعهودة: «والله كتبت ورقة الخصم، لكن نقطعها وتعوضها بعدد ساعات شغل!».

طوال اليوم، بسبب فرحتي بالأبوة، وأنا أعامل العملاء بمنتهى الود، أحسب كل كلمة تخرج مني، أتحمل سخافاتهم وإصرارهم الجشع على تخفيض السعر، فأدافع في البدء عن الثمن المعروض

ومميزات الدراجة المختارة، ثم أوافق بموجب سقف التخفيضات المسموح لنا وفقًا لسعر شراء الدراجة وبيعها، فأبتسم وأعدل وضعية نظارتي السوداء وأقول لهم: «رضا سيادتكم أهم حاجة!».

تنقلت ساعات العمل بين جمال الانسيابية، وسرعة المرور، وظهور القلق بين الفينة والأخرى من مسؤولية الأبوة، إلى أن جاءت زبونة على وجهها غضب ربنا، بصحبة ابنتها، ودراجة بناتي لونها بنفسجي مقاس عشرين بوصة، وسألت بعلو صوتها: «أنت المسؤول هنا؟».

ابتسمت وأكدت على كلامها، لتنفجر صارخة: «تقصد مسؤول السرقة!».

الأم الشاكية قررت شراء دراجة لابنتها بعد نجاحها في اختبارات الأوبرا، ولأنها تعرف عروض محلنا اليومية ظنت أن ابنتها سترجع بخصم معقول، لكنها تفاجأت بالثمن، ولأنني أقسمت على عدم إفساد فرحة اليوم قلت لها: «آسف جدًّا يا أستاذة، الدراجة «اليونكورن» (Unicorn) من الأعلى مبيعًا، متانة وجودة، تعيش العمر كله، وتتحمل أي وزن، أعتقد أن الأستاذة الصغيرة أخذتها بسعر ألفين وثلاثمائة وخمسة وسبعين جنيهًا، سنحسبها لكِ، كاعتذار من المحل، بثمن ألفين ومائتين، وهذا تقريبًا...».

لم تمهلني لأكمل كلامي، وبدأت غريزة الفصال لدى الأم تتصاعد. سمع مديري الموضوع فجاء مسرعًا ليتدارك الموقف، ولم يتعامل معها أو يلومها حين قالت: «أنا زبونة المحل يا أستاذ طارق! الأفندي صاحب النظارة السوداء فاكرني راكنة الفيل! الأستاذ

العجيب شبيه طه حسين يقول لي أنا على مبلغ خصم تافه، وأنا أصلًا أدفعه ثمن مشواري لمحلكم! حرامي وأهبل!».

حاولت الدفاع عن نفسي، رمقني مديري بنظرة فكظمت غيظي واندفاعي، وطلب منها الجلوس في مكتبه، وأقسم عليها بضرورة شرب أي شيء، والخصم الذي يرضيها سيطبقه حالًا.

بعد رحيلها وقفنا في وسط المحل، من دون أي مراعاة لمكانة وظيفتي، أو لصلة القرابة بيننا ـ ابن عمتي أصلًا ـ وقالها بصراحة واضحة: «المبلغ المخصوم من ثمن العجلة سيخصم من المرتب يا أستاذ!».

مشيت بعد وصلة التحذيرات وخصم نصف اليوم، ركبت سيارتي رافضًا تفعيل تطبيق «مشوارك»، ظللت هائمًا في الشوارع بلا هدف، أبكي بسبب تنمرها على شكلي، أخبط المقود بيدي، أتذكر انفعالها وسبابها ومنظر مديري وهو يتأمل الزبونة صاحبة الجسد الفاتن المهتز بفعل عصبيتها، وأتذكر كلام أمي عن نظرية «الأنثى» دومًا على حق.

منذ صغري، لم يكن مسموحًا لطفل غريب ـ يكرهه العالم وأبوه وتحميه أمه ـ الاعتراض على أمر من أوامر أي أنثى، ربتني أمي على أن كلمة الأنثى هي الأعلى، ويجب عليَّ طاعتها وطاعة أخواتي البنات، ولا مجال للشك أو المحاورة بسبب طبيعة الإناث عامةً وفطرتهن السامية وحاسة استشعارهن في استخراج الصواب والحق من أرض المسألة.

على الرغم من ذلك حافظت على هويتي كذكر، كانت تمجد الأنثى وفي الوقت ذاته تنبهني لضرورة التفريق بين الكيان الذكوري

ومثيله الأنثوي، وتختتم محاضرتها دومًا بالجملة نفسها: «أحب جدًّا أنك تكبر بين الناس كرجل محترم، يحترم الأنثى ويطيعها، مع معرفتك أنك رجل، فاهم الرجولة، يتصرف بطبيعته الذكورية مع العالم، ويبقى أحن واحد في حضن المدام! فاهم؟ إياك تفتكر إن تربيتي غرضها إنك تطلع سوسن في الآخر!».

هكذا كبرت بين أربع شقيقات، وكنت الأصغر، تفرق أمي في المعاملة بيننا، تعظم وجودهن وكل أوامرهن مجابة وتحافظ على هويتي، تغدق عليهن بجمال الحرية وتسلبني إياها! لم تكن العلاقة بيني وبين أخواتي محطمة منعدمة، بل العكس، تعاملن معي بمبدأ يوم لك ويوم عليك، لعلمهن أنني لا أملك صديقًا، فحاولن فعلًا رسم علاقة أخوة مترابطة.

تحاكت أمي كثيرًا عن حب شقيقاتي وفرحتهن العارمة حين عرفن أن الجنين ولد، وحاولتُ باجتهاد يحسب لي طوال سنوات نضجي تصديق كل كلمة قالتها عن شعورهن تجاهي، حتى جاء يوم، وأنا ابن العاشرة، وشقيقتي الكبرى أمانة في السادسة عشرة، والوسطى إنجي في الرابعة عشرة، وأصغرهن بدور في الثانية عشرة، وتوأمتها بهية الأكبر بخمس دقائق، طلبن مني ضرورة الانضمام إليهن بصحبة صديقات أمانة لأنهن على وشك اكتشاف مثير.

جاء والد إحدى صديقاتهن، ونقلنا جميعًا مع ابنته بالسيارة إلى منزلها، وهناك كنت الذكر الوحيد بين تسع إناث، وفهمت من الجو العام والبالونات المتطايرة طبيعة المناسبة التي على وشك الاحتفال بها، تبعتهن مع طمأنة نفسي: ما الذي سيحدث؟ هذه فرصة جميلة

لتتعرف على الوجوه الحقيقية لأخواتك، ولمحاولة اكتساب أي أصدقاء أو صديقات بعيدًا عن صداقة أمك فقط.

دخلت أمانة غرفة صديقتها صاحبة المنزل وقالت: «تعالَ! فيه مفاجأة كبيرة!».

ركضت فورًا تلبيةً لطلبها، فأنا لن أقدر على صفعة أمانة إذا تكاسلت أو رفضت أوامرها، وبمجرد دخولي الغرفة سمعت صوت غلق الباب بعنف خلفي، وخلعت أمانة بنطالي، ثم هجمت أضخمهن جسدًا وألبستني فستانًا، وفي أقل من ثانية كانت البنت صديقتهن البارعة في فنون الزينة متكئة أرضًا بثبات، بيدها عدة الزينة كاملة، تضع أحمر الشفاه والكحل وسط ضحكاتهن مع عبارات مثل: «بنت حلوة فعلًا، لما تكبر سأزوجها لأخي، أرى العريس تحت، العروس جاهزة!»، مع جلوسهن فوقي مرة واحدة حين سمعن صوت طرق الباب.

تعجبت صديقات أخواتي من تعاملي مع الموقف، تظاهرت بالرضا لفرحتهن بعد قتل نوبة بكاء كانت على وشك الانفجار، وطالبتهن بالقيام من فوقي لأنني لن أصرخ أو أقول شيئًا، وسمعت إحداهن تقول: «أحسدك يا أمانة! أخ صغير ومطيع!».

وفي طريق عودتنا بسيارة والد صديقة أمانة تلقيت تهديدات عن عدم إخبار أمي بالمقلب، فقلت لها والدموع تسألني متى أظهر فأرفض: «كنا نلعب!».

شكرتني على تفهمي ونضجي وقالت: «الأسرار الحلوة تعيش كذكريات حلوة!».

لما وصلنا كانت أمي هي الأخرى عائدة من مركزها الخيري، ولاحظت ـ وحتى يومنا هذا كلنا لا نعرف كيف ـ تغير لون رموشي، ووجود ما يدل على زينة ممسوحة! حاولت أخواتي الإنكار لكنها صممت.

مع تصميم أمي انفجرت في البكاء وركضت تجاهها، حاولت الاختباء في حضنها، تمنيت أن يختفي العالم وأن يخبرني أبي لماذا يكرهني، فحوقلت أمي وظلت تردد: «خير اللهم اجعله خير! انطقوا يا ولاد الكلب!».

قالت أمانة أختي، بعد بلع ريق وتفكير سريع: «بعد الحفل ساعدنا أصحاب البيت في التنظيف مثلما علمتِنا، لكن الأستاذ رفض المساعدة! بصراحة يعني اليوم تصرف بمنتهى قلة الأدب! بعدها اكتشفنا إنه سابنا ليلعب مع أخت صاحبة عيد الميلاد، ولطخ وجهه بالزينة فضربته على يده وشرحت له أن الزينة للبنات، فوبخني وصرخ فينا كلنا، فمشينا من هناك، وقلت له ستتعامل معك ماما في البيت!».

نظرت أمي إليَّ لتتأكد من صحة الرواية، لم أقل شيئًا، حتى كلمة «كذب» رفضت الظهور! كل مرة تذكرت فيها هذا اليوم سألت نفسي: ما الذي منعني من الدفاع عن ذاتي يومها؟ هل انتظرت مثلًا كارت التوصية؟ أو ربما سكتُّ بسبب إعجابي الجواني برواية متخيلة عني تظهرني كمتمرد يرفض الأوامر.

بعد كلام أمانة تحولت أمي، ماتت نظرة الشفقة والفزع، وقامت ملامح اللوم والعتاب، قالت: «كم مرة قلت لك إن مساعدة المرأة

واجب على كل رجل؟ أين تعاليم المركز لك؟ كم مرة نبهتك إذا طلب منك أخواتك شيئًا فتنفذه فورًا بلا أي جدال؟ هل ترى نفسك أفضل وأعلى منهن مثلًا؟ عامةً ستغسل أطباق الغداء لمدة أسبوع عقابًا لك! أنا نازلة حالًا إلى المركز، كنت راجعة البيت نسيت الفلوس، لنا كلام بخصوص مسألة الرفض يا بيه!».

حمدت الله على العقاب وانتهاء دقائق التوتر والقلق، عامةً تلقيت عقابات شتى بدلًا منهن، ووافقت على كل أوامرهن وطلباتهن تحت مسمى أمي أدرى بمصلحتي، وأخواتي لا أعرف سواهن، بسبب أسوار الحماية الموضوعة حولي، حتى المركز الخيري الذي تحدثني عن تعاليمه وكنت أروح برفقتها هناك في أعوامي الأصغر، حرمتني منه فجأة وبلا أي مبررات، ذهبت معها كل يوم تقريبًا إلى أن صرت في الرابعة من عمري، بعدها منعتني من زيارته، لكن أخواتي ترددن كثيرًا على المركز بلا أي منع أو حجب.

بشكل يومي، كنت أفكر، قبل وبعد المنع من زيارة المركز: ما الفكرة عامةً وراء شراكة أمي في مركز خيري؟ هي لا تملك المال اللازم لرفاهية كتلك! وكلامها عن فعل الخير لم يشغلني، ما شغلني حقًّا هو لماذا تتركنا في أي وقت وتذهب إليه مهما كان التوقيت؟ أذكر مرة أنها ذهبت إلى المركز في الثانية صباحًا وعادت بيدين ملطختين بالدماء! وبررت المنظر الدموي بجرح إثر استعمال السكين!

عامةً يُعد هذا التوضيح شبه الكامل المدخل الأكثر صلابة لشرح كيف فاز رجل غريب بزوجة استثنائية تليق بالملوك والأمراء، لكنها ـ

على الرغم من كل شيء وعن اقتناع تام ـ وافقت على منح اسمها وجسدها للرجل الأكثر هشاشة في العالم.

٦

لما رأيت الجنين للمرة الأولى بعد أشهر يتحرك داخل رحم ياسمين، عرفت بيقين تام، من دون أي وجود للمجازات، كيف كانت البنوة.

مع كل كشف ومتابعة يختفي القلق مؤقتًا، تبتعد قليلًا فكرة الأمراض المتوارثة، يتعلق قلبي به، وتظهر الدهشة على وجهي، لذلك اقترحت الطبيبة تجربة أمر مذهل؛ استخدام السونار رباعي الأبعاد الذي يمكننا من رؤية صورة كاملة بدلًا من المشهد الجانبي المتكرر، وقد نكتشف ـ من أجل الضحك والمتعة وليس كحقيقة كاملة ـ يشبه مَن، أنا أم أمه.

تضحك حبيبتي من قلبها، تنظر إليَّ ثم تراقب الشاشة، قالت بمنتهى الثقة: «نسخة مني فعلًا! **عسل، عسل، عسل**، حامل في صورة مصغرة!».

تضع إصبعها فوق سطح الجهاز، وكأنها تلمس وجهه لتداعب صغيرنا، تطبيقًا لنصائح كتب الحمل التي تقرأها؛ تحدثي مع طفلك والعبي معه فهو يشعر بكِ ويفهم كل شيء.

طلبت الطبيبة الاقتراب من بطن زوجتي والتحدث إلى الطفل لنرى

HTTPS://WWW.MEARIWAYAT2025

بأعيننا كيف يتفاعل مع صوتنا، نفذت التعليمات وقلت له بصوت مسموع: «اخرج يا حبيبي، ستنبهر والله! أم جميلة وأب حكايته على الله! أنا عند وعدي يا ابني، أبوك حمار شغل، سينحت في الصخر، ربنا يرزقه ويتغلب على عقده ويعاملك أفضل معاملة! وإن شاء الله الدنيا كلها تبقى عندك!».

قالت ياسمين بعدها: «الحقيقة كنت في قمة سعادتي يا دكتور لما شُفناه في الشهر الفائت، **كان أحلى أصلًا!** وقلت الملامح غير واضحة، لكن من الواضح أنها بنت! **يا رب تطلع بنت فعلًا**. والآن ونحن في الشهر الخامس تأكد نوع الجنين، ذكر! **عسل وقرنفل**. لكن ما موضوع الأطراف يا دكتور؟ أنا عاجزة عن تحديد الجهة، الذراع اليمنى أم اليسرى، أعتقد أنها غير مكتملة! **عيل ناقص**، هل ما زال في طور النمو؟ عامةً كل الذي يبعثه الله إلينا خيرًا، الخير عامةً كله من الله، وحكمته التي لا نعلمها!».

تتحدث عن الخير كله، وتتناسى تقريبًا احتمالية ولادة ابننا من دون ذراع!

غادرنا العيادة بفرحة منقوصة، مثل ذراع ابننا، وطوال الطريق من ميدان الحصري إلى منزلنا بميدان لبنان بالمهندسين، وكل التساؤلات تهاجم خلايا عقلي، وياسمين تتحدث إلى الجنين داخل بطنها بكلمات وسجع، أدركت بعد عدة محاولات لفتح الكلام أنها تغني له، سألتها عن سلاسة تعاملها مع الموقف بتلك البساطة، هل هي دليل موافقة أم خوف وصدمة؟ وهل سنحضره إلى العالم بظروفه تلك؟ لكنها لم تنزعج أو تغضب، وأجابت بمنتهى الهدوء: «ظروف؟

HTTPS://T.ME/WAY2025

ابننا أجمل ولد في الدنيا. الكمال لله وحده، وقلت لك مليون مرة الخير عامةً كله من الله، وحكمته التي لا نعلمها!».

جملتها الدافئة، «الخير عامةً كله من الله، وحكمته التي لا نعلمها»، كلما قالتها لاحت أمامي جلستنا وأنا أعترف لها بحبي.

بداية تعارفنا تصلح تمامًا للتصوير في أفلام الحركة والإثارة.

كنت قد انتهيت من دوام محل الدراجات، وتأكدت من غلق باب المحل، باب أشهر اسم لبيع الدراجات بمنطقة وسط البلد، وهاتفت ابن المالك لأوضح أسباب انخفاض البيع اليوم، فرفض كل الحجج، حتى مع بروزة مقتل ناقد شهير في محيط المنطقة، وقرر خصم اليوم من مرتبي مع تعويضي في الحوافز إذا حققت الرقم المطلوب.

ركبت سيارتي وأنا أسب وألعن لوجهي وللظروف التي جعلتني مسؤول مبيعات عامةً، وجعلت بيننا صلة قرابة في المطلق، راودني تشغيل تطبيق «مشوارك» في لحظتها، بلا أي راحة، لتعويض خسارة «اليومية»، ثم تذكرت أمر الجريمة وما قد يجعلني حينها مجرد عامل توصيل لصحفي من موقع الحادث إلى جريدة، يليه صحفي آخر من موقع جريدته إلى مكان الحادث، بعدها صحفية من مكان الحادث إلى بيتها، فتراجعت عن تفعيله الآن وقررت أنني قد أشغله حين أبتعد عن وسط البلد بأكملها.

نقرت زر التفعيل وأنا بالقرب من وزارة الشباب والرياضة بحي العجوزة، فجاء طلب التوصيل الأول لشخص يسبق اسمه بلقب دكتور، دكتور حسام سعيد، كان واقفًا أمام مقر نادي الزمالك وطلب توصيلة بسيطة إلى شارع جزيرة العرب بالمهندسين، وطوال الطريق

القصير الذي لم يكمل ربع ساعة حدثني عن مهمته كطبيب نفسي في البحث خلف اكتئاب ما بعد الولادة الخاص بالرجال! وأنه مهتم جدًّا بإثبات تصاعد درجاته في المجتمع المصري نظرًا إلى ما يمر به الذكر الشرقي من ضغوطات تجعله في دوامات ذلك الاعتلال النفسي من دون معرفة حقيقة ما يمر به.

فسر الطبيب ملامح وجهي على أنها اهتمام مبالغ فيه، ليناولني كارت العيادة قبل نزوله موضحًا: «الجلسة الأولى مجانًا!»، على الرغم من أن خلف النظارة الشمسية كانت معالمي عبارة عن محاولات مستميتة لكبح نوبة ضحك إذا خرجت سيقتلني الطبيب!

بعدها بثوانٍ، قبل التحرك، جاء طلب آخر مزين بصورة إنسانة معمولة من الحلاوة تقريبًا، كأن القدر يغازلني، يخصم مني فلوسًا ويصدع دماغي بمحاضرة عن اكتئاب نسوي شهير قرر مهاجمة الرجال، ثم يكافئني بتوصيلة حلوة لواحدة ست في منتهى الجمال والدلال تنسيني الهم والدكتور العجيب والمال.

ضبطت وضعية نظارتي السوداء، شعري لم يتخلَّ عني، قميص صيفي أزرق، عطر رجالي ـ تقليد نظيف بمائة جنيه ـ آسر، تحقق المظهر العام لسائق وسيم، سينجح بلا أدنى شك في أسر قلب الفاتنة المقبلة، وقد تتهشم محاولاته إذا اكتشفت عدم ثقته بنفسه أو وجهه، لكن ولله الحمد الأستاذة ياسمين، وبمجرد ركوبها، هي وواحدة أخرى، صاحت صديقتها: «تحرك حالًا إلى قسم أول السادس من أكتوبر بمنطقة خدمات الحي السابع، والدفع كاش! ومن فضلك،

HTTPS://WWW.RIWAYA2025

الطريق واضح على التطبيق، لا تسألني عن أي اتجاهات! أنا وضحت كل شيء، لا تكلمنا نهائيًّا طوال الرحلة لأننا في مصيبة!».

فعلًا، اليوم النحس يبان من أوله.

نفذت تعليماتها بالحرف الواحد، عيناي مع الطريق، أذناي تخترقان محادثتهما، وقلبي يحاول فتح سكة لقلب الأستاذة الجميلة الجالسة بالخلف، والتي تتحدث في التلفون بسرعة مكالمتين في الدقيقة.

الموضوع باختصار، صديقة ياسمين، مدام هدى، ضربها الزوج، ونحن في طريقنا إلى قسم أول أكتوبر لأن زميلهما أسامة نقيب هناك.

وصلنا إلى وجهتنا، بعد زحمة المحور وميدان الحصري، دفعت المطلوب، ثم قالت: «تقدر ترجعني؟ محتاجة أرجع إلى نفس المكان لأني نسيت شيئًا! تقدر؟ أقل من دقيقة وستجدني قدامك!».

طبعًا وافقت، عطلت التطبيق كي لا أستقبل أي طلبات، وهي لم تكذب، فعلًا أقل من دقيقة وكانت أمامي، ركبنا السيارة وتحركنا إلى ميدان لبنان بالمهندسين.

زحام الطريق، مع حفاظي على الصمت التام وعدم توجيه أي كلمة إليها، حفز خلايا مخها تقريبًا، لتبادر الحلوة بالنقاش: «أنا آسفة، شكلك ابن ناس، وأنا الحقيقة في أسوأ حالاتي، **قرنفل أوسخ حالة!** آسفة، إحم إحم، حقك عليَّ والله!».

ابتسمت لها في المرآة الأمامية، وقلت بكل ثقة: «تحت أمرك يا أستاذة ياسمين!».

نام الكلام بيننا، هي مشغولة في مكالماتها، وأنا يقتلني الطريق

المزدحم، وعدم فهمي لتكرار كلمات مثل قرنفل وعسل، أو تحدثها بكلام غريب لا ينتمي إلى أساس المحادثة.

تنحنحت، تخليت عن تفكيري الذكوري في الفوز بقلب الأنثى الجميلة، وسألتها ـ على الرغم من تحذيراتها من التحدث معها ـ عن موقعها الذي كررت اسمه كثيرًا في مكالمتها، فكان سؤالي بمثابة دفعة قوية شحنت المليحة بالطاقة اللازمة، ليظهر كل شغف الدنيا في عينيها، وقالت إن اسمها ياسمين شاهين، موظفة في شركة دعاية وإعلان، تدعم النسوية، وتملك موقعًا رسميًّا اسمه «أنقذها حالًا» أو «savehernow.com»، لمناهضة العنف ضد النساء، خصوصًا الصادر عن المرتبطين، والذي سبَّب حالات قتل كثيرة بين المتزوجين والمخطوبين والأحباء.

عرفت مدى عظمة مجهودات ياسمين حين اكتشفت أن الموقع يمكنه مساعدة الناس أيضًا دوليًّا، لتريني مدى انتشار الموقع عالميًّا، والجوائز المرشَّح لها، وكيف أنها سلطت الضوء على الأزمة، خصوصًا لما أذاعت قناة إخبارية مرموقة في الولايات المتحدة الأمريكية البيان العام الكاشف لأرقام قتل النساء، مع توضيح أن رجال نيجيريا هم الأعلى نسبة في قتل حبيباتهم، استنادًا إلى الكثير من التقارير والتي تضمنت موقعها كمصدر.

كشفت ياسمين عن عبقرية فكرتها، حيث إنها توصلت بمساعدة فريق متخصص من التقنيين إلى خدمة استغاثة فورية، يرسلها الموقع إلى أرقام المشتركين به، لكي يقوم المستقبل فورًا بالتعامل مع الحالة، لذلك يطالبك الموقع في استمارة الاشتراك بتحديد مكانك وأرقامك،

HTTPS://T.ME/WAT2025

والتأكد من موافقتك قانونيًّا على استقبال رسائل الاستغاثة، ولك مطلق الحرية في التعامل؛ الذهاب إلى إنقاذ الضحية بمساعدة الآخرين أو التوجه إلى أقرب قسم شرطة وشرح الموقف.

الحقيقة شعرت بضآلتي أمام أنثى، حرفيًّا تقدم خدمة عظيمة للمجتمع، وأنا مجرد كائن حي يعيش في عطفة شق العرسة بحارة خوش قدم، يستيقظ ليبيع دراجات، وبعدها ينقل الناس لبضع ساعات، وينام، ويتحرك في نفس الدائرة منذ سنوات تخرجه.

توقفت بالسيارة أمام نفس المكان الذي ركبت منه، نزلت وهي تشكرني على جدعنتي وشهامتي، طالبتها بالأجرة فقط، وقبل أن تمد يمينها لتعطيني المبلغ المطلوب سمعت صرخة مجلجلة: «حمد الله على السلامة يا أستاذة ياسمين! نهار أهلك أسود!».

وفي ثوانٍ تجمهر عدد مرعب الصراحة، من شباب ونساء، ونظرات الغل والحقد تقود تجمعهم.

خرجت مسرعًا ووقفت أمامها، وسألت بصوت مسموع: «خير يا أساتذة؟».

وكانت الجملة الوحيدة التي قلتها، لم تجد الكلمات فرصة لتخرج ثانية، وأكل العبد لله علقة معتبرة من كل صنف ولون، وأغرب ما شاهدته هي الأستاذة التي ضربتني بصندوق مطعم الدجاج الشهير.

تدخل أهل الشارع لفض الاشتباك بعد ملاحظة مواجهة فرد واحد لقبيلة، وبمجرد ظهور عربة الشرطة ركضت أمة لا إله إلا الله، إلا أنا، بصحبة نظارتي المكسورة، وبقايا جلد وبطاطس محمرة، وجاءت ياسمين وقالت للأمين والضابط المسؤول إنها صاحبة البلاغ.

غادر الجميع، وصممت الحلوة على الطلوع إلى مكتبها لمعالجتي من آثار الضرب وتقديم الاعتذار المناسب، وقالت: «بكل صراحة، أول مرة يدافع عني رجل! **ملعون كل رجل!** آسفة، أنا مريضة بمرض، عقلي ساعات يقول حاجات من نفسه، حقيقي أنا آسفة، وإن شاء الله، بكل علاقاتي، ورحمة كرمة، لن يضيع حقك! **يا رب يموت!** آسفة!».

سكتت وسكت معها الألم قليلًا، فضلت الصمت لأن طاقتي الصراحة مع الضرب والركض نفدت تمامًا.

أرادت ياسمين كسر حاجز السكوت، وعرضت عليَّ فنجان قهوة لن أنساه، وقامت مسرعة لتحضر عدة تحضير القهوة المتنقلة، وسألتني - بعد الاعتذار كثيرًا - عن سر نظارتي السوداء الموضوعة فوق وجهي ونحن في التاسعة والنصف مساءً.

شرحت لها أن الشركات الكبيرة والعالمية عامةً توظف نسبة معينة من أصحاب الحالات الخاصة، وأننا السبب الرئيسي لحصول تلك الشركات على شهادات اعتماد رسمية من لجان هيئة التضامن الاجتماعي، ومكاتب العمل طبعًا، كإثبات ودليل موثق على وجود بيئة عمل آمنة توفر فرص التوظيف لنا من دون الشعور بالرهبة أو التعرض لأي مضايقات، وأنني كسائق والمظهر مطلوب طبعًا يمكنني العمل في «مشوارك» بلا أي خوف.

تضايقت ياسمين من نظرتي الدونية ومن انعدام ثقتي الشخصية، وقالت كل إكليشيهات التاريخ البشري عن تقبل الذات، وما المشكلة في وجهي؟ عيني اليمنى ساقطة إلى الأسفل؟ والحمد لله أحسن من

غيرك، وقبل الخوض في حديث سمعته كثيرًا من كل المتعاطفين مع حالتي، قلت لها: «قدري يا أستاذة، أنا أحيا في رضا الله ومتقبل!».

كانت تهمس وهي تتكلم، فسألتها عما تقوله، لتجيب: «لا، ولا حاجة، أنا أدندن!».

ولجهلي بأصول الموسيقى والدندنة، قلت لها وقتها: «صوتك جميل!».

فردت: «البشاعة درجات، تبدأ من أقل بشاعة، ثم بشع، مرورًا ببشع جدًّا، يليها قمة البشاعة، وصولًا إلى صوتي الأكثر بشاعة في التاريخ! **صوتي أوحش من خلقتك العكرة!** أنا آسفة والله العظيم، أنا عندي متلازمة توريت، أنا آسفة، أنا أعشق الغناء لكن صوتي يخيف الموت، أنت مجامل فعلًا!».

كانت المرة الأولى التي أسمع فيها عن مرض متلازمة توريت، وعلى الرغم من كل شيء، من حلاوة الموقف ومُر الخناقة والضرب، وكسر نظارتي وقلة القيمة، فإنني أحببتها من النظرة الأولى وقتلني أنها تحب الغناء.

٧

فشلت كل محاولات الوصول إلى ياسمين، هاتفها غير متاح، والشهود آخر ما يعرفونه عنها هو ركضها خلف المجذوب، ومن وقتها وهي في علم الغيب.

بعد استدعاء الأمين محمد لنرى كيف سنتصرف بخصوص المحضر، جاء أخيرًا والقلق يحاوطه، لمحني بجانب جثمان ابني، انقلبت ملامحه، خطفه الحزن فجأة، نظر إلى الأرض، حوقل واقترب ثم قالها صراحة: «يا أساتذة، محسوبكم هنا من إدارة تأمين المستشفيات، الممرضة شرحت لي الموضوع كله، فاتصلت بنقطة شرطة المنيرة والنقيب في طريقه، وإن شاء الله حق ابنك راجع يا أستاذ!».

لحسن الحظ لم يتأخر النقيب، جاء بعد ثلث ساعة ضابط شاب، مما يعني فرضية وجود مساحات متبادلة للإصغاء والحوار، قدم تعازيه، وأمر الأمين بحراسة الجثمان الموجود في الثلاجة، ثم طالبني بضرورة مرافقته إلى نقطة الشرطة الموجودة في الشارع الموازي للمستشفى، شارع منصور، على مسافة خمس دقائق سيرًا، للبدء في إجراءات تحرير المحضر.

وصلنا إلى مكتبه، رفضت شرب أي شيء، بدأ التحقيق، الأسئلة المتعارف عليها؛ ما الذي حدث؟ هل رأيت الموضوع أم حُكي لك؟ أين كنت وقت الحادث؟ أتتهم شخصًا معينًا؟ هل لك أعداء مثلًا؟ هل أنت مصمم فعلًا على تحرير المحضر وتحويل الأمر إلى شبهة جنائية، أم نصدر لك تقريرًا بوفاة طبيعية وتدفن ابنك بدلًا من نومته غير المريحة في ثلاجة الموتى؟ أين المدام؟

عرفني بعدها أن علينا التحرك حالًا لنلحق نيابة حوادث جنوب القاهرة قبل انتهاء مواعيد العمل، لتكملة الإجراءات وبدء فتح التحقيق والبَت في أمر تصريح الدفن.

بعد معاناة زحام الطريق وصلنا إلى مقر النيابة، بشارع بيرم التونسي بالبغالة في منطقة السيدة زينب، دخلنا مكتب وكيل النيابة الذي تعامل ببرود مع الموقف، يقرأ المحضر المكتوب ويأكل بقسماطة، سأل النقيب أولًا عن تفاصيل القضية، وشكره على تعيين حراسة على الجثمان مع أنها سلطة من سلطات النيابة، لكن النقيب رد سريعًا: «طبعًا هذه سلطتكم، لكن جمعنا شغل كثير يا رياض بيه، وأنا عارف أنك إنسان نبيل وخلوق، لن تطالب بالتشريح ولا الانتظار أكثر من ذلك، عينت الحراسة كي يطمئن الوالد، لا أحد برفقة الابن هناك، الأم مختفية والأب هنا معنا!».

سألني رياض بيه تقريبًا الأسئلة ذاتها مجددًا، لم يتغير سؤال واحد، كأنه نموذج تم توزيعه عليهم، مع تكرار سؤاله عن السبب الحقيقي وراء تحرير محضر لمجذوب، قلت وأنا أجاهد لتخرج مني الكلمات: «حق ابني يا باشا، وحماية لأولاد الناس من مجذوب مختل قرر يقتل ويجري!».

قام الوكيل وخرج، ثم رجع بعد عشر دقائق، عرفت من النقيب سبب خروجه المفاجئ؛ الذهاب إلى المحامي العام للحصول على الموافقة، ومن الواضح أن الباشا الكبير لم يكن في حالة مزاجية رائقة فنقلها إلى رياض بيه، إذ إنه لما عاد قال بنبرة صوت تُظهر سلطوية منصبه: «تفضَّل التصريح، في الحالات المشابهة لا نوافق إلا بعد تشريح الجثة ما دام الموضوع متعلقًا بشبهة جنائية، لكني أب ومستحيل أن أوافق على نوم طفل في ثلاجة الموتى أكثر من ذلك!».

وعدني بسرعة اتخاذ الإجراءات وتفريغ الكاميرات وبدء مهمتهم في العثور على القاتل وزوجتي، شكرته ورحلنا عائدين إلى نقطة الشرطة للحصول على صور ضوئية من المحضر والتصريح كي أستخدمها لعبور محطتي التالية، مكتب الصحة.

في عز انشغالي بموت ابني، وخنقة الزحام، مع الحزن والفراق، داهمني قلق يتمحور حول عدم إمكانية الوصول إلى المجرم، سألت النقيب عن صحة وعود وكيل النيابة، ليرد عليَّ: «اسمع يا أستاذ، كلامي لن يعجبك، لكن في حالتك الصراحة مطلوبة، يوميًّا هناك آلاف من حالات السرقة والحوادث والقضايا، هل تُحل كلها؟ هل ترجع مثلًا كل الهواتف المسروقة إلى أصحابها؟ لو أرادت الدول عامة حل كل قضاياها يبقى لا مفر من تعيين رجال الشرطة بأعداد تفوق الوصف، مع تكثيف الجهود. إذن، الموضوع كله في يد الله ثم التحقيقات والنتائج الأخيرة؛ إما الوصول إلى حل أو لا، كعادة قضايا العالم كله! اعذرني؛ أنا صريح ولا أعترف بتجميل الكلام! لكن لو كنت تبحث عن حل ربما يساعد، وأقول ربما، فطبعًا تحويل الأمر إلى قضية رأي عام!».

كل كلمة صفعت قلبي، وغرست أوتاد الحزن، غلفته بفعل الفقدان، شيأت الخوف، زنقته في شراايينه، ثم وشمته بحزن التجارب فاستحال النبض دفقة تذكرني بالمأساة.

وصلنا إلى النقطة، حصلت على صورة المحضر ونسخة الموافقة على استخراج تصريح الدفن، شكرت النقيب، دعوت له بدوام الصحة وطول عمره وعمر أحبابه وأبنائه، وحددت وجهتي، مكتب الصحة.

طوال مشيي إلى مكتب الصحة القريب من مستشفى المنيرة العام، في شارع طلعت، لاستخراج تصريح دفن وشهادة وفاة ابني، كان يقتلني شعوره بالبرد ألف مرة في كل ثانية، يسأل قلبي هل فعلًا الملاك الصغير مات؟ أصلًا كيف يحتمل شخص أن يضع طفلًا في ثلاجة موتى؟ يا رب! اجعل أي جثة أنثى تربت عليه، وتدثره في حضنها، فلا ينخر عظامه صقيع الفريون أبدًا!

يرفض عقلي تصديق الأمر، يغلبني البكاء، وكلما رآني أحدهم سألني عن سبب حزني، فأقول ابني مات، فيحوقل ويبتعد تاركًا روحي في بئر أحزان لا تنضب.

دخلت المكتب المتهالك، وجهني عامل نظافة للموظفة المنشودة، لم يطلب إكراميته احترامًا وإجلالًا للموقف، كل ما قاله: «عظم الله أجركم، ربنا يكون في عونك يا بيه ويصبرك!».

الإضاءة معتمة، تهوية مكتب الصحة فعلًا سيئة، المكاتب المعدن المتهالكة، الحوائط لونها أخضر غامق كئيب، الملفات الورقية والشهادات، المشهد الكلاسيكي المعروف لمكاتب المصالح الحكومية.

قابلت الأستاذة صباح، وتعجبت من روتينية تعاملها مع كل المبلغين عن الموت، ظننت أنني قد أجد قدرًا من الاحترام لمأساوية الحدث، والحقيقة الواضحة أمامي موظفة تطالبك بالأوراق اللازمة بنفس نبرة صوت موظف يحدثك مثلًا عن إجراءات تقسيط سيارة: «تمام، ورقك مضبوط، طيب يا أستاذ، هات لي بطاقتك الشخصية وإقرارًا بعدم وجود بطاقة للمُتوفى لأنه طفل، وخذ نسختين من نموذج

٣٢ تبليغ، مع كتابة البيانات كاملة، وأهم حاجة التوقيع! بسرعة كي تأخذ كل أوراقك وتدفن ابنك في النور!».

٨

يوم جاء ابننا إلى الدنيا بذراع يمنى منقوصة، تقريبًا طمع فيها الرب، ورأيته ملفوفًا في بطانيته البيضاء، يتحرك بمقاومة سلمية رقيقة، بين تهويمات قد تتحول إلى صحو، رفستني البهجة بكامل قوتها، نسيت تمامًا حينئذ مرضي وشكلي، نسيت القلق والجينات الوراثية، تناسيت موت أمي، تمنيت وجودها طبعًا، راقبت ملامح ياسمين، البطلة التي تغالب النوم بسبب تخدير الولادة القيصرية، سمعتها تهمس: «يا رب عمره يطول!».

خطفني الدعاء إلى وقت جلسة التعارف التي تلت موقعة الضرب، حيث صمم أهلها على مقابلة من دافع عن ابنتهم وشُكره بشكل شخصي، مع تقديم هدية فاخرة، مجموعة عطور أصلية مستوردة يتخطى ثمنها الآلاف، وانتهى التجمع بجلسة ثنائية بيني وبين ياسمين في بلكونة شقتهم الفاخرة بمجمع سكني اسمه «الجيزة الجديدة» أو «New Giza».

تعددت اللقاءات بعدها، حيث أنهي دوام المحل ثم أقود السيارة إلى ميدان لبنان لأجلس داخل مقهى قريب أنتظر قدومها في تمام السابعة، فتشرب معي فنجان قهوتها، ونحكي عن يومنا، هي ومعاناتها

HTTPS://WWW.YAT2025

مع العنف ضد النساء، وأنا ومعاناتي مع بيع الدراجات و«مشوارك» ولقمة العيش.

في أحد اللقاءات قالت ياسمين إنها تملك سرين في حياتها، لا يعرفهما إلا أقرب الناس، وإنها بسبب الألفة التي زرعها وجودي ستخبرني عنهما، وإنني لي مطلق الحرية في تكملة صداقتنا أو الابتعاد، وهي ستتفهم موقفي، ولن تعارضني أو تهاجم اختياري مهما كانت دوافعه، لتبتسم ياسمين بخجل حين قلت: «صداقة وابتعاد؟ لا إن شاء الله نقرب، ونقرب جدًّا!».

تعجبت يومها من ردود فعلي تجاه كل ما قالته، لم يخامرني الشك أو الغضب، كانت تتكلم ـ وفقًا لنظرة المجتمع ـ عن مصائب تخصها، فكان سرها الأول أنها مطلقة، وسرها الآخر: «كنت أمًّا لطفلة ماتت!».

كان الموضوع أشبه بمزحة، تخيل بنتًا، التعبير الأوضح للطاقة الخام، تتحدث إليك عن مصيبتين، تشعر من نبرة صوتها بمدى الضغط الواقع عليها من مجتمع لا يرحم، وكلام يجهل التعاطف، وأشباه بني آدمين يتعامل واحدهم بمبدأ: «مطلقة ومريضة؟ أمامي على السرير!». ضربني شعور بالتناقض، هل أفرح لجمال التصادف، أم أحزن لأن القدر ربما يجمع بين حبيبين ويربطهما بالحب والحزن والمرض؟

حكت حبيبة قلبي عن زواجها السابق، حين كانت ابنة الحادية والعشرين، وجدت في حكاية ياسمين كل التفاصيل المتعارف عليها؛ قلة الخبرة، الصبر ونصائح الأهل بالمحافظة على الود، والبعد عن

خراب البيوت، مع أنها تعرضت لكل أنواع العنف، والذي كان سببًا أساسيًا فيما بعد لتأسيس موقع حماية النساء.

بعد كلامها عن نظرة المجتمع، كنت على وشك مطالبتها بشرح مرضها الغريب، متلازمة توريت، إلا أنها صعقتني بتكملة حكاية الزواج وقالت بأسى، بمنتهى الأسى حقيقة، إن سبب الانفصال كان موت ابنتها كرمة في اللحظة نفسها التي كانت فيها ياسمين تتناول مع زوجها أفخر وجبة عشاء كمحاولة منهما لتخفيف توتر العلاقة.

ليلتها نجحت الحلوة في الحصول على خدمات جليسة أطفال، يمتدحها المحيطون بها، مما يجعلها دائمًا مشغولة لكثرة تنقلها بين البيوت، وفي أثناء استعداد ياسمين للخروج هاجمها شعور مقبض، فتركت مرود الكحل وتوقفت عن تكحيل عينيها، شعرت بضيق تنفس غريب، ظنت أن عرضًا من أعراض أدوية متلازمة توريت على وشك الظهور، تلا ذلك دخول جليسة الأطفال بصحبة ابنتها كرمة، ابنة العامين، ولاحظت قمة الانسجام بينهما فطردت من عقلها أي أفكار سوداوية.

النقاش الوحيد الذي دار بين ياسمين وجليسة الأطفال قبل الخروج، كان حول كتاب تحمله الجليسة، رواية من روايات نجيب محفوظ، حيث قالت ياسمين وقتها إنه على الرغم من احترامها للقراءة، لكن نجيب هو موضوع محاضراتها الأوحد، وعدو أفكارها الأول، وكم نظمت محاضرات ضد ذكورية أدبه، لترد عليها الجليسة ببرود وتحدٍّ: «حضرتك عارفة عامةً إن المسألة أذواق!».

بعد مغادرتهما، أقسمت على انغلاق صدرها وضيق نفسها طوال الطريق من البيت إلى المطعم، وظلت تقنع نفسها بكلامها وكلام زوجها عن الأعراض الجانبية، لكن الوقت يمر وياسمين لا يتركها القلق، يتصاعد، يتعمد إفساد اللحظة، خصوصًا مع عدم رد جليسة الأطفال على محاولات الاتصال، ليمنحها زوجها سلطة القرار، تكملة السهرة أو البيت، ففرحت لما سمعت كلمة البيت، وتحركا فعلًا متجهين بتوتر بالغ إلى منزلهما.

وفقًا لحكي حبيبتي، كانت تسكن بالدور الثالث في عمارة حديثة العهد من أربعة طوابق فقط، لم تنتظر المصعد، صعدت ركضًا، بفستانها وكعب حذائها، بكل سباب عقلها وأعراض متلازمة توريت، إلى أن دخلت المنزل المظلم تمامًا، الرافض لأي استجابة كي يعطي فرصة للنور، فترتعش خطواتها الماشية خلف ضوء هاتفها، يضربها عقلها أولًا بفكرة خطف ابنتها، ثم يضربها الواقع بجثمان كرمة نصف الظاهر بسبب ضوء الهاتف.

لم تصرخ ياسمين، لم تقل شيئًا، سقطت في مكانها، وبعد عودتها إلى الوعي عرفت من زوجها الموضوع: «راجعت الكاميرات يا ياسمين، جليسة الأطفال فصلت هاتفها عن الشاحن، وتركته في مقبس الكهرباء، ولما دخلت الحمَّام استغلت كرمة الموضوع واتجهت ناحية السلك تسحبه وتلعب به، بعدها وضعته في فمها، وانقطعت الكهرباء بسبب قفلة، وطبعًا بنت الكلب هربت!».

تخيل كيف تتعامل معك الحياة؟ في أكثر مواقف عمرك حلاوة يهاجمك الخوف بفكرة فقدان ابنك، يذكرك بأن زوجتك قد

عانت من الأمر سابقًا، فتحتضن الصغير وتدعو له بدوام الصحة وطول العمر ومجيء أجلك قبل أجله. وتظل يوميًّا تحت سيطرة خوف الفقد، مع كل حركة من الصغير، تراقبه، تتأكد من حركات أنفاسه، تطمئن قلبك أنه بخير، وتدمع عيناك مع تذكر سيرة الموت فتستعيذ بالله وتدعوه بطرد الحزن والشر بعيدًا عن الصغير، مع عرض مقايضة بسيطة: «يا رب، إذا كتبت على الطفل شرًّا فأرجوك وحياة حبيبك النبي اجعل الشر يلتهمني، ودع الطفل في حاله هادئًا مستكينًا!».

٩

السؤال الأكثر قسوة في وسط المأساة، لم يكن كيف مات ابني، أو أين ذهبت زوجتي، السؤال الذي طحن تماسكي ونثر غبار جسارتي بين المعزين والأطباء والممرضات، خرج من عامل المشفى: «لا مؤاخذة يا بيه، الصندوق وعربة نقل الميت تمام ولَّا نكلم معارفنا؟».

جاء كل من يعرفني إثر سماعهم الخبر، لأتفاجأ بوالدي وأخواتي وأزواجهن والجيران وزملاء العمل في المحل، الجميع في حالة ذهول، تنقل البكاء بين أعينهم، وأحدهم ينظر إليَّ، يشد على يدي، لاحظت أن أكثر الناس تأثرًا الآباء، تقريبًا تخيلوا أنفسهم في موقفي فتضاعف حزنهم.

HTTPS://T.ME/RIWAYA2025

سألت أبي: «هل تعرف رقم عربة نقل الموتى؟».

أجابني بنظرة إلى الأرض كأنه لا يتحمل وقع السؤال، وأشار برأسه قائلًا: «العربة جاهزة، والصندوق موجود، سنصلي عليه في مسجد السيدة نفيسة، بعدها ننقله إلى مدافن العائلة بالسيدة نفيسة، كل شيء جاهز، الحوش مفتوح. الله يرحمك يا أيهم! كسرت قلبي يا روح جدك!».

ركبت عربة تكريم الإنسان بمفردي، تحركنا في مسيرة أشبه بجنازة لتوديع الإنسانية، مات طفل لسبب مجهول، مات لأن مجذوبًا قرر ذلك، أمر بمنتهى البساطة والتعقيد.

زهقت الإجابات من سؤال الناس عن ياسمين، أقول لهم: «والله العظيم لا أعرف! اختفت!».

يحزنني موت ابني، وترعبني فكرة اختفائها! وفي وسط أحزاني هاتفني أبي يلومني لأنني رفضت حضور تغسيل ابني، حتى مع الكلمات البسيطة التي خرجت مني لم يقتنع بأسبابي، رماني بالتقصير والدلع والتأخر العقلي، سبني وشتمني، لم يوقفه تدخل زوج أختي الذي سمعته يقول: «يا عمي معلهش، الوقت فعلًا غير مناسب لكلام حضرتك!».

تجاهله، تجاهله بطريقة مستفزة، ليسكت الرجل من شدة الإحراج، وددت أن أقول له إنني أضعف من الوقوف أمام جثمان ابني وهو يغسل، وإنني يوم مولده بكيت خوفًا عليه من أي مكروه أو أذى، واليوم أمشي في جنازته بقلب موجوع يرفض تصديق الفاجعة وروح هائمة تتحرك فقط لتوصيل الأمانة إلى خالقها.

إننا حين نفقد أطفالنا يصيبنا الحزن بهزة نفسية، وتهاجم عقلنا شتى التساؤلات، وإذا وجدنا الإجابات يبقى السؤال الأوحد الذي لا إجابة له: لماذا ابني؟

إننا فعلًا حين نفقد أطفالنا نشعر بفقدان الكيان، باستحالة العيش، بتحول الذكريات إلى رصاصات، كل رصاصة تقتلك حزنًا، ينهش غيابهم جسدنا، تتناقص الحياة، تختفي، يركبنا الهم، نزهد في كل ما حولنا، ربما يقدر أشخاص على مجاراة الأمر والاعتراف بقدر الله، أظن هؤلاء هم الأقوى إيمانًا، أما الضائعون الذين اعتبروا أطفالهم نجاة من قسوة العالم ثم شاهدوا موتهم ودفنوهم فلن تعثر على روحهم ثانية، سيختفي ضي أعينهم إلى الأبد، إلى درجة أنهم إذا دخلوا الجنة سيقولون شكرًا، ولن يثنيهم جمال الجنة الاستثنائي عن الحزن الخام الذي عشش فوق رؤوسهم وصار جزءًا منهم.

عند وصولنا إلى المسجد كاد ينشب شجار لما قال خادم من خدم المقام بإمكانية دفن الطفل من دون الصلاة عليه، إلا أننا صرخنا فيه، وصحح زميلي العجلاتي المعلومة بوجوب الصلاة عليه قبل دفنه لأنه عاش عامين، والشيء الذي ذكره العلماء بوضوح لانتفاء لزوم الصلاة هو الطفل السَّقط الذي غادر رحم أمه ميتًا وقبل بلوغ شهره الرابع! لم يتدخل رجل آخر في النقاش، ووضعنا الصندوق الصغير مع الصناديق الأخرى، وصلينا على ابني بعدما نبه إمام المسجد إلى كون المُتوفى طفلًا.

وقفنا خلفه، مع كل تكبيرة من تكبيرات صلاة الجنازة أشعر بوتد ينفذ إلى قلبي، يغرس كل سواد الحزن ويخرج، حتى والشيخ يدعو له

بالرحمة والمغفرة والربط على قلوبنا كنت أقول وأنا أغالب البكاء: قل لربك أن يعيده إلينا إن كنت فعلًا تدعو لنا بالربط على قلوبنا! قلوبنا ماتت مع موته!

انتهينا بعد أربع تكبيرات، وحملت ابني من الصندوق لأمشي به المسافة الفاصلة بين المسجد والمدافن مهما طالت.

العادي كان ابني خفيفًا، والآن جسمه أكثر خفة، يتمايل باستسلام، عجزت عيناي عن تحويل مجال رؤيتهما طوال الطريق، أنظر إلى جثمانه، استنكر عقلي ترجمة المشهد إلى كفن أبيض صغير، أرى ابني بملامحه الكاملة كأنه نائم فقط وليس ميتًا، بحركة شفتيه المضمومتين، ونصف ذراعه اليمنى التي كان يحركها كثيرًا بسرعة ثم يضحك، فنضحك أنا وأمه متناسيين أمر الإعاقة.

هاجمتني كل الأسئلة، نجح أبي فعلًا في مهمته، عرف كيف ينتشلني من الحزن ويرميني بعدها إلى رفاق العذاب النفسي، طغى صوت التساؤلات فوق مواساة الحاضرين، في البداية نكزني الشك، هل مات بسببي؟ لأنني مثلًا تركت مسؤوليته مع ياسمين في مكان مزدحم مثل السيدة زينب؟ ثم صفعني اللوم، وبعد ذلك لكمني عدم الاستحقاق، بصق عقلي بجمل مثل: «أنت عار الأبوة وخراؤها، من خلقك أبًا ظلمك، تترك ابنك مرتين! مرة مع أمه بمفردهما ومرة مع المغسل؟ جبروت والله!».

وصلنا إلى مدافن السيدة نفيسة، ومع اقتراب لحظة دفن ابني وفراق حضني الدائم شعرت بخروج روحي، كنت سأسأل أبي، في لحظة انكسار متكررة: هل من الجائز دفني معه؟ غير أنني تراجعت

لما تذكرت ردوده السخيفة، وكيف سيحرجني ويقول لي مثلًا: «كفاك قرفًا وتحمل معنا المسؤولية! يلعن يوم ولادتك يا أخي!».

مشيت بالجثمان والكل حولي، إما سيرًا أو داخل سياراتهم، الحوقلة تزداد مع كل مرور أمام شخص أو أهل ميت، وصلنا إلى الحوش، انتظر التربي أمرًا مني، سألني هل سأنزل معهم إلى القبر، بعد نظرة وداع قلت له: «ضع ابني في حضن والدتي، هل سمعتني؟ لا تضعه في مكان بمفرده!».

تمتم التربي بشيء لم أسمعه ثم أوضح الأمر: «يا بيه، الوالدة الله يرحمها مدفون معها عيل، وأبوك طلب يومها أن ينام في حضنها، والصراحة أنا...».

قاطعته بجملة واحدة خرجت مني بعصبية لم يعرفها عني أي مخلوق: «جثمان ابني في حضن أمي، عظام العيل الآخر تبعدها عنها!».

وطلبت من زوج أختي أمانة النزول معه للتأكد من الأمر.

سمعت أبي يصرخ بين أخواتي: «ابن أمه رفض النزول ليدفن ابنه! لا حول ولا قوة إلا بالله، يا رب، كان قدامك العيل الأهبل وتأخذ مننا نور حياتنا!».

عن عمد ابتعدت، زاد الأمر تعاسة داخلي حين لمحت اسم أمي مكتوبًا فوق الرخامة الموضحة للمدفونين هنا، أميرة سلامة العيسوي، ليزيد ارتباكي ويتضاعف الحزن.

حين انتهى التربي من مهمته ودفن ابني تحت الأرض، نظرت إلى السماء، نسيت وجود أبي، لم يشغلني كل الموجودين، وصرخت

بكل ما أوتيت من قوة: كنت أحرسه برموش عينَي، لم أنشغل عنه تمامًا! أتمنى تكون في قمة سعادتك الآن!

حين انتهى التربي من مهمته ودفن ابني تحت الأرض، اقترب مني أبي، ظننته سيواسيني في مصابي، لكنه قال بصيغته المقرفة ونبرة صوته المتوترة: «عارف إن الوقت غير مناسب والظروف جبارة، لكن تقدر تسلفني مائة جنيه لأحاسب أهل الحوش؟».

١٠

مع يومي الأول في دفتر سجلات الأبوة غمرتني طاقة عجيبة، دفعتني للذهاب إلى آخر الدنيا والعودة مشيًا فوق الشوك، بابتسامة رقيقة ونفي تام لأي إرهاق أو تعب، المهم أن طلبات ابني أوامر، كنت أسمع كثيرًا عن مدى تعلق الآباء بالأبناء، وكيف تلدك الأبوة من جديد وتضعك أمام نهر المسؤوليات، لكنك تتعامل مع الموقف باجتهاد يُحسب لك، ولو كنت جاهلًا بالسباحة.

عند ولادة ابني أيهم تمنيت من الإنسانية أن تزاملني قليلًا، ولا تسمح للمخلوقات السخيفة صاحبة التعبيرات اللزجة والنكات ثقيلة الأثر بالظهور في محيط ولادته، واتفقت مع ياسمين على ضرورة الرد بطريقة مهينة على كل شخص يسأل عن ذراعه، حتى لو كان السائل من المقربين أو عِشرة العمر، وكان ردها حاسمًا: «طبعًا! والله العظيم لو أمي نفسها سأحرجها!».

انتهت المباركات، فات شهر ونحن في بيت أهل ياسمين، غرقنا في المكالمات والزيارات والخير، وتكاتف الكل لدعمها حتى تسترد عافيتها، خصوصًا بعد ولادتها العسرة والقيصرية، ثم رجعنا إلى بيتنا بمفردنا، لتبدأ مرحلة جديدة من حياتنا الزوجية، فتتراوح العيشة بين معادلتين: المشاركة الفعالة في تربية الصغير، والدعم النفسي لزوجتي بسبب اكتئاب ما بعد الولادة.

زوجتي قبل ولادة أيهم عانت من متلازمة توريت فقط، وسنوات علاج نفسي بعد موت ابنتها كرمة وصدمة العنف الزوجي، أما بعد مجيء ولي العهد فأصبحت تعاني من متلازمة توريت، وانسداد قنوات اللبن، وتحجُّر الثدي، وعدم توازن الهرمونات، وألم مستمر بالقدمين وتورمات، لنكتشف لاحقًا أنها العظمة الشوكية.

لم يغادرها الأرق، مع قلة نوم مستمرة، وبكاء طفل كل ساعة ونصف الساعة لأنه جائع ولا يصل إليه القدر المطلوب من اللبن. باختصار، تحازبت كل أمراضها المعنوية والجسدية، وأثرت على صحتها النفسية، فتطورت المسألة إلى اكتئاب ما بعد الولادة والبكاء على أتفه الأسباب، مثلما حدث يومًا وبكت بسبب رائحة البخور.

رضع أيهم من صدر أمه لمدة شهر واحد، وبالصدفة البحتة، ومع زيارة إحدى صديقات ياسمين، تحدثنا عن موضوع تحجر الثدي، فقالت إن أختها من أمهر الطبيبات في مجال النساء والتوليد، وحددنا زيارة لتتفاجأ الطبيبة بشكل ثدي زوجتي، وتأمرها أمرًا قاطعًا بالتوقف عن الرضاعة الطبيعية واللجوء إلى دواء تنشيف اللبن، والحليب

الصناعي لتعويض الطفل عن الجوع وعن سرسوب اللبن الذي كان يشربه.

طلبت الطبيبة الحديث على انفراد لتفهم مني كيف وصلنا إلى تلك المرحلة، فأوضحت طريقة تعامل طبيبتها السابقة، بطريقة عادية، وأنها كل مرة كانت تطمئننا: «اللبن كثير في صدرها يا جماعة، تحتاج إلى مضخة إلكترونية تشفط اللبن، وتعمل جلسات مساج للثدي كل ساعتين، نسحب اللبن ونخزنه للطفل، ولو الأم نائمة يقوم الأب بإرضاعه، وكي يستريح الثدي من كثرة اللبن بداخله فنتخلص من الكلكعة الموجودة بالصدر! وأرشح استخدام لبخة، تجدونها في أي صيدلية، لتخفيف التحجر والمساعدة على خروج اللبن بسهولة!».

تعجبت الطبيبة من كلامي، وظلت تعتذر لياسمين عن معاناتها، وقالت إن طبيبتها السابقة جاهلة بأصول المهنة، وإن كلامها المملوء بالغيرة والحقد ذكرها بأوقات التدريب حين كانت تسمع الطبيبات يتحدثن عن صدر فلانة الموفور باللبن والخيرات، بغيظ أنثوي واضح! وفي النهاية طالبتني بضرورة دعم ياسمين بكل الأشكال والوسائل حتى تسترد صحتها البدنية والنفسية.

اجتهدت منذ تحمل المسؤولية كأب في توفير الراحة النفسية لياسمين، وطلبت منها البوح بمشاعرها كأم، خصوصًا مع قلة النوم المصاحبة لمتلازمة توريت، وآلام جسدها وتحجر ثديها، وبكاء طفل، لتضرب تلك التوليفة العجيبة جسد ياسمين، وبدلًا من التفاهم مع الحياة واستجداء كل الفرص للحصول على هدنة كافأتها بزيادة الوزن، وهو ما تكرهه النساء عامةً وياسمين بشكل خاص.

مرت الأيام وأنا أتنقل بين مهام يومية لا تتغير، مزاجية ياسمين، تربية أيهم، مجهودات وظيفتي، متطلبات البيت، البحث عبر الإنترنت ومواقع التواصل عن طرق التعامل مع طفل ذي حالة خاصة، والاستعداد لمرحلة استخدام لغته البسيطة لما يصفعني بالسؤال الأهم: «أين بقية ذراعي؟»، وطبعًا توفير حياة مادية عادلة، بعد تقلص الميزانية، بسبب استقالة ياسمين وقبلها انخفاض مرتبها إلى النصف وفقًا لسياسة شركتها في تعاملها مع إجازة الوضع.

مع مرور الشهور، وبلا أدنى مبالغة في وصف الأمر، كنت أرجع إلى بيتنا بعد يوم عمل مرهق، وتعاملات مع مواقف سخيفة، سواء كمسؤول مبيعات أو كسائق «مشوارك»، فأقف أمام الباب، أسحب شهيقًا عميقًا وأزفره لأستعد للحرب الداخلية القائمة بين أيهم وياسمين.

اكتسب أيهم القدرة على الحبو واستكشاف الأمور من حوله، فتحولت إلى إنسان آلي، يبدأ دوامه مع الدخول إلى البيت مباشرة بعمل مسح بصري شامل لكل أرضيات الغرف، بحثًا عن أي شيء قد يبتلعه الطفل، والتأكد من نظافة الطريق أمامه، وعدم نسيان أهم تكليف، نزع الشواحن وإغلاق فتحات الكهرباء! تقريبًا نقلت ياسمين مخاوفها إليَّ، تقاسمنا رهاب وفاة الطفل، كانت تصرخ إذا ما اقترب أيهم من سلك شاحن حتى لو كان مرميًّا بعيدًا عن الكهرباء.

تنتهي القائمة البدائية لدخولي المنزل، يليها حضن أيهم واستقباله الأسطوري لعودة أبيه، يردد بجمال نادر: «بابا! بابا! بابا!»، فأحمله، أقبل نصف ذراعه اليمنى، فيحركها تجاه فمي مجددًا، أظل أقبلها

بينما هو يردد كلمة «بابا» أكثر من عشر مرات، يتبعه ظهور ياسمين، وكنت أعرف من طريقة الترحيب، هل مزاجها رائق أم بعيد كل البعد عن الروقان، فأختار كلماتي بلطف بيِّن وعناية محسوبة، وإلا لن يفوت ليلي على خير.

وعلى الرغم من كل محاولاتي فإن اكتئاب ما بعد الولادة تمكن من حبيبتي، وأغلب الأطباء قالوا إنه سيستمر لمدة لا تتجاوز عشرة أيام مع أعراض شائعة، ويطلق على هذه الفترة «الكآبة المعتدلة»، ويفضل توفير الدعم النفسي المتزن للأم، وستعود إلى طبيعتها، وفي حالة ياسمين تفاقم الوضع منذ عودتنا بالطفل!

يوميًّا تبكي، تنهار، تزايدت عليها أعراض متلازمة توريت، شكَّل عقلها كلمات جديدة، وبدلًا من رمي كلمة صار يقول جملًا سريعة، مثلًا بعد نوبة بكاء لأيهم، سكت لما أخذ دواء المغص، قالت: «يلعن ميتين أم الأمومة!»، ومرة أخرى حين بدأ أيهم في شهره الخامس يلفظ اللبن، كنوع من أنواع اللعب معنا، لكن تلك المرة زاد اللعب عن الحد، فصرخت: «ما تطفح أو تموت يا أخي! أنا تعبت!».

مع تفاقم الحالة النفسية لياسمين تأزمت الحالة المادية؛ متطلبات أيهم، أدوية حبيبتي وزياراتها للطبيب النفسي، كنت أنهي دوامي في محل الدراجات وأقود بعدها من الخامسة إلى العاشرة، وللأسف ظنت زوجتي أن انهماكي في العمل هو مخرج الهروب من بكائية أيهم - ياسمين اليومية.

أحيانًا كنت أنتظر نوم ياسمين وأيهم وأهرب إلى الشارع، أركب سيارتي، وأعطل تطبيق القيادة، وأتجول بلا هدف، حتى تلتقطني

منطقة هادئة فأقف جانبًا ثم أبدأ في البكاء بصوت مسموع، أخرج كل الصراخ المكتوم بداخلي، أنظر إلى السماء وأقول: الحياة كانت حلوة! كل يوم أحمدك عليها، ترد بكمية ضغط لا تطاق! الرحمة يا سيدي! وأحيانًا أخرى أكتفي بالجلوس داخل السيارة مع تشغيل المذياع والاستماع إلى كلمات البرامج، والبدء في مسابقة تمييز سريعة، هل هذه أغنية أم كلام عادي.

أحيانًا، كرجل موظف وأب يحاول، أسأل نفسي في وسط الضغوطات: متى يمكنني التوقف مؤقتًا؟ هل الاستسلام العابر ضمن صلاحياتي كإنسان؟ لماذا مثلًا يستحيل التفكير فجأة في الاستقالة، والتوقف عن السعي الدائم، والدوران حول ساقية الرزق؟ أين صعوبة المسألة إذا قلت لمن حولي إنني أخذت إجازة من العمل لمدة عام كي أبحث عن طريقة لعلاج هشاشتي المتجددة؟ والله لم أطلب التوقف الدائم! الحكاية باختصار، أسعى تجاه راحة مرحلية ثم سأكمل مسيرتي بكل سخافاتها وواجباتها.

كثرة الكبت النفسي، ومحاولة البحث عن حلول دائمة لدعم زوجتي والمشاركة في تربية ابني، ونقص المال بطريقة الطيران السريع، حركني ببطء متتابع إلى دفن مشاكلي وأموري الشخصية في أعمق نقطة غير مرئية، إلى الدرجة التي يصعب على دواخلي النفسية لمحها أو تذكرها، إلا عن طريق استفزازها فتصعد مرة أخرى إلى عقلي ويفشخ نفسه تفكيرًا فيها.

في يوم من الأيام كنت على وشك الانفجار لما دخلت البيت لأجد لبن أيهم ناقصًا، وحفاضاته على وشك الانتهاء، وخزين الشهر بالكاد

يكفينا، والصراحة لم أعد قادرًا على الاتصال بشخص لأنني كنت قد كلمت حرفيًّا طوب الأرض طوال الشهور الفائتة، كي يقرضني ذلك مائة جنيه، أو تسلفني زميلة ياسمين مائتين، مع الوعد ـ غير القابل للتنفيذ طبعًا ـ بإرجاع المال في أقرب وقت، والإحراج من الأقارب والأخوات، على الرغم من كرهي للأمر بسبب مرض أبي وحبه للشحاذة والاقتراض، وطبعًا لن تطلب ياسمين من أهلها أي أموال، خصوصًا أنها لطالما تحاكت عن الخير الوافر داخل منزلنا، والحقيقة هي بكل بساطة أنها تكره الظهور أمامهم كإنسانة تمر بأزمة!

أربكني رد فعل ياسمين، ابتسمت وقتها وطلبت مني البقاء مع أيهم، وسترجع هي بكل المتطلبات، أقسمت عليها بالطلاق أنني لن أتركها بمفردها فوافقت، شددت على ضرورة وجود عربة أيهم الكبيرة ذات المساحة العجيبة والجيوب السحرية الأعجب التي اشتراها والد ياسمين هدية له من فرنسا وإلا فسد كل شيء! وأمرتني بالقيادة لسلسلة الماركت الأشهر هايبر ماركت فرع الشيخ زايد، وعند الوصول طالبتني بركن السيارة في زاوية الجراج وكررتها ثلاث مرات: «زاوية الجراج، لا المنتصف ولا اليمين أو اليسار، زاوية، لا يقف أحد بعدنا فيها!».

مشينا كلنا إلى الداخل كزبائن ثرية تحتاج إلى التبضع وشراء خزين الشهر، ظننت أنها تحمل كوبونات خصم أو تعرف شخصًا هناك يساعدنا، لكنني كدت أبكي حين لمحتها تضع ما نحتاج إليه خلسة في جيوب عربة أيهم السحرية! علبتا حليب، علبة حفاض اقتصادية حجم كبير، معلبات أطعمة جاهزة، عبوات جبن، تقريبًا وزعت كل

ما نحتاج إليه من دون أن يلاحظها أحد! كانت الخطة مكررة لكنها لا تفشل! تحضر ما تريده وتتظاهر بأنها تلاعب أيهم أو تطمئن عليه، وفي نفس اللحظة تخفي الشيء.

كررت الأمر وأنا في قمة اندهاشي وضعفي، زوجتي تسرق وتضعنا كلنا في خطر، لأنني رجل فاشل لا يملك من الأموال ما يستر بيته، كنت ماشيًا بجانبها يبكي معي عجزي، أراقب ضحكات أيهم ونظراته البريئة الساحرة، أقول لنفسي: سامحني يا أيهم، أبوك مفلس، وأمك تتصرف بنزعة الأمومة، بغريزة البقاء وتوفير الأمان لبيتها وابنها وزوجها، تفكر فقط في سد فراغات العوز، ولا تحسب تمامًا مدى سوء النتائج إذا تم كشفها!

سحبتني من دوائر حزني، قالت بنبرة حاسمة: «اسمع، أهم لحظة الآن! ناولني علبة الصلصة تلك واتبعني!».

ناولتها علبة الصلصة، وفجأة وبلا أي مبرر ـ بالنسبة إليَّ تقريبًا ـ قرصت فخذ أيهم ليدخل في نوبة بكاء حادة جعلت الكل ينظر إلينا متأسفًا، فتتحرك ناحيتنا عاملة في المكان قائلة: «هاتي يا حبيبتي عنك، الحمَّام في آخر الممر يمين، شكله جعان يا حبيبي، رضعيه وتعالي، وسأساعدك بنفسي والله في كل حاجة! الممر من هنا يا بيه!».

ياسمين خدعت الكل، بمن فيهم أنا، بإجبارنا على التركيز معها! المتأمل للموقف لن يتدخل نهائيًّا أو يلفت انتباهه ثقل حركة العربة، ستتفاعل حواسه ويتعاطف مع مشهد الأم والأب المحتاسين في التعامل مع طفل يبكي! الغالبية العظمى الأدرى بتلك الأمور ستترجم المسألة إلى طفل ودموع، إذن هو المغص أو جائع أو أي شيء،

وهذه أم كريمة تجري كي تلحق ابنها، يتبعها زوجها الذي يجتهد لمساعدتها.

ركضنا إلى سيارتنا، والأعين تراقبنا وتودعنا، لتقوم قرة عيني بتفريغ الحصيلة بطريقة أكثر ذكاءً. وضعت عربة أيهم في الجانب الآخر الموازي لحائط الجراج، وقفت بيدها حفاض، ثم نزلت على ركبتيها وخلعت بنطال أيهم، فيدرك الناظر أنها أم تغير لوليدها ويبعد نظره عن خصوصية الموقف، لكنها كانت تسحب المنتجات وترميها في الكنبة الخلفية من دون أن يلاحظ أي شخص من أي زاوية. ماذا قد تفعل الأم المسكينة غير ذلك؟

طوال الطريق يعبث عقلها بنا، يردد مقولات كثيرة: «جدعة يا ياسمين!»، «ما يجيبها إلا نسوانها!»، «يلعن ميتين أم الأمومة!»، ثم قالت بمنتهى الثقة إنها ستعرض علبة من حفاضات أيهم على مواقع التواصل بسعر أقل، وبالفلوس يمكنني شراء البنزين للسيارة، ولزيادة كرمها أهدتني أكبر حافظ مشروبات ساخنة ليرافقني الشاي طوال يوم عملي سواء في المحل أو في السيارة.

وصلنا إلى منطقتنا، نزلت قاصدًا أقرب بقالة، طلبت منه الأكياس البلاستيكية طبعًا، وعدت إلى السيارة، وضعت غنيمتنا المنهوبة وركضنا تجاه البيت، نام أيهم من فرط المغامرة، وقالت لي ياسمين: «بلا أي دخول في تفاصيل، خادمة البيت لدينا هي السبب، علمتني الحيلة وقالت يمكن في يوم أحتاج إليها. المهم، أنا عاوزة شيئًا غير التفاصيل لندخل فيه!».

غمزت ففهمت ما تحتاج إليه، والحقيقة كان الأمر تأدية واجب،

هي تستمتع أو تدعي أنها كذلك، وأنا عقلي يعيد كل المشاهد، ويضعني في سيناريوهات أخرى كمأزق إلقاء القبض علينا مثلًا.

ولأن عقلي ليس دومًا ضد مصلحتي، رماني في أحلك أوقاتي حزنًا، ولحظات نشوتي، بكارت الطبيب النفسي الذي ركب معي في توصيلة من توصيلات التطبيق المجانية، والذي حدثني عن مرض اكتئاب ما بعد الولادة الذكوري، أعتقد كان اسمه حسام سعيد؟ حسام مفيد؟ أعتقد حسام سعيد.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا
@RIWAYAT2025
@RIWAYAT2025
HTTPS://T.ME/RIWAYAT2025
Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

الحياة بعد كريم حسين الورداني

١

للمرة الأولى منذ زواجنا التي أدخل فيها البيت من دون وجود أيهم وياسمين، لم يستقبلني ابني بعشرات الكلمات المتتابعة من كلمة «بابا»، أو وجه حبيبتي الملائكي وتقلبات مزاجها. وعلى الرغم من كل ما حدث فعّلت وضع الإنسان الآلي، بحثت عن لقيمات ناشفة، جنيهات معدنية، أزرار قميص، رفعت أي شيء خطير قد يبتلعه الصغير، ثم مشيت في أرجاء المنزل أزيل شواحن الهواتف وألملم ألعاب أيهم المتناثرة.

أرعبني هدوء البيت، كلما حاولت الوقوف كبّلني الحزن، منعني الفقد من الحركة، تمسّك الفراق بقعودي، صفعتني المأساة بحقيقة الوضع، وتعاظم داخلي الخوف من البقاء في المنزل وحيدًا، فبكيت، بلا مقدمات، كأنني صنبور، وشخص فتحه فجأة على أقصى عزم لدفع المياه، بكيت إلى درجة العجز عن التنفس، وانقطاع الأمل في الحياة، ورأيت كل لحظات حياتي مع أيهم وياسمين.

حصريا على روايات وكتب عربية
HTTPS://RIWAYAT2025

تركت الشقة، ركبت السيارة، تحركت تجاه اللاشيء، قيادة بلا هدف، ساعات من اللف والبكاء في شوارع القاهرة، حتى مع ظهور مؤشر نقص البنزين، وبعد تزويده، ووصول عقارب الساعة إلى الواحدة والنصف صباحًا، لم يقتنع عقلي بالرجوع، وعرض الوقوف أسفل البناية والنوم بالسيارة، من دون الاكتراث بأي تفسير لكل سائل عن السبب.

رفض النوم كل محاولاتي للتصالح، فقضيت الوقت متنقلًا ببصري، بين باب البناية، إذ ربما تعود ياسمين، وبين ملفات الهاتف، خصوصًا صوري مع زوجتي، أو لقطات مصورة لأيهم، ثم أعدت فتح المقطع المباشر الأخير لزيارتنا للمقام على مواقع التواصل الاجتماعي، وبعدها فتحت مقطعًا قبله بأسبوع، كانت تتحدث عن حقوق الزوجين، وطرق الإبلاغ عن العنف الأسري، حفظت كل تعليقاتها، ومتى تضحك ومتى تتجاوز التعليق، وسخريتها البناءة ضد الهجوم المتكرر عليها لأنها لا تحب نجيب محفوظ، وتراه من ضمن أسباب تأصل الذكورية، وعشقت ضحكتها أكثر حين سألها شخص عن رأي زوجها في أدب نجيب محفوظ، وظهرت بصوتي وأنا أسبه قائلًا: «يتحرق نجيب محفوظ! هو البخاري يعني!».

أعدت تشغيل المقطع لأكثر من عشرين مرة، بدموع زوج يجهل أين زوجته، وأب لا يصدق كيف تحولت الحياة بحُلوها ومُرها، إلى مأساة تغرس الحزن في القلب.

مع طلوع الشمس، وبداية يوم لن تضيف جديدًا، اهتز هاتفي برقم الطبيب النفسي الغريب، الذي شخَّصني باكتئاب ما بعد الولادة،

الدكتور حسام سعيد، رفضت استقبال المكالمة، لكنه تمادى في الاتصال، لم ييأس تقريبًا، فتحت الخط، لأجد صوت الممرضة تتحدث بمنتهى الروتينية، تسألني: «هل حضرتك أب؟».

قبل الانفجار بها، كأسخف مكالمة جاءت لأب مكلوم بعد موت ابنه، تكلمت الممرضة بسرعة، كأنها تعيد رسالة محفوظة: «عامةً الدكتور حسام سيغيب فترة لظروف طارئة، مع التوصية على ضرورة زيارة الدكتور كريم حسين الورداني، في حالة تكملة جلسات العلاج أو المتابعة!».

تتأكد الممرضة من فهمي لما قالته، مع أنني حاولت شرح عدم اعتباري من زبائن العيادة، لأنها كانت زيارة واحدة مجانية، لكنها أنهت المكالمة.

تبعتها رسالة من مديري، يخبرني بإمكانية الرجوع بعد أي مدة قد أحتاج إليها للتعافي من الصدمة، والمرتب لن يخصم أو ينقص، وأنه بعيدًا عن رسميات المهنة مستعد لملاقاتي والتحدث عن أي شيء قد يزيح جبل الهموم عن قلبي.

بعد عدة ساعات، وسيل من المكالمات المتجاهلة، وتجاهل النوم لوجودي، بدأ الإرهاق يهاجم جسدي، مع صداع مستفز كاد يشق رأسي، وتناقص قدراتي العقلية بصحبة كثرة التثاؤب، ومع ذلك لا أنام أو أغفو.

زاد الألم في كل مفاصل جسدي، مشاوير البارحة والصدمة، انعدام النوم، الحزن والاكتئاب، كلهم ضربوا مفكات في صواميل نفسيتي، وتطور الأمر إلى جوع غريب، جعلني طوال اليوم متنقلًا بين

HTTPS://T.ME/RWAYA2025

سيارتي والكشك لأحضر ما يكفيه، أكثر من تسع مرات، بلا توقف أو ظهور فكرة أخرى ترحمني من غرابة تصرفاتي.

تحولت إلى شخص عصبي جدًّا، إذا قال لي أحدهم صباح الخير، قلت له صباح الخراء، يا فتاح يا عليم، اؤمر؟ حتى جاء عم بدر في يوم، وزلزل كياني بسؤال: «يا أستاذ، خمسة أيام في العربية! حرام عليك نفسك! اطلع البيت غير هدمتك وافرد جسمك، ساعة واحدة لن تضر والله!».

هل فقدت إحساسي بالوقت، فيمر الوقت وأنا قاعد داخل سيارتي يبتلعني الحزن والجوع؟

بصعوبة وثقل غادرت كهفي الصغير إلى الكهف الكبير الصامت، كيان الذكريات الحزينة، وبطلوع الروح استقبلتني كنبة الصالة، ولأكثر من ساعتين نامت محاولات النوم نفسها ولم ينَم عقلي، لتهاجمني الهلاوس بضراوة؛ بكاء أيهم وتأوهات ياسمين، صورة القبر وشكل حفاضات ابني، زجاجات إرضاع تحتلها الدماء، دراجات ضخمة تدهس أيهم ثم تدهسني.

تتفاقم الهلاوس، أرى مديري يصفع ياسمين لتنظف أرضية محل الدراجات، لأن الزبونة الغاضبة صاحبة الدراجة البناتي تريد خصمًا إضافيًّا، وأرضية المحل أنظف من كرامتنا كلنا، لتنتهي عواصف الخيالات المريضة بجسدي وهو يسقط من فوق برج القاهرة، مقتربًا من سيخ شاورما سوري منتصب في وسط ميدان السيدة زينب، مع تجمهر زبائن «مشوارك» حولي، يريدون مع كل توصيلة كوبونات مجانية لركوبة أو أكثر.

صرخت ونهضت مفزوعًا، ركضت خارج المنزل، دخلت سيارتي، تحركت، يقودني العقل إلى فكرة واحدة، الطبيب النفسي ربما لديه الحل، أو مهدئات ومنومات، أو روشتة مكتوب فيها: «حقنة موت لأنه يستحق!».

قبل التحرك، فتحت رسالة الممرضة وفحصت مواعيد العيادة، من الرابعة إلى التاسعة صيفًا، ومن الثانية إلى السابعة شتاءً، كانت الساعة تقترب من الثالثة والربع، فتحركت، وفي أقل من نصف ساعة وصلت إلى شارع الجسر، بالترعة البولاقية، شبرا، ووفقًا لتعليمات الممرضة، عيادة الطبيب موجودة بالبناية رقم سبعة الدور الثالث، والمظهر العام للعمارة يخبر عن طبيب يراعي جدًّا الغلابة في دفع ثمن الكشف.

دخلت العيادة، وما وجدته هو ما توقعته بالضبط، مكتب خشبي قديم، الجدران كلها نصفها برتقالي غامق والنصف الآخر أبيض باهت، الجو العام مكتوم ويبعث على الاكتئاب، عدة مقاعد مرصوصة بشكل منظم، وممرض وحيد، بالكاد يراني أو يلحظ وجودي، يضع جريدة أمام عينيه، فتشعر بأنه على وشك الدخول إلى صفحاتها لكثرة اقتراب عدسات نظارته من الورق.

تنحنحت، فانتبه إلى وقوف شخص أمامه، ليرحب بمجيء الزبون، ويقول: «الدكتور كريم موجود، الكشف أول مرة مجانًا، والجلسة بعدها بمائة جنيه، تفضَّل!».

مشيت خلفه في ممر ضيق ألوان حائطه بالأخضر الهادئ، إلى أن فتح باب غرفة حوائطها دُهنت بتتابع درجات الأزرق، ألوان فعلًا

تريح الأعصاب، ومكتب معدني لطيف، قبالة شاب وسيم مبتسم، يطلب بمنتهى الود من الممرض الخروج، ويطالبني بالجلوس قائلًا: «سأشرب شايًا بالنعناع، نفس الطلب ولَّا لك طلب آخر؟».

وافقت على الشاي، وجلست مندهشًا لمدى هدوء طبقات صوته، والراحة التي تضيفها الكلمات بمجرد خروجها منه، صوت الرجل فعلًا مسكون بأقراص البنادول، كلما تعمق في الكلام عن نفسه ودوره وطريقة علاجه، استفاق عقلي من تكاسله، وتابع الحوار باهتمام، فلا يسقط حرف منه، ولا يبتعد الإصغاء عن أداء دوره.

أوضح سياسة العيادة في اختيار طرق العلاج، وأحقية قبول أو رفض الانضمام إلى جلسة علاج جماعي تتكرر مرة في الشهر، اعتمادًا على ملف العلاج الخاص بالتأهيل النفسي لكل زائر، مع إبانة أن كلمة «زائر» هي الأكثر قبولًا بين المتعاقدين مع العيادة لمتابعة استقرار حالتهم النفسية.

لما لاحظ قلقي من مصطلحات الزائر والعيادة والحالة النفسية، وضح بهدوء: «أغلبية الناس حاليًّا عارفة إننا كلنا مرضى، فالواحد تجرأ على المجتمع، وقدر يقول إن عنده موعد زيارة لطبيبه النفسي، والموضوع واحدة واحدة بدأ يتحول إلى وجاهة، على الرغم من أن المفروض والأصح هو وجود جلسات بصورة دورية أو مؤقتة، كل فترة، للاطمئنان على مستوى الاستقرار النفسي! إنما معلهش، كل حاجة ولها وقتها!».

ومع دخول الشاي، وتأكده من مذاقه المضبوط قال: «تفضَّل! أنا سامع كل حاجة!».

٢

فات شهر كامل، تعددت الزيارات للعيادة، أربع جلسات، وكريم يسمعني فقط، كان هذا أهم شروط الاتفاق، أن أرمي نفايات العمر وأكياس السخافة خارج صندوق قلبي، وأحتفظ بالذكريات الجميلة، مع ضرورة البوح بها، عملًا بمبدأ الجمال يحفظ إنسانية الروح.

موعدنا كل يوم خميس، الساعة السادسة مساءً، والزيارة عبارة عن ساعة، من المونولوج المسموع، وهمهمات كريم وابتسامته، أو هزات رأسه مع التطورات، وأمارات وجه تقسم بشرف الاهتمام، مبتعدة عن تصدير الأحكام، تركل محاولات التعاطف المبتذلة، وتفرش حديقة كاملة من الود والتفهم، مع قطع كلام باحترافية ممنهجة، ليخبرني بأهمية التقاط الأنفاس، وشرب الماء أو الشاي.

الوصف الأدق للأربع زيارات، ولكل شيء حكيته بالتفصيل، هو الحياة قبل كريم حسين الورداني، سردت له أهم تفاصيل سيرتي، بدءًا من معاناة الصغر والمرض والعيب الخلقي، مرورًا بالطفولة والمراهقة والدراسة والوظيفة، وصولًا إلى الزواج والأبوة ومصيبة موت ابني ومأساة اختفاء زوجتي.

السؤال الوحيد الذي بادرني به تمحور حول الطريقة المثلى للتعامل، وخيرني بين الاستماع التام لكل كلمة، ثم تفسير الأعراض، أو لعب دور المحقق والشاهد، يسألني وأجيب، والصراحة توترت من الفكرة الأخيرة، ليتفهم الأمر، ويفتح من دون الخوض في نقاش توضيحي، دفترًا ضخمًا أمامه، جلده سميك وأسود، صفحاته

HTTPS://T.ME/WAT2025

بلا خطوط تميل إلى لون الكراميل، حاولت قراءة المكتوب فوق غلافه، سلسلة مكتبات «...»، والاسم غير واضح، وبدأ تدوين كلمات لها علاقة بما أحكيه.

لم يطالبني بخلع النظارة، متجنبًا الحديث عن ملامحي وتوافه الأمور، مهتمًّا أكثر بمعالم حكايتي، مع الاطمئنان على حالتي العقلية، وقيام الأدوية بدورها في توفير الارتخاء وتسهيل النوم، والتنبيه على شرعية طلبي بالاستغناء عن دواء معين، أو الاستعانة ببديل، إذا شعرت بأي أعراض جانبية تؤثر على سلامتي النفسية والجسدية.

استغل كريم صمتًا لاح بعد توقفي عن الكلام، ليعبر عن روعة وعبقرية العقل البشري: «أغرب مسألة في التاريخ هي قدرة الأستاذ (وأشار إلى دماغه كناية عن العقل) على حكي حياة كاملة، سنوات طوال، معاناة إنسانية، في ساعات معدودة! برمجة العقل على تصوير حياتنا كفيلم طويل تستحق جائزة كبيرة ومهمة والله!».

ابتسمت موافقًا على ملحوظته، ومع قيامي استعدادًا للمغادرة ربت على يدي وقال موضحًا ومودعًا: «الزيارة الجاية ستكون في السابعة والنصف مساءً، أنت فاهم السبب، جلسة العلاج الجماعي لمجموعة من الآباء تبدأ في الرابعة، فكر فيها لو تحب!».

وعدته بالتفكير، وغادرت للغوص في دوائر مهماتي.

فات شهر كامل منذ اختفاء ياسمين وموت أيهم وروحي، شهر من التردد على أقسام الشرطة، المستشفيات، المراكز الخيرية، صفحات المفقودين، لعلي أفهم أين زوجتي، مع التردد بشكل أسبوعي على نقطة المنيرة لمتابعة مستجدات محضر ابني واختفاء زوجتي.

شهر كامل من زيارة مكان الحادث يوميًا، بمحيط ميدان السيدة زينب والشوارع المجاورة، بحثًا عن الإجابات، أو المجذوب قاتل ابني.

شهر كامل من مكالمة شبه يومية للنقيب الذي ساعدني في إجراءات تصريح الدفن، مفادها: «هل من مستجدات؟»، وشهر كامل من الإجابة نفسها: «والله العظيم الرجال شغالين من نار! الصبر حلو!».

شهر كامل من مهاتفتي لأهل ياسمين بصورة شبه يومية، نتبادل التعزية والمواساة، ونسأل أنفسنا عن أي جديد يخص قضية ياسمين وأيهم، وننهي المكالمات بفقدان أمل عظيم وحزن كئيب أعظم.

شهر كامل من تعاظم كراهيتي تجاه المجاذيب، كلما رأيت واحدًا في طريقي أبصق عليه، أسبه، وأوقات أخرى أخبطهم بجانب سيارتي وأهرب، وأهددهم بيني وبين نفسي: المرة الجاية ستطير من قوة الخبطة! وأضحك لثوانٍ، لأنني ولأضعف الإيمان، انتقمت من المجذوب القاتل بإيذاء زملائه المجاذيب.

شهر كامل من تعليقات المواساة، والمشاركات عبر مواقع التواصل الاجتماعي، واستقبال رسائل التعزية اليومية، مع إصراري على مهاتفة زملاء ياسمين، أو أقاربي، خصوصًا قريبنا المشهور، كمحاولة مني لتوفير فرصة ظهور في القنوات التلفزيونية كي أطالب الحكومة بالتدخل، كما قال النقيب إن رجوع حق ابني وزوجتي ربما يكون مرهونًا بتحويل الأمر إلى قضية رأي عام.

شهر كامل من اكتشاف إصابتي برهاب المنازل، مع إصابتي

باكتئاب ما بعد الولادة الذكوري، ليفاجئني القدر بفوبيا المكوث في البيت، لأنه يذكرني بحياتي وعائلتي، صرت شخصًا يخشى المكوث في بيته، مصدر أمانه الفطري، أصبحت إنسانًا يهجر المنازل، ويختبئ داخل حيز ضيق، يعجز عن إقناع نفسه بكونه السكن، كي لا يدخلني عقلي في دوامات الهروب مجددًا.

حياتي صارت سلسلة متتابعة من المهمات؛ الاستيقاظ صباحًا في تمام الثامنة لتفعيل تطبيق «مشوارك»، وبدء رحلات التوصيل لكسب قوت يومي، وثمن زيارات عيادة كريم، وبنزين السيارة وإصلاح أعطالها، وما يساعدني على مرور الأيام من دون اللجوء إلى الاستجداء.

أقود حتى الثانية ظهرًا، وأرجع لركن سيارتي أسفل البناية، أرتاح لمدة ساعة، أتابع مواقع التواصل الاجتماعي، بحثًا عن أي أخبار جديدة، واضعًا صورة زوجتي في جميع الجروبات والمنشورات، ثم أمشي إلى الكشك لشراء ثلاثة ساندويتشات دومتي جاهزة وعلبة عصير، بتكلفة عشرين جنيهًا، فيستعيد جسدي طاقة مؤقتة تسندني إلى آخر اليوم.

أرجع بعدها لتكملة رحلات «مشوارك»، حتى تحل السابعة، فأتحرك ناحية ميدان السيدة مجددًا، أراقب كل المجاذيب والشحاذين، أشاكسهم بشكل خفي، أدفعهم وسط الزحام، أخبطهم بكتفي، أعرقلهم من دون أن يلاحظني أحد، مع يقيني بعدم اهتمام الناس بمجذوب سقط! يختلف موعد مواجهتي مع المجاذيب، إذا كان اليوم هو الخميس، فأذهب أولًا إلى الجلسة وأعود إلى الميدان حين ننتهي.

أتجول في محيط السيدة، أراقب الوقت بين الحين والآخر، للرحيل قبل الحادية عشرة، وهو موعد نومي، أسفل البناية، في السيارة التي أصبحت قلعتي المحصنة ضد تقلبات الحياة، حيث أجلس متابعًا تطورات قضية ابني وزوجتي، مع كتابة كلمة «UP» في كل المنشورات، آملاً في تحويل المصيبتين إلى قضيتَي رأي عام، إلى أن يحتل النوم أرضي.

قسم جسدي النوم إلى مرحلتين، المرحلة عبارة عن ثلاث ساعات، مساءً من الحادية عشرة إلى الثانية صباحًا، تليها فترة استفاقة غريبة، بكامل وعيي وظلامية أفكاري، تتخللها هجمات بكاء ولوم قاسية، ومتابعة لأي مستجدات تخص عائلتي المسكينة، ثم العودة إلى الميتة الصغرى، من الخامسة إلى الثامنة صباحًا، ليقوم جسدي وحزني وفشلي، استعدادًا ليوم جديد، يعجز عن الاقتراب من لمحات نجاح.

ساعدني عم بدر في نقل معظم ملابسي الصيفية إلى شنطة السيارة، واتفقت معه على غسيل ما أستخدمه، والاعتماد على المكوجي عند الحاجة.

إذا باغتتني مثانتي أو أمعائي في أي وقت، أدخل أقرب قهوة أو محل، وأحيانًا ـ في المواقيت المناسبة طبعًا ـ غرفة عم بدر البواب، وعند اشتداد رائحة العرق استقبلت نظافتي حمَّامات المساجد، أو رشاشات المياه بالحدائق العامة، حين تفتح مساءً، وأزالت قذارتي صابونة رخيصة، مع مزيلات العرق الصغيرة، بتكلفة ثلاثين جنيهًا، وحماية فعالة، لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة.

وعلى ذكر الحماية الفعالة، راقبت موقفًا نبيلاً، أعتقد أنه في حياة

أخرى ووضع غير الوضع، كان سيستدمع عينَي المنظر، حين ألمح رجلًا، في الثالثة والنصف صباحًا، يمشي بشوال ضخم به طعام وتتبعه معظم كلاب المنطقة، لكنني تابعت المشهد ببرود تام، رأيت الكلاب تهز ذيولها جميعًا، متبخترة خلف منقذها الذي فتح الشوال وقال بصوت مسموع: «بالشفاء يا أولاد الكلب!».

بعدها ظهر مجذوب، يقترب بشيء من الحرج، ليأكل مع الكلاب، كدت أخرج من سيارتي لأسأله عن زوجتي، أو عن مجذوب هارب من ميدان السيدة، وربما أمارس هوايتي المفضلة في التضييق عليه، ليجيبني عقلي بضرورة التوقف عن سخافات التحقيق مع مجذوب لا يدرك شيئًا عن معضلة حياتي.

خمدت ثورة اللايقين، لما وجدت الكلاب تئن متأوهة، بصحبة نباح وعويل وأنين ونظرات استعطاف، تبعها خروج رغوة بيضاء من الفم، مع فرك وتحريك أرجلها كحركات استغاثة، ثم سكوت تام، فأدركت أن الرجل صاحب الخير لم يكن من المحسنين، والمجذوب في طريقه إلى الموت مسمومًا.

ظهر قاتل الكلاب من جديد، هو ورجال المنطقة، وعربة نصف نقل، مرتدين قفازات، يضحكون في زهو وفخر، لانتصارهم على الكلاب. الرجل صاحب الفكرة وقف متفاخرًا بمنجزه، يعيد على مسامعهم: «شايفين الحلول! والسلام أمانة للعيال أصحاب الرفق بالحيوان والجمعيات العبيطة! رفق بالحيوان! والإنسان؟ راحة الإنسان أهم من الكلاب! ننجز يا جماعة، وحساب القهوة كله عليَّ، احتفالًا بعبقريتي!».

سأله أحد الموجودين: «فيه مجنون على الله طفح الأكل معهم، نرفعه إلى السيارة؟».

بصق قاتل الكلاب مجيبًا: «الله يخرب بيت طفاسة المجاذيب، يا رب! نفسي أشوف المجانين ملمومين في مكان، والبقية أنت عارفها! قادر يا كريم على كل خسيس لئيم! المهم، هات البيه معهم، لو مات ندفنه، لو حي نرميه!».

في أثناء رفع جسد المجذوب إلى ظهر السيارة، علق سائق العربة على كلام المجموعة: «لو حي نرميه! عم أشرف متوصي بسم الاستركنين، استخدم أكثر من الكمية المطلوبة، والسم أصلًا سفاح ابن مرة، فالرجل المرمي مع الكلاب، بدون مقاطعة وبإذنك يا رب، الله يرحمه!».

أحيانًا يرسل إليك الرب طرق التخلص من أعدائك، وأنت جالس في مكانك تتابع ميتة قذرة ورجالًا تصفهم وفقًا لحالتك النفسية بـ«النبلاء»، إذ إنهم ساعدوك من دون طلب التدخل!

فعلًا، إذا كانت مزيلات العرق هي حمايتي الفعالة من قرف التعرق، فأعتقد أن سم الاستركنين هو حمايتي الأكيدة من وساخة المجاذيب.

٣

مر شهر منذ لحظة قتل الكلاب، والانتقام يزاحم أفكاري اليومية، مع تساؤلات مشروعة في حق التجربة؛ من أين سأحصل على السم؟

ما مدى سهولة الأمر؟ كيف سأحضر الوجبات المستخدمة كطُعم؟ ولم تشغلني تمامًا النتائج النهائية، سواء بالقضاء عليهم أو القبض عليَّ.

مر شهران على موت ابني واختفاء زوجتي من دون التوصل إلى حلول، الداخلية في طور البحث، القاتل حر، الحزن يستحوذ عليَّ، النسيان يرفض الابتعاد، يعاملني بسادية مفرطة، يسقط من ذاكرتي وانتباهي ما يشاء؛ الوقت، الأكل، الحياة، ويتمسك بذكريات العائلة، بابتسامة أيهم وذراعه، بمشهد تكفينه ودفنه، بجمال ومرض زوجتي العقلي، وكل كلماتها الغريبة، والتي بدأ عقلي يقتنع بأنها لحقت بصغيري كرد فعل طبيعي لأم ماتت لها ابنة من قبل.

لأكثر من شهرين، أنا وأم ياسمين وأبوها نبحث عنها في كل مكان، ندون أرقام المستشفيات والمراكز الخيرية والأقسام، نتصل بها كلها، ونشرح الموضوع، ونطلب منهم رقمًا لنستطيع إرسال صورة لها فيهاتفوننا في حالة العثور عليها.

منذ بداية اليوم وأنا أحاول الوصول إلى قريبي المشهور، هاتفته أكثر من عشر مرات، لا رد، أريد أن أسأله عن أي جديد بخصوص الظهور في التلفزيون للتحدث عن قضية زوجتي وابني، حتى لو كان عن طريق قناة رخيصة، المهم هو الفعل نفسه.

في أثناء جلوسي في السيارة، وتفكيري في إيجاد حلول تضبط مشكلة ظهوري الإعلامي، نبهني هاتفي إلى موعد الجلسة الأسبوعي، ثم ذكرني بموعد الجلسة الجماعية الشهرية، بعد يومين من الآن، والتي أرفض حضورها.

HTTPS://T.ME/ARWAT2025

أعلن تطبيق «مشوارك» عن وجود طلب توصيل فقبلته، وبعد دقائق وصلت إلى موقع العميل، ليركب بجانبي شاب وبالخلف فتاة، ومن النظرات والصمت الغريب والخاتمين عرفت أنها خطيبته، وأنهما ليسا على وفاق حاليًّا، ومن النظرات المسروقة، والتجهم الوجهي، يدرك الناظر بلا أدنى شك وجود مصيبة بين العاشقين.

ظل الصمت رابعنا، لكن الشاب رفض الاستسلام وطلب توصيل هاتفه بكاسيت السيارة، لتنهال الكلمات من السماعات، والبنت بالخلف تتابع وتبتسم وتهز رأسها معها، كعادة الناس حين تتسلل الموسيقى إليهم، ليسألها الشاب: «تعرفي الفكرة العامة وراء الأغنية أصلًا؟».

انسلخت عن نظراتهما، عن رسائلهما الخفية، عن الاعتذارات الهوائية واللوم اللطيف، وتأملت الفكرة العامة وراء تعاملاتي، وكم تجاوزت سنوات كثيرة، شكلتني فيها أمي، الظروف والمصائب والمحن، مواقف الخير والخذلان والشر، التقدير والإنكار، نعم الرب وسخرية الحياة وكراهية أبي، ولم تتدخل نهائيًّا، ولو للحظة عابرة، الموسيقى في تكوين شخصيتي.

هذا المرض جعلني في نظر الكثيرين، باستثناء أمي طبعًا، شخصًا باردًا بلا أي مشاعر، مع أنني لست هكذا، أو يمكن القول وبالأمانة إنني لا أحمل أي شعور مرتبط بوجود الموسيقى، سواء الحماس أو التأثر أو الانفعال.

مع ذلك، تصالحني الحياة مؤقتًا، وقتما أحضر فرح أحدهم، فتجدني في ركن بعيد، أضحك حد الدموع، إلى الدرجة التي أكاد أن

أفقد توازني، بسبب رقص الحضور، ولأنني أرى أشخاصًا يرقصون على وقع كلمات من دون موسيقى أو لحن، فكرة عبقرية، حولت الأفراح إلى نكات تبهجني! وفي الفرح نفسه يهاجمني الحزن، لأنني لم أفهم فكرة الرقص، ولا فكرة هز الرؤوس تماشيًا مع الموقف، أو كيف تزيد درجة حبك وتعلقك بشخص بسبب أغنية تشبه علاقتكما! على الرغم من المأساة، كنت أحيانًا أضع سماعات الأذن، وأدعي الاستمتاع بالموسيقى مثل بقية البشر.

معرفتي عن الموسيقى معرفة نظرية، من خلال كلام الناس، فهمت بشكل صوري معنى كلمتَي «لحن» و«توزيع»، لكن الكلام عن الماهية ذاتها أجهله بصفة تامة، ومثال أغنية أم كلثوم الذي يقود توضيحاتي للمستفسرين عن مرضي النادر هو تفسير طبقًا لدرايتي السطحية عن الأمر، وأنا في الواقع لا أفهم ما المقصود فعليًّا من مصطلحات مثل: «اللحن» و«التوزيع» و«الموسيقى» و«الآلات».

وصلنا إلى وجهتنا، شارع مكرم عبيد بمدينة نصر، غادر العاشقان فرحين، ودفع الشاب ـ ولله الحمد ـ المطلوب، لأنني أصبحت في احتياج دائم إلى سيولة مادية سريعة تنجدني إذا ظهر جديد، والمشاوير التي يدفع أصحابها بكروت الائتمان لا تمكنني من الحصول الفوري على مالي، إذ إنني أضطر للانتظار إلى نهاية الأسبوع، وبعدها يمكنني سحب الأرباح من محفظة فودافون كاش، بينما الدفع النقدي في وقتها يطمئن جيبي بدفء المال.

نبهني الهاتف إلى طلب جديد، ومع قبوله عرفت أن وجهتي التالية هي الحسين، ليركب رجل في أواخر الستينيات، يذهب كل

عام إلى هناك، وفاءً لوصية زوجته التي كانت تطعم مساكين ومجاذيب الحسين بشكل دوري لعلها تنال بدعواتهم وشفاعة الحسين مكانة خاصة بين أهل الجنة.

تقريبًا الرجل أرمل، يعاني من الوحدة، وفرصته في التحدث إلى آخرين هي المواصلات، فظل يحكي لي عن تفاصيل حياته، وأنا كل تفكيري يتمحور حول نقطة بعينها، أين تلك الوجبات؟ وكيف يطعمهم؟

أجاب الرجل من دون سؤاله، مسترسلًا في كلامه: «والحمد لله يا سيدي، ربنا ألهمني وعرفت عن طريق توجيهاته، والخير المرتبط بسيرة المدام، بوجود جمعية خيرية، فروعها منتشرة في مصر كلها، اسمها «الفضل والمعروف»، تقدر من خلالها تطعم أي عدد، كل المطلوب هو توضيح عدد الوجبات، ومكونات الطبق، وتحديد مكان الاستلام، وخيارات الدفع سهلة، فيزا أو عند الاستلام، وشهادة لله يا ابني ذمتهم ذهب!».

بلغنا وجهتنا، شكرني، والحمد لله دفع المبلغ، ودعني مبتسمًا، تظاهرت بأنني على وشك الرحيل، لكنني عطلت التطبيق، ووجدت مكانًا للركنة، بفعل مجهودات سايس المنطقة، ونزلت متتبعًا الرجل العجوز، يقودني البحث عن عدد أكبر منهم، بعد التشبع بمعلومات حول كيفية إطعامهم، شكرت الرب في سري لأنه يرسل علاماته ويؤكد عليها.

مشيت في شوارع الحسين وخان الخليلي أبحث عنهم، حتى اقتربت من المسجد، لمحت العجوز صاحب الخير يوزع الوجبات

ويشير إلى السماء، يضحك مع كل يد تمتد إليه، وإذا قبَّل يده مجذوب يستغفر الله، وربما يقبِّل هو الآخر أياديهم النجسة، كان سعيدًا بتهافتهم عليه، وددت أن أقول: يا مسكين! اللمة كاذبة وخداعة! هم ليسوا مساكين الشارع، وأقسم برحمة ابني لكثرة ملاحظتي لهم، أغلبيتهم أصحاب عقل، لكن مشخصاتية ويعرفون أصول المهنة، كله كذب يا حاج، للضحك على الذقون، ونهب خيرك وخير غيرك!

دقت الساعة الخامسة مساءً، واليوم الخميس، مما يعني التحرك حالًا، للحاق بموعد الجلسة، وترتيب أفكاري العشوائية عن قتل المجاذيب، ثم تذكرت كلام الحاج عن الجمعية الخيرية والاتصال الهاتفي، ولحسن حظي، وفي أثناء زحام الطريق، لمحت محل شحن رصيد وبيع خطوط، من تلك المحال الشعبية التي توفر لك رقمًا به رصيد، أو هاتفًا بسيطًا برقم مميز وهو بعيد كل البعد عن التميز، فركنت السيارة جانبًا، وحصلت على هاتف نوكيا بكشاف، ورقم به مائة دقيقة، بمائة وخمسين جنيهًا!

أحيانًا تحمد الرب على الدعم الشعبوي الرخيص لكل شيء من حولك، ولإحساس الحكومات المتقدمة بمعاناة شعوب العالم الثالث وتوفير أقل احتياجات الإنسانية.

بعد وصولي إلى شارع الجسر بشبرا، لاحظت وجود صيدلية بالقرب من بناية كريم، فدخلت وسألت عن السم، ومع نظرات الصيدلي المرتابة، بررت سؤالي بوجود عدة كلاب ضالة ومسعورة في منطقتي، الناس خائفة من مواجهتها، وأنني قرأت مقالًا عن سهولة

التخلص منهم باستخدام الاستركنين، وفقًا لمدير مديرية الطب البيطري في الجيزة، حيث تتم مكافحة الكلاب بتلك المادة المصرح بها من قبَل هيئة الخدمات البيطرية التابعة لوزارة الزراعة.

ضحك الصيدلي على سذاجة طلبي، وتفصيصي للدوافع موضحًا: «يا أستاذ، السم ممنوع دوليًّا أساسًا، لكن الممنوع في مصر حلال، عامةً لن تجده في الصيدليات إلا نادرًا، وقد يكون موجودًا ولن يصرفه لك الصيدلي، الموضوع إنساني، قد تجده في محال المنظفات أو عيادات البيطريين، آه والله، توجد عيادة بالشارع الخلفي، عيادة الدكتور خليل سويلم، ممكن يساعدك في تحقيق طلبك!».

راقبت الوقت، أمامي بالضبط نصف ساعة، ركضت كما وصف الصيدلي تجاه الشارع الخلفي، دققت النظر، لاحت لافتة العيادة الخارجية: «العيادة البيطرية الفنية المتقدمة ـ دكتور خليل سويلم ـ استشاري الطب البيطري والجراحة». مع اقترابي، اكتشفت أنه محل تجاري، وقد حوَّله صاحبه إلى عيادة لمزاولة المهنة.

وقفت أمام رجل كبير في السن، ملامحه ترفض الاعتراف به كطبيب، يشبه الفنان نصر سيف، سألته عن المطلوب، مع تدريب عقلي على استعادة كلمات المقال، لكنه لم يطلب أي تبريرات، بل قال إنه لا يبيع تلك النوعية من السموم، وإنه طبيب نبيل يعرف الإنسانية والرحمة! استعطفت ضميره بترشيح أي مكان آخر، وأقسمت عليه بضرورة مساعدتي، لأن الكلاب في منطقتنا ترعب الأهالي ولا يقدر عليها أحد.

سألني عن المكان، فقلت عنوان بيتنا القديم بالدرب الأحمر، وظل

يحملق في وجهي، من خلف النظارة، استفسرت عن غرابة نظراته، قال إنه لا يضمن صدق القصة، ولا يعرف مَن أنا ليرشح لي مكانًا!

أخرجت بطاقتي الشخصية، على الرغم من غباء الحركة لكني أود تحقيق هدفي، ليخطفها مني ويتأمل ظهرها، ولما وجد «حاصل على ليسانس آداب مكتبات، جامعة القاهرة»، زفر مبتسمًا، لتتحول دفة الكلام من الرفض إلى تحديد الكمية المطلوبة، بسبب غلو سعر المادة، ولما رأى حيرتي وارتباكي رشح عبوات صنعها بنفسه، تحتوي على كمية معقولة، تكفي لقتل خمسين كلبًا، وشرح أن جرامَين من الاستركنين كافيان لقتل كلب واحد، لذا عبوة المائة جرام هي الأنسب، وسعرها خمسمائة جنيه فقط لا غير، وجاهزة للاستخدام الفوري.

قبل سؤالي عن تغير موقفه، قال من تلقاء نفسه: «لا مؤاخذة يا أستاذ، كل فترة يزورني واحد من التفتيش، يكذب ويقول أي كلام، وفي الآخر يقول إنه من التفتيش، ويشكرني على إني إنسان نبيل أرفض بيع سم الاستركنين، وأنا أساسًا ميزانيتي الشهرية مسنودة ببيع الاستركنين! اعذرني، فيها حوارات وسين وجيم، وممكن توصل إلى تشميع العيادة لو المفتش سخيف، وألبس قضية وأنا عندي إيجار وبيت! المهم يا باشا، أجهز لحضرتك العبوة؟».

شكرت الرب على توفر المبلغ، وتمت الصفقة، ليحضر الطبيب طلبي مغلفًا، ففتحت معه الحوار قبل رحيلي: «صحيح يا دكتور، فيه رجل مجذوب أكل مع الكلاب، وتسمم وتقريبًا مات، السؤال: هو السم فعلًا يقدر يقتل الناس؟».

فأجاب الطبيب: «طبعًا يموت ويشبع موت، السم شديد، مع لمسه أو شمه أو بلعه يحصل تشنجات شديدة، وفشل في التنفس، وممكن يموت قبل ما يروح مستشفى! حاول تقرأ التعليمات الموجودة ضروري جدًّا على العلبة! إياك تلمسه أو تستنشقه! مفهوم؟ الاستركنين محرم دوليًّا أصلًا! هو سم ليس له رائحة ولا لون، لكن أنا خالطه مع رائحة لحم، فالكلاب تشمه وتجري عليه! أنا مجهزه للرش على طول!».

شكرته على كرم عرضه، ونبل معلوماته، وتحركت مسرعًا تجاه العيادة، وجملة واحدة ترقص داخل عقلي: السم شديد، لو تركه الناس من دون تدخل، يحدث فشل في التنفس ويموت.

قبل الصعود للجلسة اهتز هاتفي، أخيرًا قريبي المشهور عاود الاتصال بي، معتذرًا عن انشغاله بتصوير حلقة جديدة في برنامجه، ثم طالبني بالصبر لأن الموضوع ـ وفقًا لمعد برنامجه ـ صعب، ويحتاج إلى موافقات عديدة، استفسرت عن سبب الموافقات، ليوضح مدى ضيق وقته، لكنه أكد ثانية كلام المعد، ثم حاولت عرض فكرة استضافتي في برنامجه، فانتهت المكالمة فجأة!

أصبح رقمه غير متاح، لا مفر إذن من تكرار الاتصال بعد الجلسة، أو ربما يهاتفني هو مجددًا، تحسست كيس العبوات، الخطة تختمر داخل دماغي، أقول لذاتي إذا فشلت الحكومة في العثور على المجذوب، إذن سأصير أنا حملة إبادة المجاذيب، التي تعجز الحكومة عن تحقيقها، وبدعم من الرب، الذي يساعدني في تيسير قراراتي الشخصية.

من هاتفي الرخيص هاتفت الجمعية الخيرية، بعد الحصول على رقمهم من خلال صفحتهم بمواقع التواصل الاجتماعي، لكن الرد الآلي طلب ترك رسالة، وأنهم سيهاتفونني في أقرب وقت.

في أقرب وقت، سيركع المجاذيب لي طلبًا للرحمة.

٤

بعد السلام والتحية، والاعتذار عن التأخير البسيط، وتحضير كوب الشاي المعمول بمزاج، فتح كريم الدفتر أمامه، وأخرج منه ثلاث ورقات وضعها أمامي مفسرًا: «اليوم، بعد إذنك طبعًا، ستختار ورقة، وأيًّا كان الاختيار، ستكلمني عنه كما عادة الجلسات، لو الأمر مرفوض بالنسبة إليك اعتبر الأمر مجرد نكتة، لكن الأهم أنها نكتة فيها روح الضحك، وأنت عارف كريم صديقك يهمه مصلحتك أولًا!».

لشدة أدب ولباقة كريم في اختيار الكلمات، مع تنوع طبقة صوته، ما بين الهدوء والسكينة وطمأنينة البوح، كنت أشعر دومًا بأنه إذا طلب مني في نهاية الجلسة الوقوف فوق سور البلكونة والقفز حالًا فسأفعلها بإرادة كاملة، وقلب مسامح لا يحمل بداخله سوى الاحترام لكريم وطلباته.

وضحت لكريم قبل أي شيء: «احتمال يرن التلفون في وقت الجلسة، مكالمة مهمة من جمعية خيرية، وأخرى من قريب بخصوص التلفزيون، موافق؟».

HTTPS://WWW.AYAT2025

لم يعترض كريم، سألني فقط عن موضوع التلفزيون بحماس: «الله الله! الشهرة بدأت تلاحقك يا أستاذ؟».

ابتسمت، وقلت إنها ربما تكون فرصتي لمناشدة الحكومة بتسريع الإجراءات، والبحث بذمة وضمير عن زوجتي وقاتل ابني. ربت كريم على كتفي، وأشار ناحية الكروت، فسحبت الكارت الأوسط، استنادًا لخير الأمور الوسط، لتنفجر ماسورة الوسطية في وجهي، لما لمحت صورة، وكُتب تحتها بخط عربي منظم وجميل: «الأب».

لسنين طوال، فشلت في وصف العلاقة بيني وبين أبي، حتى سمعت ضيفًا في برنامج بالراديو يصحح للمستضيف معلوماته عن أقوى قنبلة في العالم، قنبلة القيصر.

فعلًا، التحليل الأدق لمعاناتي مع الوالد هو تلك القنبلة الأشد خطورة، صنعها الروس، قنبلة هيدروجينية تنفجر على ثلاث مراحل، وهو نفس عدد مشكلاتي مع أبي، وتأثيرها مرعب، تعرف كيف تدمر كل شيء في طريقها، تمامًا كما حدث مع مأساة شخصيتي ونشأتي.

بدأت المرحلة الأولى لقنبلة القيصر يوم ولادتي!

لما لاحظ الطبيب تساقط عيني اليمنى، حكت لي والدتي كيف حاول الطبيب وقتها تهدئة والدي، مرجعًا الأمر إلى مرض ارتخاء الجفن المؤقت، مع البدء في علاجي لاحقًا، كي لا تستقبلني الحياة منذ مولدي بالأدوية، وعلينا الصبر حتى يشتد عودي فيتحمل العلاج، لكن نظرية الطبيب تحطمت، لما تأكد أبي من عيبي الخلقي الدائم، والله يسامح صديق عمره الذي قال له في لحظة ضحك: «كبرت

وعجزت! وجاء لك عيل به عيب خلقي! ما أنا ياما قلتلك الفياجرا تساعد وتجيب لك العيل العفي!».

من يومها وأبي يراني كإثبات تقدمه في العمر وضعفه الجنسي، لأنني لم أكن طفلًا كاملًا، مثل أخواتي البنات أو عيال العائلة. على الرغم من تحدث الكثير معه عن صعوبة الربط بين الضعف الجنسي وولادة طفل غير سليم، وضرورة التخلص من الموروثات العقيمة، فإنه كان يرفض كلامهم، ويتفنن في إبعاد المسافات بيننا، فيتناسى عقله ويتذكر أيام الفحولة.

المرحلة الثانية تتعلق بالمعاملة الرسمية التي رسمها أبي بيني وبينه، لم يعرف أبي الحضن أو السلام بالأيدي، دائمًا يضع حائلًا غير مرئي بيني وبينه، يقدس التبجيل، لا يسامحني إذا ناديته باسمه، أو خرجت مني جملة تشير إليه من دون كلمة «حضرتك»، وطبعًا سيعم السواد لو تجرأت مخارج الحروف عندي وقالت: «أنت»، وقتها سأسمع محاضرة عن ضرورة احترام الآباء، وعن فشله في تربية رجل يجهل كيف يتحدث إلى أبيه، وفوق كل هذا تعمده الدائم للتقليل من شخصيتي، ودعوته الدائمة لي بـ«ابن أمه»، مع أنني لطالما حاولت كسب صداقته وإقناعه بالعدول عن رأيه، لكن كل محاولاتي ماتت قبل فشلها أصلًا.

حتى وقت موت ابني لم يحتضنِّي، كنت أنتظرها منه، على الرغم من علمي بأنها لن تمسح ما تركه الزمن داخلي من عقد وقلة ثقة وشعور دائم بعدم الاستحقاق، إلى درجة أنني كلما وجدت مفاجأة حلوة، في المرات القليلة المعدودة من أي شخص، كنت أقول

لنفسي: خير يا رب؟ هل أستحق كل هذا الكرم؟ والنبي يا رب لو ناوي تأخذ حاجة مقابل كرمك، فأرجوك استرجع كرمك ثانية واتركني في حالي!

أما المرحلة الثالثة والأخيرة فهي أصعب المراحل وأكثرها تأثيرًا على شخصيتي، وخلقت بداخلي عقدة، كلما حاولت التغلب عليها نجحت في التشعب والانقسام إلى عقد أصغر، تكبر ببطء مع مرور الأيام! تتعلق تلك المرحلة بمرض أبي القذر، الشحاذة! تعاملت معي الحياة بجدية تامة منذ الطفولة، وخطفتني يومًا من وسط لعبي، ووضعتني في عربة إسعاف بجانب أبي، الذي تعب جدًّا وأنا ابن الثامنة، وعرفنا أن حالته الصحية تتطلب تدخلًا جراحيًّا، عملية قلب مفتوح، وإذا خرج حيًّا فلن يقدر على مزاولة مهنته مرة أخرى.

قبل العملية كان سائقًا خاصًّا في إحدى سفارات الدول الأوروبية، مهمته هي توصيل الشخصيات المهمة والضيوف من المطار مثلًا إلى مقر السفارة، أو اصطحابهم في جولات داخل القاهرة.

لطالما حكت أمي عن سخاء الضيوف، من هدايا وأموال، تجعله قادرًا على توفير حياة كريمة، إلا أنه مريض بالحفاظ على القرش، وخلق كل السيناريوهات الكاذبة للاقتراض من الناس. وعلى الرغم من سؤال الآخرين عن أين تذهب كل تلك الأموال، تخرج إجابة واحدة لا يغيرها: «أربع بنات وعيل حالة خاصة! والله المرتب يكفينا لمنتصف الشهر!».

للأسف، كرهنا الأقارب بسبب اقتراضه المتكرر، بأسلوب الشحاذة، والأكاذيب المبالغ فيها، فيتعاطفون معه ويعطونه مبتغاه

مرغمين، حتى مع ثبات جملته المعهودة: «بحق لا إله إلا الله، أنا في جيبي خمسة جنيهات! والمرتب متأخر والعيال محتاجة تاكل!».

في كل جلساتنا العائلية تألق أبي بسرد حكايات عن مأساة حياته وتكرار المصائب، مثل ما جرى لنا ونحن في طريقنا إلى التجمع العائلي من انفجار إطار السيارة فجأة! وطبعًا كي يقنعهم بمسرحيته كان يتعمد تشحيم وتلويث يديه كدليل على صدق كلامه.

طالت حيلة أبي طفولتنا وملابسنا، حيث إنه نبه على أمي بضرورة شراء جودة أقل من المتوسطة لاحتياجاتنا، فلا يكذبنا أحدهم عند رؤيتنا بملابس فاخرة، وكنت أنا دومًا الطفل الأقل حظًّا الذي يرتدي أسوأ الخامات، فقط ليصدق الناس تدهور حالنا، خصوصًا بعد خروج أبي على المعاش المبكر، بسبب عمليته الجراحية التي تكفلت السفارة بمبلغها، وفي أفضل مستشفيات البلد! وفوق كل ذلك الكرم نجح السفير وقتها في إقناع السفارة بتخصيص مبلغ شهري للسائق المجتهد، الذي لم تصدر ضده أي شكوى، فيكافئ أبي كرم الحياة تجاهه بالتظاهر الدائم بانعدام وجود المال وصرفه في أضيق الأحوال!

هنا مربط الفرس، هنا تظهر العقدة الكبيرة التي تجتهد في تنويع أشكالها باجتهاد مدهش، أبي الذي كان باستطاعته إحضار الدنيا كلها، لطالما قال: «لا أملك جنيهًا واحدًا! انتظر حين يفرجها الكريم! أو شوف مع أمك!». شهدت تلك السنوات كيف قتلتني عبارة أبي التي واجهتني عدة مرات: «والله جيبي فاضي! خذ من أمك إذا وجدت

معها!». هذه الجملة خلقت بداخلي كائنًا غاضبًا يسأل نفسه: لماذا لا يملك أبي المال؟ كيف يمكنه بكل تلك البساطة أن يطلب مني البحث عن المال مع مخلوق آخر؟ حتى لو كانت أمي!

حاولت الاقتناع وملازمة الرضا بالمقسوم، لكن تحسن حالة الآخرين المالية عامًا بعد عام هزمني، جعلني إنسانًا حزينًا، يتمنى من الله كل ليلة أن ينزع من أبيه مرض الشحاذة، لكنني كنت أضحك قائلًا: والله؟ إذا كان ربنا خلقك بعيب خلقي ومرض نادر! تعتقد أنه فعلًا سيمسح الشحاذة من دماغه؟ نطع صحيح!

نسيت لفترات طويلة معنى كلمة الطلب، واعتمدت في توفير طلباتي على معرفة أمي بما أريده فعلًا، مع انتظار هدايا القدر، وكنت أهرب من العيديات بسبب نظرات أقاربي الذين يخرجون العيدية كصدقة لعائلتنا الفقيرة التي تجد رغيف العيش ـ وفقًا لروايات أبي ـ بصعوبة.

تدهور حالتنا المادية منذ الصغر صادق نضجي، كبر مع جسدي، شكَّل بدواخلي تمثالًا ضخمًا من الشك والخوف جعلني أفكر في كل ثانية، حتى قبل الزواج، أن أكون إنسانًا مختلفًا عن شخصية أبي المريضة! من وقتها، وبسبب قلة القيمة، نسيت الاستحقاق والرفاهية، واعتنقت الاكتفاء بشراء ما هو ضروري وحتمي، تعلمت مع أي جنيه يزور جيبي أن أحسن استضافته، أبقيه دافئًا في حصالتي، وسوف يجيء وقت صرفه.

مع تطور الاعتماد على النفس، ومرور السنوات، وحصولي على مرتب، سواء مبلغ الوظيفة المؤقتة أيام الجامعة أو مرتب

مسيرتي المهنية، تحولت مع أول جنيه من عرق جبين شخص ناضج إلى شاب يحترف فن التجرد، وموظف لا يدفع مليمًا إلا بعد حسبة برما!

قاطعني كريم لأول مرة منذ جلساتنا، وسألني متعجبًا: «وظيفة مؤقتة أيام الجامعة؟».

ابتسمت ووضحت أنني مذ كنت طالبًا بكلية الآداب عرض أبي عليَّ فكرة العمل، إذ ربما يساعدني الاختلاط بالناس على تجهيزي لسوق العمل الحقيقية، وإكسابي مهارات التعامل. ظاهر طلبه هو مصلحتي، لكن جوهره الحقيقي مساعدته طبعًا في توفير حالة مادية أكثر ثباتًا بمرتبي ومرتب أمي وأخواتي ومعاشه.

قاطعني كريم مجددًا ليسألني: «بالنسبة إلى أخواتك، أنا ملاحظ أن الاتصالات بينكم منعدمة تمامًا، تحب تشرح لي السبب ولَّا الموضوع شخصي؟».

أجبته: «مقاطعهن نهائيًّا، إلى يوم الدين!».

وشرحت له دوافعي.

علَّم أبي أخواتي الشحاذة، وللأسف انتقلت العادة السيئة منهن إلى أزواجهن، وعاشوا جميعًا حياة اعتمادية أساسها أموال الآخرين، مطورين مبدأ أبي في الاستحواذ على أموال الغير، مقسمين العام الكامل للاقتراض شهريًّا من أشخاص بعينهم!

الخطة بكل بساطة هي أن تقترض مثلًا أختي أمانة من خالتنا في شهر يناير، ومن عمتنا في شهر فبراير، وهكذا، حتى يأتي يناير العام المقبل وتبدأ دورة الشحاذة مجددًا، كي يضمنوا وجود مبالغ جانبية

بشكل مستمر، بجانب مرتباتهم ومبالغ الاقتراض الأخرى، فلا يقعوا أبدًا تحت طائلة العوز.

ولأن الشحاذة تعلِّم البخل، والبخل قد يجعل الإنسان عبدًا للقرش، ففي يوم من الأيام السوداء، وأنا في الخامسة والعشرين من عمري، رأيت أبي في شرفة أحد بيوت المنطقة، وكان من الواضح للناس أن هناك حفلًا بالداخل، ولما صعدت اكتشفت وجود أبي وأخواتي كمسؤولين عن التنظيف وتوزيع المشروبات مقابل مائتي جنيه لكل واحد منهم، ومن وقتها وأنا أعاملهم معاملة أمي الله يرحمها.

ابتسم كريم وظهرت إيماءة تخبرني بانتهاء الجلسة، غادرت العيادة بحلاوة البوح وحزن السنوات، اهتز الهاتف الجديد برقم الجمعية الخيرية، وبعد التعريف بخدماتهم وفرت على المتصل عناء الكلام ووضحت طلبي، ليسجله مندوب خدمة العملاء ويخبرني بتفاصيل التسليم، سيكون يوم الأحد، التاسعة مساءً، شارع أمين سامي، المقابل لحديقة دار العلوم، بالقرب من شارع القصر العيني، وأن كل المطلوب مني هو دفع المبلغ خلال منافذ الدفع الفوري وسيصلني كود الدفع حالًا.

بعد المكالمة مر شريط العمر أمامي، وانتبه عقلي إلى تفصيلة وقعت من سطور حكايتي، أنني لما كبرت وجدتني شخصًا ينتظر الجنيه ليطيره، كمحاولة لتعويض ما فاتني من متع! لقد اغتصب أبي طفولتي ونهش عمري بكراهية غير مستحقة تجاهي، وحولني إلى شخص يستند على معاناته الإنسانية، رافضًا الانخراط في محاولات

أبيه لجعله نسخة منه، ولتعليمه أصول الشحاذة والخداع، فعودت نفسي منذ صغري على الابتعاد عن الكذب قدر المستطاع. كنت أكذب لأخرج من المصائب، أو لحصد ما يفيدني وليس للحصول على المال، لأنني ـ وللأسف ـ لم أفضل الأكاذيب يومًا، بل أبي هو من كان كذلك، وأصعب ما يجده الابن في حياته وجود أب يحترف الزيف، والحقيقة الوحيدة التي ينطقها أنه يكرهه!

٥

يزداد الرزق في يومَي الجمعة والسبت، تتناوب طلبات التوصيل، مما يعني الكثير من الاستقرار وتوفير الدعم المادي لحملاتي ضد المجاذيب.

بعد يوم سبت شاق مكتظ بكل المشاوير، هاتفني كريم في تمام العاشرة والنصف مساءً، معتذرًا عن موعد المكالمة، أو ورودها بشكل مفاجئ، وكفتح كلام سألني عن موضوع الظهور في التلفزيون، فبشرته بالفشل المعهود، ثم حدثني بشكل جدي كاشفًا السبب وراء اتصاله: «أنا عندي حل لموضوع ظهورك، لكن أحب أوضح حاجة قبلها، الحقيقة أنا أول مرة أقول لشخص على وظيفة، أنا عارف إن حدودنا هي الجلسة، إنما عندي عرض توظيف فوري في مكتبة، فروعها منتشرة جدًّا، ويا سيدي مدير فرع وسط البلد كلمني مخصوص، تقدر تقول خدمة مقابل خدمة، وإن أي شخص

من طرفي سينضم لهم فورًا، سواء صاحب خبرات أم لا! فقلت إنها فرصة لا تعوض!».

قبل نطقي بالرفض القاطع، لأسباب كثيرة أولها شكلي العجيب، ثانيها كراهيتي للكتب، ثالثها عدم معرفتي بأمور الوظيفة، لحقني كريم بعرض آخر يجبر المستمع على الموافقة الفورية: «اسمع يا صديقي، شرف مهنتنا هو السر، وأنا لا يمكن أحكي لأي شخص عن أسرار جلستنا، لكن بطريقة ما عرفت أحكي لصديق، والصراحة يعني وبالبلدي شخص واصل جدًّا، هو المسؤول عن حوار الوظيفة، وقال إن بمقدوره ـ لو وافقت ـ يطلعك حالًا مع أشهر مذيعي البلد! للأسف، هو أب مكلوم، فقد ابنته من سنوات، لذلك يساعد كل الآباء! فكر على مهل، والمقابلة غدًا العاشرة صباحًا!».

خطفتني فترة النوم الأولى، وبعد فزع الكوابيس والاستيقاظ فكرت كثيرًا بين فترتَي النوم، وناقشت عرض كريم المطروح عن الوظيفة والظهور الإعلامي، وتوصلت للموافقة وخوض التجربة، إذ إنني في اعتمادي على قريبي ربما أظهر في التلفزيون على مشارف السنة المقبلة! ولا يمكنني أبدًا نسيان كيف وصف كريم الرجل المهم صاحب العرض بالأب المكلوم الذي يساعد كل الآباء.

قلت قبل فترة النوم الثانية: ستوجهني إشارات الرب إلى المكتوب بسلاسة ويسر.

لما صحوت استقبلني الصباح ببداية غير مثالية، اليوم هو الأحد، الأسبوع الجديد، وللأسف تم تعطيل تطبيق «مشوارك»، والسبب؟ لم أدفع نصيب الشركة من رحلات الكاش، ورصيدي في رحلات

الفيزا ليس كافيًا لتغطية نسبة الشركة، لتعاقبني «مشوارك» بإيقاف مؤقت لحين سداد مديونيتي عن طريق الدفع الفوري.

في عز انشغالي بالحزن والبحث عن القاتل، وخطط الرب الماشية بسلاسة، جاءت إشارته بتحديد وجهتي، مقابلة التوظيف! حاولت مناورة القدر والتحايل على قضائه، وقدت لمدة ساعة أقول للواقفين: «تاكس؟ تاكس يا أستاذة؟ تاكس يا هانم؟ تاكس تاكس؟»، والحمد لله، ضرب الفشل كل محاولاتي، فتأكدت من رسالة الرب، وتوجهت إلى مكتبات الحدود.

العنوان كما وصفه كريم، شارع الفلكي بباب اللوق، الفرع هو أجدد مواليد سلسلة الفروع، وقد نجح المسؤولون في الحصول على محل هو الأوسع هناك، بعلو سقفه وأبوابه الضخمة.

وصلت في موعدي بالضبط، عرف المدير أنني من طرف كريم، حياني وطلب مرافقته إلى غرفة اجتماعات داخلية لتبدأ المقابلة.

مقابلة التوظيف ثلاثية، أنا وبنت رقيقة ورجل من نفس سني تقريبًا، البنت قعيدة، والرجل ذراعه مبتورة، وفضل المدير أن أخلع النظارة ليتبين عاهتي طبعًا، بعدها جلسنا أمامه فشرح لنا ميكانيكية تدوير الأسئلة، بادئًا في كل مرة من اتجاه مختلف، يسألني ثم الفتاة وبعدنا الرجل، أو يبدأ بالرجل تليه الفتاة وينتهي بي.

أسئلة التوظيف لم تكن اعتيادية، الاختلاف حاضر من السؤال الأول، عندما قال بصوت رصين: «هذا سؤال يعتمد على الذائقة وليس المعرفة أو الذكاء!».

وقتها ابتسمت بسبب جملته الاستباقية التي سمعتها كثيرًا في كل

مقابلات العمل الروتينية، ليصفعنا بإرباك تام، سائلًا بمنتهى الهدوء: «من الذي يستحق جائزة نوبل؟ نجيب محفوظ أم يوسف السباعي أم هناك كاتب آخر؟».

نجيب محفوظ كان حاضرًا في إجابتي، إذ إنني لا أعرف كاتبًا سواه، وزاملتني إجابة الفتاة، أما الرجل الآخر ففضل العقاد.

لم يعلق على شيء، باشرنا بالمصيبة الثانية: «هل تؤمن بدور المحرر؟ أيعقل أن يخرج كتاب إلى النور من دونه؟».

والحمد لله الإجابة كانت واحدة: «لا».

وشكرت الرب على تغير دائرة السؤال في كل مرة، لأنني ـ أقسم بشرف أمي الله يرحمها ـ أجهل من هو المحرر، وما دوره في الكتاب أساسًا.

بنبرة صوت هادئة ومخارج ألفاظ موزونة قال: «فلنفترض أن هناك منظمة ثقافية تريد تعريف الأجيال الجديدة بنجيب محفوظ، ودوره المحوري في الرواية العربية، وأوكلت إلينا تلك المهمة، كيف سنفعلها؟ أريد منكم اقتراحًا واحدًا مكتوبًا، تفضَّلوا الورقة والقلم، لكم ربع ساعة بالضبط! فكروا جيدًا، وأكرر الأمر، اقتراحًا واحدًا فقط!».

تركنا نكتب الاقتراحات، ثم سحب الورق وقرأ ما كتبناه: «الأستاذ مينا سمير يقترح أن نكتب ملخصات لكل أعماله، بطريقة سهلة تجعل الأجيال تتقبل فكرة القراءة لنجيب محفوظ، والأستاذة آلاء تفضل التوجه إلى المحتوى البصري، تريد إنتاج برنامج ثقافي، تتناول كل حلقة عملًا مختلفًا، تفصصه وتحكيه بطريقة ممتعة، أما الأستاذ،

إحم إحم، الأستاذ يتمنى إعادة كتابة أعماله بالفرانكو! فكرة غريبة! وخارج الصندوق فعلًا!».

شكرنا المدير على المقابلة اللطيفة السريعة، ووعدنا بمكالمة في خلال اليوم للشخص الذي سينضم إليهم، وكلفتة طيبة من ذوقه وأخلاقه ناولنا جميعًا كارت خصومات نستطيع استعماله داخل كل سلسلة مكتبات الحدود، ثم اصطحبنا إلى باب الخروج وودعنا جميعًا، وقال لي مبتسمًا: «نجيب بالفرانكو! مدهش!».

غادرت وجسدي يهتز من الخوف، مقتنعًا بأنني الاختيار الأسوأ، منتظرًا مكالمة من كريم يلومني فيها على مدى بشاعة أفكاري وفكري الخائب في تسويق نفسي لكيان يبحث عن موظفين جدد، حتى لو كانوا من دون خبرات سابقة.

تجولت بالسيارة حاسبًا المبلغ المطلوب مني ومدى تأثيره على تعطيل خططي، فقررت دفع نسبة الشركة لإعادة تفعيل التطبيق، والقيادة طوال اليوم بشكل هستيري، بلا راحة، حتى أحصل على وجبات الجمعية لتعويض ما سأدفعه، وإذا ساءت الأمور وتناقصت الموارد المالية فسأسحب من ظرف أموال صيانة السيارة، داعيًا الرب بصلاح حالها إلى أطول فترة ممكنة من دون التعرض لعطل أو خبطة.

في أثناء طريقي إلى إحياء تطبيقي هاتفني كريم، هل يتصل ليوبخني؟ المدير مثلًا كلمه مطالبًا بقتلي؟ استقبلت المكالمة، في البداية تحدث كريم بطريقة رسمية، يكدر صفوها القلق، وسألني: «نجيب بالفرانكو؟ أنت فعلًا اقترحت إعادة كتابة نجيب بالفرانكو؟».

من الواضح أنني عرضته للإحراج، وهو الآن نادم على ثقة غرسها في أرض بور. لاحظ صمتي، وكم الهمهمات التي تسبق توضيحاتي، لينفجر ضاحكًا، ويكمل المكالمة بصوت كله بهجة، شاكرًا دهاء تصرفي، ومبشرًا بأنه تم اختياري لعبقرية فكرتي، وفي خلال ساعات سيزف إليَّ الخبر، ثم سكت قليلًا، وتحدث كما عهدته: «أنا آسف، واضح إن هزاري سخيف، آسف والله، أول وآخر مرة، أعدك! لكن السؤال المهم، نزل الوحي العظيم عليك من أي اتجاه؟ اسمح لي أن أعرف لأنها ملعوبة حقيقي!».

بعد نبالة اعتذاره، وهو لم يكن مطلوبًا، وعودته إلى تصرفات القديسين، كشفت عن خدعتي الكبرى، بشيء من الخجل والمصارحة، وحكيت كيف استوحيت الفكرة من رسائل ياسمين النصية، إذ إنها تكره الكتابة بالعربي وتعشق الفرانكو، فلما طلب الاقتراح في خلال ربع ساعة فتحت هاتفي، كنوع من أنواع تضييع الوقت، وكنت أصلًا مقررًا كتابة أي هباء يخطر على بالي، حتى لمحت رسالتها الأخيرة وحدث ما حدث، فكتبت الفكرة تكريمًا لسيرة زوجتي المختفية، والحقيقة غمرني يقين بتلقي مكالمة أو رسالة من إدارة المكتبات تشكرني على محاولتي القذرة، متمنية لمواهبي دوام التوفيق والدفن.

صوت صفيره مع كلمة «يا سيدي!» أزاحا عن قلبي هم الاعتراف، وأوصتني لهفتي على الإمساك بفضيلة الإسهاب في سرد وقائع المقابلة لشخص لطيف مثله.

استرسلت في الكلام كأنني أحكي لصديق مقرب عن غرابة يومي:

«والله يا كريم بالضبط! يسألني عن نوبل والمحرر الأدبي وأفكار، وأنا تقريبًا آخر حدود علمي هو نجيب محفوظ ككاتب! وسؤال المحرر نزل على دماغي، أنا أصلًا اعتقدت أن الأسئلة ستكون من نوعية: ماذا تقرأ؟ وآخر كتاب قرأته؟ لكن ربنا رحيم، عارف إني مستسلم لأمره، رميت توكلي عليه، وانتهت على خير الحمد لله، أنا أصلًا لما سمعت فكرة البنت قلت في سري: مبروك يا آلاء!».

بارك حظي وكرر أسفه، وقرر مجانية الجلسة المقبلة كمكافأة تحفيزية ونقوط توظيفي كما قال، وأوضح أنني سأستقبل مكالمتين، الأولى من المكتبة لتحديد موعد التدريب، والأخرى من سكرتير الرجل المسؤول في خلال الأسبوع للانتهاء من إجراءات ظهوري مع إعلامي مشهور بقناة كبيرة ومعروفة.

ثم قبل انتهاء المكالمة أخبرني بنبل الرجال: «أنا طبيبك النفسي، لكن أقسم بشرفي إني لا يمكن أشوف الناس العزيزة على قلبي في محنة أو كرب وأتخلى عن دوري كإنسان! أتمنى لك التوفيق من كل قلبي!».

شكرته بدموع أب حزين، وزوج مقهور، ودعوت له كثيرًا، حتى أنهى المكالمة.

بعد أقل من خمس دقائق هاتفتني موظفة تعمل بمكتبات الحدود، تبارك لي على قبولي وتطلب مني الحضور في أول الشهر، وقالت إنها ستهاتفني مجددًا قبل نهاية شهر أكتوبر لإخباري بجميع التفاصيل، وانتهت المكالمة.

بكيت من جمال المفاجأة، ناجيت الرب ووقفت بالسيارة جانبًا،

لأنزل منها وأسجد في منتصف الشارع فرحًا بكرم السماء، أبكي بحرقة، أخاطب الرب بصوت يستعطفه: «شكرًا، شكرًا، أنا عاجز عن الشكر، حق أيهم وياسمين يا رب، حسبي الله ونعم الوكيل، أنا عبدك الضعيف المظلوم وأنت نصرتني، ألف حمد وشكر لك يا رب!».

رجعت إلى سيارتي، أقود حائرًا تحت تأثير مزيج غريب من الحزن والفرحة. وعلى الرغم من كل أحزان قلبي، أفكر بسعادة في مكالمة كريم، أقول إن فرصتَي الظهور الإعلامي والوظيفة ربما تتيحان لي بداية جديدة، تساعدني على الاستقرار المادي، وتوفير حياة كريمة لياسمين إذا رجعت إليَّ ثانية، وأنا واثق من رجوعها.

بداية جديدة قد تفرض بوادر استقرار نفسي يجعلني أقف أمام ياسمين، ككيان ذكوري محترم، لديه وظيفة مرموقة، بمرتب وحوافز وترقيات، فلا أرى في عينيها الشفقة على كفاح رجلها المسكين الذي يطفح التراب يوميًّا، ولا ألمح التعجب فوق وجوه الحاقدين الذين وصفوا زواجي بها بزواج الملكة من حارس الحظيرة.

٦

في التاسعة مساءً، بعد يوم حافل بنجاحات نادرة، تسلمت ثلاثين وجبة جاهزة، كما وعدتني الجمعية، أمام حديقة دار العلوم، بشارع أمين سامي، منطقة المنيرة.

شكرني المندوب على الخير، ومن نظراته فهمت أن الفضول

HTTPS://TWITTER.COM/... 2025

يقتله، ويريد سؤالي عن سبب ارتداء نظارة شمسية الآن، ثم لمعت عيناه لما لمح بقشيش التوصيلة، في البداية تظاهر بالرفض لكنه رضخ للعوز وخطف الخمسين جنيهًا، داعيًا لي بصلاح الحال وعمار البيت، بعدها طلب التوقيع على إيصال الاستلام فمضيت بجملة «فاعل خير».

جاء بواب العمارة التي ركنت سيارتي أمامها، مع زوجته وعياله، يسألونني عن إمكانية تقديم المساعدة، فأخرجت لهم عبوات الأكل وطالبتهم بضرورة تركي، لأنها وصية ويجب تقسيم الأكل على مساكين السيدة زينب، ورغبة المرحوم هي ألا يرى شخص ما في علبة الآخر، ليختفي البواب ساحبًا زوجته من كُم جلبابها وعياله من قفاهم.

فتحت كل علبة لأتأكد من الوجبة، أرز وقطعتا لحم مع طبق حساء صغير، ثم فتحت شنطة السم لأول مرة، وتذكرت نصيحة الطبيب بقراءة التعليمات، ليفاجئني المكتوب، كم تحذيرات يؤكد لك صدق تحريمه دوليًا، لذلك وضع الطبيب مع العبوات قفازات طبية ومجموعة كمامات متعددة الطبقات، وبتلك الإجراءات أضمن عدم استنشاقي أو لمسي للمحتوى القاتل!

وقوفي في منتصف الشارع بكمامة وقفازات وعبوات طعام، سيجعل الكل يفهم مخططي ويكتشف أمري بسهولة، فرحلت بالوجبات، بعد شراء علبتَي مناديل مبللة من كشك قريب، وقُدت سيارتي إلى أسفل البيت منتظرًا الليل ونوم الجميع.

مع اقتراب موعد نومي الأول تصفحت الهاتف، وفتحت حساب

HTTPS://T.ME/RWAYAT2025

زوجتي الشخصي على موقع التواصل، أمر على المنشور قبل الأخير، للمرة المائة، البث المباشر الذي تتحدث فيه عن العنف الأسري وضرب الزوجات، وأبتسم لجمالها ورقة صوتها، وتوابع متلازمة توريت التي تظهر بين الحين والآخر، حتى غفوت.

في الحلم رأيت أيهم، يلاعبني هو وأمه، ويطلب مني فتح عبوات الأكل، فتأكدت من ابتعاد السم عن علبته، وشاهدته يأكل ويرمي الأرز، وزوجتي تصرخ، ليضحك على صراخها، ويغمس ذراعه المبتورة في طبقه ثم يضعها في فمي، فأتذوق طعم الأكل بحلاوة لم أعهدها من قبل، لأقوم مفزوعًا بعد رؤية رأس أيهم وهو ينفجر.

الشارع يغوص في صمت تام، وسنحت الفرصة لبدء خطتي، طبقت التعليمات بحذافيرها، وتأكدت من بُعد المسافة بيني وبين السم، لأنتهي بعد نصف ساعة بالضبط من تحضير عشرين وجبة مسمومة، ومسح كل العبوات بالمناديل المبللة لضمان اختفاء بصماتي، وترك البقية لي وللعم بدر.

الساعة الثانية والنصف صباحًا، موعد مناسب تمامًا للقتل.

ناديت عم بدر، خرج من غرفته متذمرًا لاعنًا اليوم الذي عمل فيه بوابًا، حتى رأى عبوات الأكل في يدي، فضحك واعتدل مزاجه قائلًا: «خيرك على الكل يا بيه!».

طلبت منه الصعود إلى الشقة لإحضار عربة أيهم فقط، فركض كفرس سباق، وفي لمح البصر كانت العربة أمامي، اعتذرت عن طلبي السخيف والموعد الأسخف، فلم يسمعني أساسًا، وركض إلى غرفته مبشرًا عائلته بوجبة دسمة.

رسمت خطتي الكاملة، سأستقل سيارة أجرة بالعبوات وعربة أيهم، وسأدفع مبلغًا محترمًا للسائق نظير موافقته على نقل كل الأشياء معي، وتوصيلي بالقرب من مستشفى ٥٧٣٥٧، ولو سألني عن سبب ارتداء النظارة، حساسية العين طبعًا هي الإجابة الحاضرة، وسبب الزيارة المتأخرة هو توصيل الوجبات لأهالي الأطفال المرضى، وبعد نزولي من السيارة سأضع العبوات داخل عربة أيهم، وكأي مواطن مصري يمشي ليلًا سأتجه إلى السيدة، مشيًا من مقر المستشفى، معتمدًا على بُعد المسافة بينهما، فلا يكون السائق شاهدًا عليَّ إذا تدخلت الحكومة وبدأت تحقيقاتها في قتل الأنجاس.

نفذت قراراتي، سيارة الأجرة، النزول عند ٥٧٣٥٧، ثم التمشية، من جهة المذبح بعيدًا عن الكمائن الليلية، حتى أصل إلى المقام، مع لبس النظارة السوداء، وقبعة رياضية بالمقلوب، مرتديًا قميصًا فوق قميصي، ساعدني على ذلك مناخ شهر أكتوبر بجوه الخريفي، مما يبعد عني أي شبهة أو تساؤل بخصوص القميصين.

وصلت بعد ثلث ساعة إلى محيط مسجد السيدة، أراقب الأعداد القليلة الموجودة، لأجد تقريبًا معظم المجاذيب نائمين فوق الرصيف الملاصق لمقام السيدة، ارتديت قفازًا طبيًّا كي أضمن عدم وجود بصماتي على العبوات، ووضعت الوجبات أمام النائم، وناولتها للمستيقظ قائلًا: «دعواتكم يا أهل الله، دعواتكم بالرحمة والمغفرة!». أوزع الطُّعم بينهم، والاعتماد كله على القدر في موعد تناولهم الطعام، مع امتلاء روحي بيقين كامل أن أولاد الكلب بمجرد رؤية أو شم الأكل سيغتصبون الوجبة فورًا.

انتهت الوجبات سريعًا، مع الدعوات والشكر، لأرحل بخطوات ثابتة وهدوء محسوب، مناديًا على سيارة أجرة، محددًا وجهتي في محيط وسط البلد، تحديدًا أمام ممر مقهى ريش، وقبل النزول طلبت من السائق معروفًا كبيرًا، ألا وهو توصيل عربة أيهم ـ بعد مسحها سابقًا من كل البصمات بالمناديل المبللة ـ إلى عنوان عشوائي، اخترته من على الإنترنت لعمارة بها شركة شحن، وسأعطيه مائة جنيه مقابل جدعنته معي، مؤكدًا عليه أنه بمجرد وصوله إلى هناك سيتصل بي وأنا سأرسل من يأخذ العربة.

لما لمح الفلوس وافق على طلبي واطمأن قلبه، وبعدما أخذ رقم هاتفي الرخيص، وتأكد من أنه رقمي بمهاتفتي كتجربة، أوصلني إلى ممر مقهى ريش، لأغادر وأستغل العتمة هناك، وأخلع القبعة والنظارة والقميص الكحلي، وأضعها جميعًا داخل كيس أسمر في المسافة الفاصلة بين أول الممر ونهايته، فأخرج من الجهة المقابلة كشخص آخر يرتدي قميصًا أصفر، بلا قبعة أو نظارة، وأنتظر أي سيارة أجرة لتعيدني إلى أسفل البناية.

لما رجعت ودخلت سيارتي ضحكت من قلبي، قلت: «مع السلامة يا أنجاس!». نفذت خطتي. وفي المسافة الفاصلة بين فترتَي نومي، ولأول مرة منذ موت أيهم واختفاء ياسمين، أنام برضا أب عرف كيف ينتقم ـ ولو بشكل مؤقت ـ لموت ابنه. رددت كثيرًا: «المواقع كلها أكيد ستكتب عن المذبحة! مذبحة السيدة زينب! أتمنى يا أيهم أن تضحك من قلبك وتنام مرتاح البال يا ابني، كل واحد منهم سيدفع الثمن! أنا ظهري انقصم نصفين بعد موتك، لكن أقسم لك بالله،

لبقية عمري، سأقتلهم واحدًا واحدًا، انتقامًا لروحك الطاهرة يا ابن الطاهرة!». وقبض النوم على روحي.

في الثامنة صباحًا انتفضت من كنبة السيارة، ووقفت في منتصف الشارع، كأنني فتوة ينتظر فرج ربه، رميت الصباح على عم بدر، وبعد الاستئذان دخلت حمَّامه، راحة المثانة واجبة، نظافة الوجه حاضرة، خرجت شخصًا مقبلًا على مشاوير الرزق، والتخطيط لقتل مزيد من المجاذيب، مشحونًا بوظيفة جديدة وظهور إعلامي.

تغير البرنامج اليومي، من الأكل والعمل ومراقبة الميدان، إلى الأكل والعمل والسعي خلف أعدائي. أصبح شعار حياتي: أيام تفوت والمجاذيب تموت.

أكرمني الرب بالدفع كاش في كل توصيلات اليوم، كأنه يكافئني على حسن تعاملي مع نتانة المجاذيب وتخليص المجتمع منهم، إلا أن أمرًا واحدًا يقلقني، متى تكتب الصحافة عن مذبحة المجاذيب؟ لم أترك الهاتف طوال اليوم، شغلت تركيزي بين الطريق والركاب وصفحات الأخبار، يا رب! ابعث صحفيًّا أو أي شخص للتحقق من الموضوع!

في العاشرة والنصف مساءً، وبعد دوام كامل من دون اللجوء إلى الراحة، وتوصيلات تتقافز بين السلاسة والسخافة، رجعت إلى أسفل البناية، استعدادًا لفترة النوم الأولى. تصفحت مواقع التواصل الاجتماعي، وقفز قلبي فرحًا لما ظهر منشور، أعاد مشاركته العديد من أصدقائي نقلًا عن إحدى صفحات الجرائد الإلكترونية، تحت عنوان: «تسميم المجاذيب، هل هكذا يهدف الإخوان إلى زعزعة استقرار الحكومة؟».

قرأت المكتوب كلمة كلمة، وصرخت بعلو صوتي: «الله

يا سيدي! نجم والله!»، حين كشف عن عدد الضحايا، عشرون قتيلًا، والبقية في حالة خطرة، بعد تعامل الإسعاف مع الحالات، وتوضيح السبب خلف الحادثة: «سم الكلاب الأخطر على الإطلاق يقتل مجاذيب السيدة!». وانهالت التعليقات ما بين مؤيد ومعارض، من يشتم الحكومة ومن يسب الإخوان! كيف أقولها يا رب؟ تساعدني على قتلهم، تيسر كل الطرق، ثم تنجح الخطة، وبدلًا من تتبع خطوات القاتل، ألصقت الصحافة التهمة بالإخوان!

إذن، حملة إبادة المجاذيب أصبحت حركة من حركات الإخوان لهدم نجاح الحكومة في الحفاظ على رفعة بلدنا! وحياة غلاوتك يا رب، لم يفكر عقلي في المسألة بتلك الطريقة نهائيًّا، لكنك الرب! ومن غيرك يتقن ألعاب القدر!

٧

رحل أيهم واختفت ياسمين في أغسطس والصيف، ومع بداية نوفمبر هاجمتنا الأمطار كعلامة حزن فارقة في صباحات العالم! ثلاثة أشهر من السعي وراء حق ابني، والتخطيط لقتل مزيد من المجاذيب، مع تأجيل سرعة تنفيذ الخطط، اتقاءً للشبهات والقبض عليَّ! ثلاثة أشهر من البحث عن زوجتي في مختلف الأماكن، ومهاتفة النقيب الذي يكرر الرد: «إن شاء الله خير! لا تشغل بالك، ومع أول خيط أنا سأكلمك بنفسي والله العظيم!».

حتى الظهور الإعلامي تأخر كالعادة، وفي كل جلسة من جلساتنا سألت كريم عن السبب، والإجابة لا تتغير: «الزمخشري طالع بنفسه معك، الحلقة معمولة عنه، الإعلامي المشهور سيستضيفه، وفي النهاية لك فقرة معتبرة تقدر تقول كل حاجة! الصبر يا صديقي! والله العظيم مسألة وقت!».

الوقت الآن التاسعة صباحًا، اليوم الأول لي في الوظيفة، سلمني النوم إلى الصحو، بنفس شبه راضية عن تسهيل الرب لكل خطوات قتل المجاذيب، وعن وجود بداية جديدة في مكان عمل قد يُدخل حالتي المادية طور الثبات، فأستعد لخطط الإبادة المقبلة، ضامنًا التمويل الخاص، وباحثًا عن عشش أخرى، أصيبها بالتلف أو الأذى، مثلما فعلت في مذبحة السيدة.

قبل تحركي ناديت عم بدر، وطلبت منه الصعود إلى شقتي، وإحضار السترات والكنزات الموجودة في دولابي، لأن المناخ البارد لا يتحمل الملابس الخريفية.

وصلت إلى موقع المكتبة في باب اللوق، قبل موعد فتحها للجمهور بنصف ساعة، لكنني وجدت الباب الضخم يُرفع آليًّا، مسافة أقل من المعتاد، وشخصًا يشير إليَّ من أسفل حد الباب بالدخول، سمح الفرق بعبوري مع مساعدة من خفض القامة، لأتخطى الباب وأنتقل إلى عالم ملامحه مختلفة، تحتله رائحة الكتب، وظهور بسيط لمعطر ينتظر دوره مع كل رشة آلية من جهاز كهربائي تخصصه التعطير.

لم أجد أي شخص، إلا المدير صاحب مقابلة العمل، مبتسمًا

HTTPS://T.ME/WAT2025

وواقفًا بثقة، يتأمل منظري، ثم قال: «أهلًا بك في سلسلة مكتبات الحدود، نتاج التعاون والاستثمار بين مصر ودول شقيقة، بمعنى آخر شراكة حقيقية تقدر قيمة المال والثقافة، مشروعنا الأول أديب الأمة نجيب محفوظ، وبعده بيع الكتب. أكيد كريم قال لك إننا ندفع مرتبات خيالية، تحسدنا عليها بقية المكتبات، بجانب النظام والتأمينات والمعاملة الآدمية، بسبب اللجنة المسؤولة ومعرفتها التامة بقيمة الكتاب، وبائعي الكتب!».

وافقت على كلامه، مع أن كريم لم يخبرني شيئًا! طلب المدير مرافقته إلى الدور الأعلى المخصص للتخزين ولكل أمور الموظفين، وأكمل كلامه كنوع من كسر الرهبة بين متدرب ومدير: «طبعًا أنت عارف أننا في بلد لا يهتم بالثقافة أساسًا، الكتب بالنسبة إليه هي كتب الدراسة، غير ذلك صناعة النشر بالمكتبات بالكُتَّاب بالمثقفين بكل الهيصة العجيبة، ورقة قديمة في دفتر حكومتك، لكن سلسلة مكتبات الحدود، من أول يوم لها، وهدفها الأساسي أنها تغير نظرة العالم العربي للكتب والثقافة!».

يتحدث بجدية عن المكتبة بينما أتأمل رقي الفرع. فرع المكتبة شاسع وضخم، يظهر من معالمه المبالغ المصروفة على تأسيس مكتبة بأناقة احترافية، شعرت بأنني داخل مول تسوق مثل سيتي ستارز، صور أدباء ضخمة، يتصدرهم نجيب محفوظ، الوحيد الذي عرفته والله، ومساحة شاسعة في المنتصف تكفي لاحتضان مظاهرة، وسكون مهيب يليق بمكان كلاسيكي فاتن. اللون الغالب على المكان هو الأبيض المائل إلى الرمادي، وتحتل الكتب

الأرفف، يمينًا ويسارًا، مع وضعها في مربعات ضخمة، باللون الرمادي الغامق، وسلالم عالقة لو أراد بائع الصعود وإحضار كتاب، مع وجود مقاعد وركنيات لاستقبال العملاء والقرَّاء عاشقي الاطلاع، ولوحات فنية، ومناضد وماكينات صناعة القهوة، والأرضية تقريبًا من السيراميك الفاخر باللون الأسود المصحوب بتعريشات وخطوط كالعروق الذهبية.

لاحظ المدير مدى تركيزي مع الأرضية، فتنحنح قائلًا: «طبعًا أنت فاكر إنه سيراميك، الحقيقة لا، الأرض معمولة من مادة الإيبوكسي، أفخر نوع إنجليزي، من شركة الشريك الأكبر في سلسلة المكتبات، والصراحة الرجل دفع ما يفوق خيالي وخيالك للتأكد من كل تفصيلة تخص الأرضيات لأنه مهووس بالديكور الكلاسيكي، لكن الفرع هنا على الرغم من الجمال والحلاوة، فإنه أقل الفروع في الأناقة المبهرة، وإن شاء الله تشوف الرفاهية على حق لما تحصل الزيارة السنوية لأكثر فروعنا استثنائية بالتجمع الخامس، كل الموظفين هنا حلمهم اليومي زيارة فرع التجمع!».

أمشي خلفه، يحدثني عن أشياء خيالية، عجز عقلي عن ترجمة كلامه إلى صور، فهي المرة الأولى التي أواجه كم فخامة قادرًا على إحياء قرى بحالها إذا مثلًا تبرع صاحب السلسلة بربع ثمن الإيبوكسي الفاخر.

صعدنا درجات من رخام، سطحها المعروف بـ«النائمة» عبارة عن تمازج عجيب بين اللون الرمادي والأسود المطعم بالذهبي، والمسافة بين السلمتين النائمتين، المسماة بـ«القائمة»، لونها أسود

خام، تظهر منه نقاط رمادية لامعة، رفاهية يجبرك ملمسها وترفها على اختيار وقع خطواتك خوفًا من خدشها، داعيًا الرب بينك وبين نفسك باليوم الذي يقرر صاحب المكتبات دفع المرتبات بالسلالم الرخام.

بسبب المستوى الاستثنائي الذي يعكس مدى جدية المكتبة في تعيين موظفيها، قررت مع أول فرصة أستطيع فيها تجميع كلماتي واختيار التعبيرات الأفضل، مصارحة المدير بكرهي للكتب، وكيف لعب الحظ معي حين قدمت فكرة نجيب بالفرانكو، معتذرًا عن تضييع وقت مؤسسة، مثل مكتبات الحدود، مرشحًا البنت التي اقترحت فكرة المحتوى البصري بدلًا من شخص معتوه مثلي يكره الكتب ولا يعرف قيمتها.

دخلنا غرفة أشبه بغرف تبديل الملابس في الأندية الرياضية، مقاعد طويلة ملتصقة، ودولاب حديد، يبرق طبعًا لأنه جديد، مع وجود مرآة ملصقة فوق سطحه، وحاملة أحذية تتسع لأكثر من مائة حذاء مثلًا، ممتلئة عن آخرها بمقاسات مختلفة لنفس الحذاء الجلدي، سألني المدير عن مقاس قدمي، ولا أعرف أين الفرحة حين عرف الرقم: «٤٣؟ نفس عمري، شوف المصادفة! الدنيا جميلة وصغيرة!».

بعد سحب حذاء يناسبني، قلت بسرعة: «العفو يا مدير، الله يحفظك، والله واضح إن حضرتك قمة في الأخلاق والذوق، لكن أنا أحب أقول حاجة، وأتمنى حضرتك تفهم كلامي وتقدر الاعتراف...».

قاطعني مشيرًا إلى دولاب في منتصف الغرفة، مفتوح، يعرض

HTTPS://T.ME/RIWAYA2025

كنزات رمادية خريفية، قمصانًا سوداء، بجانبها بناطيل رمادية، أمرني باختيار مقاسي منها، ووجدت الحزام الجلدي بيده، مع شراب قطن طبيعي أبيض، ثم نظر إلى ساعته قائلًا: «تلبس في أقل من عشر دقائق وتنزل تحت، أول يوم يعني الالتزام! قبل ما أنزل، النظارة السوداء يا أستاذ، انسَها!».

تركني بمفردي وسط غرفة ظننتها تخص صالة رياضية، لكنها تصلح كمخزن محل بدل. لبست وصرت مستعدًّا، منظري اختلف تمامًا، لم يفسده سوى شكل وجهي الغريب، الذي أحفظ عن ظهر قلب تحوله في أقرب وقت إلى سبب رفدي من المكان بسبب ملامحه، والصراحة لن ألوم أحدًا إن حدث، فما ذنب القارئ الباحث عن المتعة والجمال في مقابلة مسخ يعكر صفو زيارته إلى مكانه المفضل؟

العاشرة صباحًا، ركضت إلى الدور الأرضي، فُتحت أبواب المكتبة آليًّا، وبمنتهى الفخر وقفت في المنتصف منتظرًا من سيدربني، أو المدير ليكمل تعليمات اليوم والتوظيف، إلا أنني ظللت واقفًا في وسط الكتب والمكتبة، في خضم اللاشيء، من دون وجود لأي حركة، من المدير أو الموظفين، ودعوت الله في كل ثانية ألا يدخل عميل، لأنها ستكون فضيحة بطلها موظف، سيقول للزبون: «والله اليوم هو الأول لي، ومحسوبك حمار، لا يعرف كيف وصل إلى هنا أساسًا!».

تجاهلت الصمت الغريب، فتحت هاتفي، كتبت منشورًا جديدًا عن زوجتي، وأنا أعلم أنه سيتعرض لحملات إبلاغ، على الرغم من

ذلك أكملت ونشرته، متنقلًا بين المجموعات والصفحات، وتقريبًا الناس أصابها الزهق لكثرة المنشور المعاد عن زوجتي، فترك لي أحدهم تعليقًا حاز إعجاب الكثيرين: «يا عم! أنا كل يوم أشوف نفس الكلام! استعوض ربنا وتزوج غيرها!». تخطيت التعليق، ليصدمني تعليق آخر بحقيقة كانت غائبة عني: «باشا! وهو أنت متخيل إنك لو اعتمدت على الإعلام المصري، ستظهر على التلفزيون؟ أنت تقدر تطلع لايف! ولو المقطع اتشهر أبصم لك بالعشرة في نفس اليوم تلفونك سيرن بمكالمة لتحديد موعد التصوير!».

من اللاشيء سمعت صوت أنثى، في منتهى الرقة تقول: «حرام يا جماعة! كفاية!»، ليخرج كل الموظفين، محتفلين بقدوم الموظف الجديد، الواقف وسطهم جميعًا بتعابير وجه في منتهى الغباء تقول: «والله العظيم كنت سأهرب!».

٨

بعد حفل الاستقبال اقترب مني مدير الفرع، الأستاذ محمود حساني، شبيه الفنان أحمد خليل، مع فارق أنه صاحب طول فارع، وجسد رياضي جاهل بعوامل العمر والزمن، وقدمني إلى موظفة ملامحها تجمع بين المصرية والآسيوية، قصيرة، جسد مضبوط، شعر أسود حالك أنعم من الحرير، قصير كعادة تسريحات أهل آسيا، يغطي جبهتها، ووجه منحوت وشفاه منمنمة، تلتزم بالزي الرسمي، لتكون

هي بوصلتي التي ستوجهني تجاه المعرفة، حتى أصبح موظفًا مثاليًّا، حسبما وصف المدير موظفته ومدى كفاءة خبراتها.

مع أول حركة لاحظت عرجًا في يسارها تجتهد لتخفيه، لكنه واضح للناظر بتركيز.

بعد التعارف البسيط، واسمي واسمها، ووظيفتها وسنوات الخبرة، شرحت بثينة: «سلسلة مكتبات الحدود هي المعنى الكامل لمؤسسة ثقافية محترفة، المكان متخصص في كل شيء له علاقة بالثقافة والكتب، بيع وشراء، ندوات، اشتراك في معارض دولية ومحلية، وقريبًا سنعلن عن مرحلة النشر، كتب مصرية وعربية ومترجمة، كلاسيكيات وأدب معاصر، تقدر تقول بمنتهى الثقة القارئ لو حلم بلبن العصفور دورنا نوفره بلا أي تعجيز أو مشكلة! بالنسبة إلى وظيفتي هنا، فأنا أقدم موظفة في قسم المشتريات، أكره مسمى مديرة القسم لكنه الواقع، والقسم دوره بمنتهى البساطة هو استقبال طلبات العملاء الباحثين عن بيع كتب أو مكتبات كاملة، وفي حالة المكتبات الكاملة نلزم طالب الخدمة بتحديد السبب، هل مثلًا مكتبة شخص تُوفي؟ أو قرر الاستغناء عن المكتبة لأنه سينتقل من بيت إلى بيت؟ وهكذا. دوري في كل طلبية بيع كتب؛ الفلترة، كأن الكتب تمر من ماسح أمني، والسبب طبعًا البحث عن قائمة كتب موجودة مع كل موظفي قسم المشتريات، فلو ذهبنا إلى عنوان طالب الخدمة ووجدنا كتابًا واحدًا من القائمة نشتري منه المكتبة كلها بالسعر الذي نتفق عليه، وبعدها نجمع الكتب في صناديق، ونرسلها إلى مخازن المكتبة، وفي خلال أيام نستقبل فقط الكتب المهمة التي كانت في

الصناديق المرسلة، وهي الموجودة في القائمة طبعًا، وبقية الكتب لا تهمنا ولا نسأل عنها!».

ناولتني بثينة ورقة سوداء، مصنوعة من الكرتون الفاخر، مكتوبًا على وجهها وظهرها بحبر ذهبي أسماء كتب مهيبة، أسمع عنها للمرة الأولى في حياتي: «أعمال نجيب محفوظ، أعمال طه حسين، أعمال توفيق الحكيم، أعمال يحيى حقي، مجلدات ألف ليلة وليلة، أعمال شكسبير، مجموعة أعمال روائيي روسيا العظام تولستوي ودوستويفسكي، تشيكوف وشولوخوف، أعمال توماس مان، أعمال بروست، أعمال رايدر هاجارد (خصوصًا رواية «هي أو عائشة»)، أعمال جون دوس باسوس، أعمال جوزيف كونراد، أعمال طاغور، أعمال هوك كين، سلسلة الأعمال التاريخية لجرجي زيدان، أعمال صمويل بيكيت المسرحية (خصوصًا «في انتظار جودو» و«نهاية اللعبة»)، أعمال مارجريت دوراس، «المحاكمة والمسخ» لكافكا، «حيطان عالية» لإدوار الخراط!».

قلبت الورقة لأكمل قراءة القائمة العجيبة: «أعمال جيمس جويس، أعمال آرثر ميلر (خصوصًا مسرحية «وفاة بائع متجول»)، أعمال أوجين يونسكو، أعمال يوجين أونيل، أعمال أوغست ستروندبرغ، أعمال هيرمان ميلفيل، أعمال سارتر، أعمال ألبير كامو، أعمال غي دو موبسان، أعمال هنريك إبسن، أعمال محمد عبد الحليم عبد الله، أعمال عبد الرحمن الشرقاوي، سلسلة «روكامبول» للكاتب الفرنسي بونسون دو ترايل، سلسلة «بن جونسون» البوليسية ترجمة حافظ رجب، رواية «ملحمة أسرة فورسايت» للكاتب جون جالزورذي!».

ثم كُتب في نهاية القائمة، بخط غليظ وبين قوسين: ديوان حافظ الشيرازي في الشعر الصوفي.

أخبرتني بثينة أن القائمة دائمة التحديث، وعلى موظفي قسم المشتريات حفظ قائمتهم، والتأكد من فحص كل مكتبة معروضة للبيع، قبل إقرار الموافقة أو الرفض بخصوص طلب بيع المكتبة المقدم من العملاء. ولما لمحت الاندهاش قاعدًا فوق وجهي، ابتسمت لتطمئنني: «لا تقلق، أنت في فترة تدريب، كل متدرب له ثلاثة أشهر، وأنت ومهارتك! دورك في التدريب هو مساعدتي في كل طلبية أنا المسؤولة عن فحص مكتبتها، وأنت تراقبني، وتساعدني في رفع وكرتنة الكتب، واحدة واحدة، إن شاء الله، القائمة ستدخل دماغك، والموضوع يبقى أسهل بكثير!».

بدأ الخوف يبتعد عني، وعرفت الطمأنينة كيف تروض قلقي، إذ إنني في البداية، ودون النظر إلى أي خبرات سابقة، لن أكون بائع كتب بل جامع كتب، ومع اكتساب الخبرات إذا نجحت في وظيفتي يمكنني ملء استمارة لتحويلي من قسم المشتريات والالتحاق بقسم البيع.

جاء المدير ليطمئن على تدريبي، وليوافق على خروج بثينة إلى طلبين، واحد بمنطقة الغورية، والآخر بميدان سفير، مصر الجديدة، مقترحًا البدء بالغورية، لأن منطقة أثرية كتلك لا مفر من وجود درر الأدب والكنوز النادرة لدى سكانها، فوافقت بثينة على اقتراحه وطالبتني بالاستعداد لأولى جولاتي كجامع كتب تحت التدريب.

لم أفضل وضع نفسيتي تحت الاختبار، فأنا مصاب برهاب

المنازل، ولن أخاطر بأول أيام تدريبي في مكان قد ينقلني إلى عوالم أولاد الناس، فاعترفت لبثينة بمرضي الغريب، الناتج عن مأساة حياتية لا يحتملها بشر، لكنني شرحت بمنتهى الأمانة ثبات عزيمتي وقدرتي على الوقوف أمام باب الشقة من دون الدخول، وهو يعني ضمان مساعدتي في نقل الكتب، وانتظرت قرارها، إما الموافقة والاعتماد عليَّ وإما الرفض وتحويلي إلى قسم آخر.

وافقت بثينة على اصطحابي اليوم، كما هو مقرر، وعند الرجوع سنتحدث مع الأستاذ حساني لنرى إلى ماذا سيؤول الأمر، فركضت إلى الدور الأعلى تجاه الدولاب المختبئة بداخله نظارتي، ولما نزلت التقيت بثينة وهي تتأمل يميني القابضة على حمايتي الخاصة من أعين الناس، فلم تعلق واكتفت بهز رأسها، مشيرة إلى باب الفرع، لنجد بالخارج سيارة فان موديل فيات دوكاتو، بالألوان المميزة طبعًا لسلسلة مكتبات الحدود، الأسود والرمادي والخطوط الذهبية، كتب عليها من الجانب: «سلسلة مكتبات الحدود.. الثقافة بلا حدود!»، مع وجود الخط الساخن وفروعنا وخدماتنا. ركبنا بالخلف، بصحبة موظف آخر اسمه نديم، وهو من سيدخل المنزل بدلًا مني.

نديم، من مظهره الخارجي، عبارة عن كتلة سذاجة متحركة، رفيع وطويل، ونسخة متطابقة الشكل مع الممثل المصري محمد سلام، والمعروف لدى الجمهور بشخصية هجرس، أو هدرس، كدت أضحك على مدى نحافته، ووسع الكنزة بالنسبة إلى جسده الضئيل.

انطلق السائق من دون سؤالنا عن الوجهة، وعرفت من بثينة أن

كل العربات مزودة بنظام ملاحي خاص، يتم وضع ترتيب المشاوير اليومية بالعنوان والتوقيت والطرق الأفضل الخالية من الزحام للوصول في أسرع وقت، فلا يلجأ الموظفون إلى أحاديث جدالية سخيفة عن تفضيل طرق معينة أو شرح المكان المقصود واستنزاف المجهود، فالأصح هو ركوب الموظفين، وهدف تركيزهم الوحيد الوصول إلى صفقة رابحة وكتب رائعة.

الجملة الوحيدة التي نطقها سائق العربة كانت تغيير الموعدَين، سنبدأ بميدان سفير ثم الغورية، عارضًا على الشاشة المثبتة خلف مقعده التعليمات الجديدة، فلم تعلق بثينة، وتحركنا إلى الأستاذ جلال عمران، بشارع عثمان بن عفان.

كان الرجل في انتظارنا، شقة فخمة بالدور الثالث، يمكنك اكتشاف تفاصيلها كاملة من عتبة الباب؛ ديكور كلاسيكي راقٍ، تحف نادرة في كل مكان، رائحة الخشب المعتق تنتصر على عطورنا، والشقة عبارة عن مستويَين، تصعد إلى الآخر عن طريق درجة أعلى، فتجد نفسك واقفًا بين أرفف مكتبة يصعب حصرها.

دخل الجميع، ووقفت أنا بالخارج كالكلب الممنوع من دخول بيت صاحبه، أراقب تحركاتهم، ليرجع الأستاذ جلال مستفسرًا عن وقوفي بالخارج، فتشرح بثينة الأمر له سريعًا، ويتعاطف الرجل معي مقررًا الوقوف في منتصف المنزل، بيني وبينهما.

بدأ كلامه بقراءة الفاتحة لزوجته، ناظرًا إليَّ تارة وإليهما تارة أخرى، مكملًا حديثه بعدها عن سر استثنائية المكتبة المعروضة أمامنا: «الله يرحمها، كانت من أقدم أعضاء مجلس أمناء مكتبة

الإسكندرية، أوصت بتوزيع كتبها بين مكتبة الإسكندرية وأي مكتبة أخرى تقدر قيمة المجموعات المعروضة، أنا حلفت من يوم موتها لن يخرج كتاب واحد وسيورث أحفادنا المكتبة، لكن الحمد لله أولادنا وأولادهم هاجروا، وابني الوحيد الموجود في مصر عالم المقاولات شغله الشاغل، ساعتها فهمت السبب وراء وصيتها، وفعلًا، الجزء اليمين من المكتبة تم جرده، وفي خلال أيام سيستقر بالإسكندرية، والجزء الآخر تحت أمر حضراتكم، بالمناسبة، أنا عارف سمعتكم الممتازة في تقدير المكتبات والنوادر فاتصلت عليكم، من دون أدنى مجهود في البحث عن تاجر يراعي ضميره!».

تركهما الرجل مع إرث زوجته وابتعد قليلًا جالسًا على كرسي هزاز، يدخن سيجاره، ومن المنظر العام لنظراته تفهم أنه يتذكر أيامه مع حبيبته السابقة، أو ربما يفكر في ثمن مناسب للمكتبة.

تابعت بثينة بعينيها المتنقلتين بسرعة بين أرفف الكتب، ترسم علامة «صح» في الهواء، تقريبًا حين تلمح كتابًا من كتب القائمة، ثم أخرجت هاتفها لتجري مكالمة، مشيرة إلى نديم الذي وقف أمام المكتبة وكأنه يفكر مع نفسه كيف سينقل المحتويات المرصوصة أمامه.

وسط انشغال نديم بالكتب، وبثينة بالمكالمة، اقترب مني العجوز مجددًا، ماسكًا علبة سجائر شعبية، يقدمها إليَّ، وتعجب حين عرف أنني لست مدخنًا، لينقل الحديث عن حالتي: «موضوع غريب جدًّا مرضك! أنا آسف على التدخل، لكن الصراحة أول مرة أسمع عن مرض اسمه فوبيا البيوت! سامحني يا ابني، فكرة البيت ياما صبرت

الناس على مصائب الدنيا، إنك ترجع آخر النهار بعد يوم شغل طويل تدخل بيتك وترتاح، إنما تهرب من البيت، من أمانك الفطري، من أساس أمان الإنسان! حقيقي غريبة!».

تجنبت التعليق على كلامه، مكتفيًا بجملة الحمد لله على كل حال، ثم جاءت بثينة وسحبت الأستاذ جلال بعيدًا للاتفاق على السعر، وسألني نديم عن استعدادي لمساعدته في نقل الكتب، مختتمًا كلامه: «تحب تكمل معنا مشوار الغورية، ولا تسبقنا إلى المكتبة؟».

لأجيبه، من دون أدنى شك، بعدما لمحت كم الكتب التي سأنقلها: «معكم طبعًا! حتى لو وقفت بره في كل زيارة!».

٩

من ميدان سفير بمصر الجديدة، غادرت السيارة التي جئنا بها، وركبنا سيارة أخرى كانت في انتظارنا، إلى حي الغورية، إذ إن الأولى أصبح المخزن وجهتها.

وصلنا إلى العنوان، وبعد المشي في أزقة الغورية، وتاريخ القاهرة القديمة الآسرة، وقفنا أمام محل «سيد ضاحي» للسجاد اليدوي، كما وصف العميل، ونزل الزبون، الأسطى سعيد ماهر، ورفع باب محل مهجور أسفل بناية قديمة، لأن الحمد لله جاء فرج الله وسيؤجره، والمستأجر الجديد لا يريد المكتبة المستحوذة على مساحة ستفيده أكثر في رص بضائعه.

تحركنا تجاه المكتبة، متهالكة بالمعنى الحرفي، الكتب السليمة يمكن عدها، والبقية لا تصلح كمراوح ورقية يستعملها بائع ذرة، لم تهتم بثينة، وباشر نديم فحص الكتب بعد ارتداء كمامة ونفض الغبار، ومن تعابير وجهه، وإثر نظرة سريعة فاحصة، لم يلفت انتباهه كتاب من القائمة، وانتظر أوامر بثينة ليعرف الخطوة التالية.

تجرأت مقتربًا من القرف الموضوع أمامي، كم أتربة تصيبك بحساسية صدر، أصلًا ما سبب وجود مكتبة في محل كهذا؟ سحبت كتابًا، نفخت فيه مزيحًا تراكمات السنين، لأجده للكاتب لويس عوض، بعنوان «الثورة الفرنسية»، ناديت بثينة لعله من ضمن كتب القائمة التي لم أحفظها ونسيت أين وضعتها، فجاءت مبتسمة بعرجتها الهادئة، تهز رأسها مستفسرة، لأريها الكتاب، وكأنني كشفت عن جثة! تغيرت ملامحها، نظرت إلى نديم الذي خطف مني الكتاب غاضبًا.

فحصت بثينة المكتبة باهتمام مبالغ، وحركات متوترة لا تليق مع طبيعة مهنتها، ثم وجهت كلامها إلى الزبون: «عظيم! أبوك عنده أعمال كثيرة للكاتب لويس عوض!».

نفث الأسطى دخان سيجارته بعيدًا، وقال بلامبالاة: «آه يا مدام، الله يرحمه الكتب لحست دماغه، وخصوصًا عم لويس، كان مصدعنا بأفكاره ونقده، أبويا الله يرحمه كان يعز العقاد والسباعي ويوسف إدريس جدًّا، بعد عم لويس عوض، وأشهر جملة كان يقولها: «لويس عوض، رجل جزمته فوق الكل!»، المهم يا مدام، أنا طالب في المكتبة بالضبط ألفين جنيه، تمام ولّا نشوف تجار الأزبكية؟».

تمت كرتنة الكتب، وبعد الرفع والرص وضع نديم فوقها لاصقًا أحمر مكتوبًا عليه «يُعدم». كدت أشخر لنديم وبثينة، بعد المشوار والأتربة والرفع وتعب الظهر تدفع بثينة المال لنعدم الكتب! والله العظيم أنا لو عبد فلن تتصرف معي المكتبة بتلك الطريقة! تحركنا في صمت، السائق يراقب الطريق، طلب إمضاء بثينة على استمارة الإعدام، فلم أستطع تمالك نفسي، وسألتها بنبرة تكتم عدم تقدير المجهود المبذول: «أنا آسف يا بثينة، هو فعلًا حقيقي حوار ملصق «يُعدم»؟ بعد المشوار والنقل والتعب ودفع الفلوس في الآخر يُعدم؟ اعذري جهلي، لكن الموضوع محير والله!».

سبق نديم مديرته في توضيح الأمر: «الموضوع ببساطة، فيه قائمة ثانية، قائمة الممنوعات، الكتب الموجودة فيها مصيرها الإعدام طبقًا لقرارات المؤسسة، وعلينا التنفيذ، أول ما تظهر قائمة الممنوعات نشتري ونكرتن بلاصق يُعدم. أما الأسباب، فيه مديرين قالوا إنها سرية، وفيه مديرين عرفوا باجتهادات شخصية، لكن أي موظف، بمعنى كلمة أي موظف، لو امتنع عن حرق الكتب، حقيقي وبلا أي مبالغة، يومه أسود!».

ربتت بثينة على كتفي، وأوضحت الصورة بمعقولية أكبر، طالبة منا حفظ السر، إذ قالت إن الكاتب لويس عوض، على الرغم مما قيل عن وجود صداقة بينهما، فإنه هاجم نجيب محفوظ في عدة مناسبات، واصفًا إياه بالمخادع والألعبان، ولما سأل الكاتب جمال الغيطاني الأديب نجيب محفوظ عن أسباب عدم حب واقتناع لويس عوض بأدبه، لم يجب إلا بجملة: «الله يرحمه!». ولأننا مشروع

ثقافي، هدفه الأول هو نجيب محفوظ، فترى المؤسسة ضرورة الوفاء لمؤلفات الأستاذ، والكتب التي أحبها، أما ما غير ذلك فللمؤسسة حق التصرف في الكتب بما يتناسب مع سياستها، موضحة معنى كلمتَي «يُعدم» و«يُحرق»، وهو طردها من جنة سلسلة مكتبات الحدود، وليس الإعدام أو الحرق بالمعنى الحرفي. ووفقًا لتفسيرها الموجز والمقنع، فقد عرفت بثينة من مدير يحترمها جدًّا أن الكتب لا تُحرق أو تُعدم، بل يتم توزيعها على مكتبات المدارس، في القرى البعيدة التي تعجز مديريات التعليم عن توفير الكتب لها.

بعد نظرات متبادلة، وتكشيرة خاطفة على وجه بثينة، ضحك نديم فجأة، مؤكدًا على كلامها، معتذرًا عن فظاظة ومساخة مزاحه، واعدًا بعزومة حلوة، كرسالة ود وبدء صداقة بيننا، لأنه يحترم الطيبين أمثالي الذين يسهل خداعهم بتأليف القصص المرتجلة السريعة، كي يكشف لنا عن موهبته وحبه للكتابة.

تمنيتُ من قلبي، بعد موجز المعلومات الثقافية الذي قدمته بثينة، ألا يستفسر أحدهما مني عن شيء، فأقتل جمال التبادل المعلوماتي بجهل فطري، وحمدتُ الله لما سألتني بثينة: «صحيح، هو أنت لما فتحت تلفونك، لما وقفت لوحدك، كتبت حاجة عن المقلب؟ أنا آسفة لو سؤال تدخل، لكن أحب أعرف إذا زعلت من هزارنا؟».

شرحت لها سريعًا معاناة أب، يبحث عن زوجته وقاتل ابنه، وأنني أكتب منشورات غرضها المساعدة في العثور عليها، أو الظهور إعلاميًّا للتكلم حول الموضوع وتحويله إلى قضية رأي عام.

HTTPS://WWW.2025

الشعور بالفخر الذي غمرني، حين عرفت بثينة أن زوجتي هي ياسمين شاهين، جعلني أثق بصدق حدسي حول كون ياسمين على قيد الحياة، فلمعة عينَي بثينة تؤكد مقولة الناس المتداولة دومًا عن قوة وصلابة حبيبتي، وقدرتها على الوقوف أمام جيش بمفردها.

نبهتني بثينة إلى نقطة مهمة تغافلت عنها منذ اليوم الأول: «اسمع، ياسمين رمز من رموز الحركات النسوية، ولعلمك فيه منشورات كثيرة نزلت في صفحات النسويات، كلها غرضها البحث عن ياسمين، طبعًا غير المنشورات الأسبوعية، من موقع «Savehernow»، لكن فيه نقطة غائبة عن تفكيرك، أعداء ياسمين الذكوريون، خصوصًا طبقات النجوم، يمكنهم بفلوسهم أن يؤثروا جدًّا على الموضوع!».

أكملت حديثها بعد فتح هاتفها، لتعرض لي المنشورات المنتشرة بكثرة بين الصفحات: «الدليل واضح قدامك، فيه منشورات البلاغات لا تقدر عليها، لكن في الآخر، معلهش، أنت معتمد على منشور! يعني وجوده أو عدمه لا يفرق! حاول تفهم قصدي، الموضوع أساسه الحسابات الموجودة فوق أرض الواقع! يعني بمنتهى البساطة ممكن فعلًا يكون فيه شخص هو المتسبب في اختفاء ياسمين، وأظن يعني أنت عندك علم إن ياما ياسمين وقفت قدام عتاولة في التحرش والعنف، أقل واحد فيهم يقفل بلد بحاله!».

لاحظ نديم حزني الظاهر ودخولي في دوامة تساؤلات، خصوصًا بعد كلام بثينة، فحاول تخفيف الجو بإلقاء مزحة سخيفة مثله:

HTTPS://T.ME/WAY2025

«معلهش يا بثينة، لكن أنا مستغرب أن الأستاذ يبقى زوج ياسمين شاهين أساسًا! فرق السماء من العمى والله!».

وضحك وهو يخبط كتفي، ولما وجدني صامتًا، لا أشاركه الضحك أو الابتسام حتى، شعر بالحرج معتذرًا: «أنا آسف! واضح إني سخيف بزيادة! كل كلامي رخم جدًّا! فكرت إنك ممكن تبتسم وتنسى الهم. أنا آسف والله!».

لشعوري بالإهانة، قلت لهما إن ياسمين هي التي صممت على زواجنا، على الرغم من الفروق الجوهرية بين مستوى عائلتها وعائلتنا، ولكنها بعد تجربة زواج فاشلة، تفوق الاحتمال، استقلت عن أهلها نهائيًّا في كل شيء؛ الحياة والسكن واختيارات الزواج، إلى درجة أننا تزوجنا في مقر كانت استأجرته ليكون المكان الرسمي لموقعها الشهير، ومشت الحياة معتمدة على مرتبها ومرتبي من وظيفتين.

وافقت بثينة على كلامي، وأوضحت أنها حضرت ندوات لياسمين، وكان السؤال المتكرر دائمًا، بعيدًا عن القضايا النسائية، هو علاقتها بزوجها، وياما شكرت في حسن تعاملي معها، وأنني أطيب خلق الله، على الرغم من وجودي خارج دوائر اهتماماتها، وانخراطي التام، كرجل جدع وأصيل، لتوفير حياة كريمة، ثم اختتمت كلامها بالدعاء لزوجتي وقرب اللقاء.

ليقتل نديم الصمت السائد بيننا، ولينتشلني من الحزن الموشوم فوق وجهي، حكى معلومة عن ترشيحات نوبل التي وضَّح نجيب محفوظ كثيرًا أنه يجهل الأسماء الحقيقية المرشحة للجائزة، ولطالما كره التكهنات والتوقعات، حيث عرف محفوظ شرط الكشف عن

HTTPS://WWW.REWAYAT2.COM 2025

الأسماء، فوفقًا للجنة الجائزة لا بد من مرور خمسين عامًا حتى يرفع الحرج عن الأدباء والأسماء المشاركة.

انتظرت أي تعليق من بثينة، عن معلومة نديم التي صدرها بحداثة العهد، لكنها ضحكت حتى كاد هاتفها يسقط من يدها، ووضعت يمينها فوق رأسها، مع اهتزاز جسدها، ولم تعلق على المعلومة ذاتها، بل قالت: «والله صعبان عليَّ أدونيس! أكثر أدباء العالم ترشيحًا للجائزة! والله أنا نفسي يكسبها فعلًا!».

لم يشغلني كلام نديم، أو اهتمام بثينة بأدونيس، بل السؤال الحقيقي الذي لطالما دفنته داخل قلبي، منذ يومنا الأول كزوجين، هل فعلًا يرى الناس عدم استحقاقي للزواج من ياسمين؟ حتى لو كانت تشكر سيرتي، وتتحدث عني بكل الخير؟ هل يستكثر الناس فرحة العاهات أمثالي؟ وبدلًا من الانشغال بما يعنيهم، يفكر واحدهم بطريقة ساخرة في كيفية الجمع بين الملبن والفجل؟

في بعض الأحيان يقول شيطاني: «يا برنس! الاهتمام كله معك! من زمان والعيون على ياسمين! لكن الآن ياسمين في علم الغيب! والعيون كلها عليك! اغتنم الفرصة يا خائب الرجاء! وحاول كسب صداقات وثقة الناس! أكيد زواج ياسمين منك دليل على مدى قوة شخصيتك، أو وجود مزايا هائلة تعجب أنثى مثل ياسمين!».

أعترف أنني أكره شعوري الدائم بالدونية أمام جبل الإنجازات ياسمين شاهين، لكن ما الحيلة؟ أنا شخص منذ اليوم الأول له في الحياة وهو يرضع من التربية السلبية، وانتقاص الذات، وعدم الاستحقاق!

١٠

انتهى الدوام الأول بصداع لا يحتمل ورفع ضغط، كل ما ينقصه هو خبط دماغي في الحائط، لأنهي المشغولية الغريبة التي فشخت حياتي فجأة، بعدما كان يتموقع جدولي الروتيني حول الاستيقاظ وقتل المجاذيب وجمع المال وكتابة المنشورات والعثور على واسطة وأكل ساندويتشات دومتي وشرب العصير الرخيص.

مع حلول الخامسة والربع اهتز هاتفي برقم النقيب، الذي تقريبًا نسيته وفقدت الأمل فيه، يطالبني بضرورة التوجه إلى نقطة شرطة المنيرة لمعرفة آخر المستجدات بخصوص زوجتي وابني! حظي الحلو هو قربي من محيط النقطة، فالمسافة بينها وبين الفرع مقدارها ربع ساعة تمشية، وطبعًا لم يتوقع النقيب وصولي بتلك السرعة، حتى إنه سألني: «أنت استأجرت شقة جنب القسم؟ تفضَّل! نورت والله!».

لاحظت تغير طريقة تعامله، يفتح الأوراق أمامي، يسحب من هنا ورقة يضعها داخل ملف، يتبعها بأخرى ليخرجها، يمزق ورقة، يكتب رقمًا فوق كارت، يضغط جرس مكتبه، فيفتح الباب رجل مسكين متوتر، تقريبًا سيتكفل بمهمة نقل الأوراق.

كل مكالمات الدنيا جاءته، قعدت قبالته لأكثر من ساعة، إلى أن دخل رجل علينا، تعرف مركزه من دون تقديمات أو تعريفات، الكذب خيبة، لكن الباشا سبقته هيبة تجبرك على الاعتراف بأي جريمة حتى لو كنت بريئًا من ارتكابها.

جلس الرجل، نزلت القهوة أمامه، رشف ليتأكد من ضبط

التحويج، ثم رمى سؤالًا فوق دماغي من دون أي تعارف: «الباشا ممكن يوضح لنا سبب رفضه إنه ينورنا في النيابة؟ طلب حضور الاستيفاء ملطوع في عنوان سعادتك أكثر من أسبوع، فهل ممكن، بعد إذن جنابك، نعرف سبب التأخير؟ وسبب إن رقمك غير متاح؟ هو الميت كان ابني؟ والزوجة المختفية تخصني ولَّا تخصك؟ حظي الحلو أني عرفت من سيادة النقيب أن سيادتك تقريبًا عامل إقامة كاملة في تلفونه، ويوميًّا تتصل به! أنت تحمد ربنا إن سيادة النقيب هو من استدعاك، بعد ما طلب مني الهدوء وزيارته، لأني والله العظيم لو كنت اتصلت بك، وحياة ولادي، لكنت قتلتك بصوت شخرتي!».

العرق ابن الغدارة، كاد يفضحني، يعرض حفلًا راقصًا على وجهي وجبهتي، ما شاء الله، هيئة عامة لمجرم يراوغ، وليس لأب يبحث عن مجرمين! مسحت العرق، ابتلعت ريقي، شربت كوب الماء النازل برفقة فنجان قهوة الباشا، من دون استئذان.

اعتذرت عن عدم الحضور، وشرحت مرض رهاب المنازل وتأثيره عليَّ، مع ترك رقم الدكتور كريم للتأكد من صحة روايتي، ثم رميت الموضوع على ضعف ذاكرة عم بدر، وغيابه أغلب الوقت، مما يعني وقوع طلب الحضور في يد أبناء البواب، وبالتالي تم تحويله إلى طائرة ورقية أو مفرش للأكل، وربما لف ابنه الكبير بداخله صاروخ الفول والطعمية البلدي.

ولما قرأ رقم الهاتف، وجدت أنني في عز حزني استبدلت رقمين، تقريبًا من الحزن، لم يكن وقتها دماغي حاضرًا لكتابة الرقم الصحيح، أو التأكد إذا كنت كتبته صحيحًا أم لا.

HTTPS://WWW.A2025

ملامح الباشا تعكس شعوره ناحيتي، لم تشغله المسألة ولا المأساة، سحب شخرة ووجه حديثه بتقلب مزاجي، ينبئ عن لكمة قد تنهي المقابلة: «اسمع! أنا موتي وسمي كثرة الكلام! من الآخر، محتاج إجابة واضحة وصريحة، أنت أو المدام، كان فيه عداوة مع أي شخص؟ خصوصًا المدام؟ أنا عارف إنك وضحت في نص التحقيقات عدم وجود عداوة، سواء في موت ابنك، أو في اختفاء زوجتك، وعلى الرغم من تأكيدك، لكن أنا غرقان في وقائع اختفاء الزوجة! بعد التحقيقات والبحث القضية سيتم تقييدها ضد مجهول! كلامي ستسمعه ثانية في النيابة العامة غدًا، لكن نعيده على سيادتك، المجذوب رمى ابنك، المدام ركضت خلفه، ومن خلال فحص الكاميرات الموجودة كلها، من وقت الحادث، لضمان وجود التسجيلات، الكاميرا الوحيدة الناقلة لآخر لقطة للمدام، صورت عربة سوداء زجاجها أسود بلا أرقام، خطفت الاثنين، ياسمين والمجذوب! وفي لمح البصر اختفت! من وقتها فشلت كل الكاميرات الموجودة في محيط القاهرة القديمة إنها تنقل مكان العربة! كأنها فص ملح وذاب! معلهش، اعصر دماغك، حاول ترتب الصور، أي أعداء؟ زوجتك مثلًا كانت مصدر تهديد لشخص، فالشخص فضَّل التخلص منها؟».

لولا كلام بثينة عن عداوات زوجتي، كنت سأجلس أمامه كمفرش المنضدة، لا فارق بيني وبينه، فحمدت الله على عقلية بثينة، وقلت متظاهرًا بالثبات: «باشا، ياسمين، الله يعينها ويقويها، كانت صاحبة موقع لحفظ حقوق المرأة، والشهادة لله هي وقفت قدام بلطجية

ومجرمين ياما ضربوا نسوانهم، ومعظمهم في السجن، وحضرتك الصراحة بكلامك أجبرتني إني أفكر في الموضوع من الزاوية الغريبة للانتقام! وكلامك معناه إن فيه شخص عرف طريق ياسمين وراقب كل تحركاتها ونفذ خطته!».

فتحت هاتفي لأريه الموقع، هز رأسه مؤكدًا على كلامي: «عارف الموقع، ونظرية الانتقام مطروحة في تحقيقاتنا، ياسمين شاهين استنجدت بنا أكثر من مرة قبل الزواج، وتقريبًا الاهتمام بالموقع مات من ناحيتها بعد الزواج والولادة، طيب، الطبيب النفسي المعالج لياسمين، المذكور في التحقيق مع سيادتك، هل مثلًا قال لك حاجة أو طلب أن يقابلك في يوم؟».

نفيت سؤاله، وتذكرت أن الطبيب النفسي المعالج لحالة ياسمين هو الوحيد الذي لم يهاتفني، ليسأل عن عدم حضور ياسمين، خصوصًا أنه لطالما اهتم بحضورها أو غيابها وهاتفنا متسائلًا عن سبب عدم الحضور.

فضَّلت كتمان مشاعري، حتى أذهب إلى طبيبها الذي نسيته تمامًا في خضم المأساة والحزن والمرض والمجاذيب، داعيًا الرب بمساندتي وتيسير طريقي في الكشف عن حقيقة اختفاء حبيبة قلبي.

فكرت مرتبكًا، وعرضت تقديم حاسوب زوجتي غدًا في استيفاء النيابة، لتفصيص كل صغيرة وكبيرة، إذ ربما يساعد في حل القضية، أو تضييق دوائر الشك، وحصر عدد المجرمين بطريقة أسرع، ثم سألتهما عن الخصوصية، بحجة وجود ملفات وصور شخصية لياسمين ومقاطع لنا، فقال النقيب إن الإجراء المتبع في النيابة هو

HTTPS://WWW.RWAYA.NET 2025

أنني سأغادر بحاسوب زوجتي بعد تفريغه من كل شيء قد يفيد في القضية عن طريق نسخه عندهم، وكتابة تفاصيل المحضر، ليفيدنا في حالة الوصول للمحكمة ـ إن شاء المولى ـ كي يجد القاضي داخل ملف القضية وقتها كل الأدلة التي تثبت كلامنا.

خرج الباشا، وفسر النقيب المقابلة الجافة وباعث جنون النيابة العامة بعد استقبال مكالمة من شخصية مهمة تحثهم على حل قضايا بعينها، أو تسجيلها ضد مجهول، ومن ضمن القضايا غير المحلولة اختفاء زوجتي ومقتل ابني، منهيًا كلامه بتوضيح في غاية الأهمية: «خطف ياسمين رسالة، الموضوع أكبر من واحدة ركضت وراء مجذوب! أنصحك بالتفتيش في الدفاتر القديمة! ومن فضلك، من عشرة صباحًا تكون في النيابة العامة!».

إذن، اختفاء زوجتي لم يكن خلفه مجذوب عادي، بل تم خطفها! ياسمين مخطوفة هي والمجذوب؟ من قِبل من؟ هل فعلًا كلام بثينة عن العداوة صحيح؟ ويكون الفاعل رجل أعمال مثلًا أو نجم سينما؟

يا رب! سينفجر دماغي من التفكير!

الحياة كقاتل تحت التدريب

١

جاء ديسمبر ليذكرني بمرور شهر آخر، فتصبح الحصيلة أربعة أشهر، منذ مقتل ابني واختطاف ياسمين! أربعة أشهر من الحزن والبحث، الوحدة والبكاء، المكالمات شبه اليومية لأهل ياسمين، زيارة الأقسام والمستشفيات، انتظار الظهور الإعلامي، التنقيب داخل دفاتر زوجتي وحاسوبها الشخصي منذ مقابلة النقيب والنيابة العامة.

أربعة أشهر من إقامتي في السيارة، وخوفي من البيت، مع أنني في سابق الأوان كنت كلما رأيت شحاذًا أو متسولًا أشير إليهما متسائلًا: هل هذا هو شكل الإنسان بلا مأوى؟ واليوم صرت أنا الإنسان بلا مأوى، حياتي تتنقل بين المكتبة وقيادة السيارة، بين الشوارع والفقد، بين المقاهي والمساجد وغرفة البواب، من أجل الشرب والاستحمام، أو استخدام الحمَّامات، مع التغذي على ساندويتشات دومتي الجاهزة والعصائر الرخيصة.

HTTPS://T.ME/RIWAYAT2025
حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية

نجح مجذوب في تحويل حياتي إلى علامة استفهام كبيرة، أمشي بداخلها تائهًا بين كل التساؤلات: لماذا مات ابني؟ أين زوجتي؟ ما العمل؟ وكيف خلق الله الناس كلها في أحسن تقويم، وزهق من فكرة إكمالي، فنفخني في بطن أمي بشكل غريب، يختبئ خلف نظارة ليتعامل مع البشر؟

هربت التساؤلات، لما جاء طلب توصيل من محيط ميدان لبنان إلى وسط البلد، ولأن اليوم الجمعة، العطلة الأسبوعية للمكتبة، قررت ـ حتى بعد قبض أول مرتب محترم في مسيرتي ـ قيادة السيارة لتدعيم حالتي المادية بما يسندها، لقتل المجاذيب، وتكرار مذبحة السيدة.

انهمكت في التوصيلات، رزق أيام العطلات وفير، قبل نزول الراكب تجد إشعار توصيلة أخرى، الدفع في الأغلب كاش مما يعني الجيب عمران وخطط الإبادة مستمرة. لاحظت اليوم أن أغلب طلبات التوصيل تتجه إلى شارع هدى شعراوي بوسط البلد، حاول فضولي كشف الأمر، حتى ركب رجل من منطقة جاردن سيتي يتحدث في هاتفه بلهجة الصعايدة، يشبه الممثل الأجنبي الشهير فان ديزل، بصلعته الشهيرة وتكوين جسده، يصرخ في كل متصل باستحالة حدوث الأمر.

غضبه يتصاعد، يدخن، يسحب نفسًا ثم يزفره بعصبية، يحوقل ويستغفر، ويسب ويلعن بعدها، انتظرت اللحظة المناسبة، والتوقف في زحمة الإشارة الموجودة قبل مدخل ميدان التحرير من ناحية كوبري قصر النيل، لأستفسر بلامبالاة مصطنعة عن هوجة التوصيلات

HTTPS://T.ME/WAR2025

المتكررة تجاه الشارع ذاته، فانفجر صارخًا كأنني طعنته في ذكورته: «فيه مصيبة هناك يا بيه!».

أشعل السيجارة رقم مائة تقريبًا، ليشرح الأمر: «سمعنا قرارًا من قرارات الباشوات، عن اتجاه لقفل قهوة البستان! قهوة المثقفين الشاهدة على عصور الأدب، فجأة وبلا أي مقدمات يظهر قرار باحتمالية إغلاقها! والله العظيم الموضوع إذا حصل سأعلن اعتزالي مهنة المحاماة فورًا، اعتراضًا على قرار بائس لا يخرج إلا من فشلة! وسأطالب بنزول المثقفين والأدباء والمحامين للتظاهر أمام نقابة اتحاد كُتَّاب مصر ومجلس الوزراء والمقهى ذاته! العملية خابت، المكان المحتضن لكل كُتَّاب العصر، المليء بالألفة والأمان، تدخله فتشعر بأنك وسط أهلك، فجأة وبلا أي مقدمات يطلع قرار بالتفكير في تحويله إلى مكان استثماري!».

في أقل من دقيقة، اكتشفت وجود نقابة للكُتَّاب والمثقفين، ومقهى يعتبرونه كعبتهم تقريبًا، إلى درجة أنهم نزلوا متظاهرين هناك كي لا تمس الحكومة هيكل ثقافتهم. الرجل محام، دمه فائر، وقد يقتلني إذا أكثرت من سخافات أسئلتي، فعبرت عن أسفي متضامنًا مع حقوق الأدباء، داعيًا الرب بتخليص المقهى المسكين من سطوة الحكومة، مختتمًا كلامي بدعابة لطيفة: «وإن شاء الله، لما يحصل الأمر والقرار يثبت بطلانه، سنحضر كلنا والقهوة توزع شربات الفرحة!».

تقريبًا دخلت الدعابة على مرارته، لم يبتسم أو يحرك شفتيه، اكتفى بمراقبة هاتفه، وتكملة مكالماته القصيرة، معظمها من أشخاص يبحثون عنه، وهو إجابته واحدة لا تتغير: «دقائق يا باشا

وستجدني في وسط الشارع، هو اليوم بائن من أوله، يا حول الله، أنا أصلًا من ساعة ما رماني الواد رضا المجذوب بعلبة الكشري، وقال لي بعدها: «معلهش، اليوم زفت ورضا أزفت، هات فلوس الأكل!»». الطريق يتحرك ببطء، طبعًا الزحام من وراء التظاهرة، يؤخر مشوارك فعلًا.

لفت انتباهي حديثه عن رضا المجذوب، صرت مترصدًا لسيرتهم وخطواتهم. بادرته بمواساة أخرى، تخص المجذوب ورميه بطبق الكشري: «حسبي الله ونعم الوكيل في المجاذيب! الحكومة مركزة مع كل شعرة إلا هم، والنتيجة؟ حوادث وقرف وقلة قيمة!».

فيزفر دخان سجائره في وجهي معقبًا: «المجاذيب وقلة القيمة! يا رجل! المجاذيب خير البلد، ربك يباركها لأنهم بيننا، مكشوف عنهم الحجاب، الواحد منهم يمشي وراءك، وفجأة يقول لك معلومات عنك، أسرار عائلية أو تفاصيل مشكلات، وينهي كلامه بدعوة حلوة تتحقق بعد فترة، فيندهش الدماغ! والله المجاذيب وأهالينا البركة هم السبب الوحيد لعدم خسف ربنا بذلك البلد!».

أجاب مكالمة وأنهاها في ثوانٍ، ثم عاد إلى حديثنا: «لعلمك، أنا كاتب عنهم، لكثرة كراماتهم معي، وموقف الصباح لم يهز شعرة مني، أنا مستعد ألبس طبق كشري كل يوم، إذا قابلني مجذوب، نازل من الله عليه كرم البصيرة، وبشرني بتفاصيل يومي الحلوة أو المُرة!».

قاومت احتلال الضحك، حين قال إن الموقف لم يهز شعرة، وبمعجزة وصلنا إلى وجهتنا، دفع المطلوب ونزل راكضًا، ليلد التطبيق توصيلة أخرى، ويركب رجل ببدلة ورائحة بارفان أصلية،

يختبئ خلف نظارته الشمسية، وتحركنا من وسط البلد إلى أكتوبر، تحديدًا المجمع السكني الفاخر بيفرلي هيلز.

مكالمات الرجل الغامض عبارة عن همهمات، يرد على السؤال فقط، لا يزيد أو يستزيد، وبينما هو مستغرق في الإجابات المقتضبة، تذكرت الرجل الصعيدي، تحديدًا جملته «أنا كاتب عنهم»، وسألت صورتي المنعكسة في مرآة السيارة الأمامية: بفعلته تلك، بكتابته عنهم، هل أصبح عدوًّا؟ وإن كان، فبمنطق تفكيري هكذا أمسى كل عاشقي المجاذيب أعدائي، كلهم أعدائي.

الطريق طويل، الرجل لم يقل جملة كاملة متتابعة، بدأت أرى قطرات العرق، على الرغم من جاهزية سيارتي بتكييف ثلاجة كما تقول السوق، لكن الباشا تلعثم كثيرًا، ثم أنهى مكالمته بجملة أجبرتني على السكوت وعدم فتح الأحاديث معه إلا إذا حدثني هو، إذ قال بنبرة حاسمة تكافح لتطرد قلة ثقته: «كل واحد في البلد عارف مقامه، والأمر من الباشا الكبير واجب تنفيذه مهما كانت النتائج! معلهش يا باشا، عطلتك، أنت رجل مشغول، وإن شاء الله مكالمتي الثانية تنقل لك الخير كله!».

تنهد المتعوس وهاتف أحدهم، وتحول أداء الرجل من بؤس النحول إلى سفك الفحول، لم يرحم الطرف الآخر، أهانه بكل الطرق الممكنة، كدت أقول له: والله! وأين كانت تلك الشجاعة من المكالمة الفائتة؟ تناثر رذاذ فمه وعصبيته على كل مكان أمامه، حتى ناقل الحركة لم يسلم منه.

لما أحس بنشوة الانتصار، ونفض غبار التوبيخ السابق من مكالمة الباشا الأكبر، أنهى المكالمة، مهددًا بعواقب بنت كلب، وحياة يكرهها

القلب، إذا تقاعس المسكين، المسبوب والمهان، عن تأدية مهمته في تفريق التظاهرات الموجودة أمام مقهى البستان، حتى لو تطلب الأمر إعادة فوضى معركة الجمل، وثورة يناير، الأهم هو رضا الباشا، وإلا سيكون الحساب عسيرًا، ولن يقدر مخلوق على ملاحقة المصائب.

أخفى الهاتف في جيبه، أمسك برأسه ثم مسح وجهه، وعلق على اليوم بكلمة واحدة: «نجاسة!»، ليهتز هاتفه تقريبًا، ومعه شخرة من الصعيد الجواني.

تجاهل الرد على المتصل، لكنه هاتف شخصًا مختلفًا، وركز كيف يوجه رذاذ عصبيته ناحية وجهي المختبئ خلف نظارتي، تجشأ وقال بمنتهى البرود، واضعًا إصبعه في أذنه، محركًا إياه بعصبية كأنه ينتظر خروج حالته من الكرب: «حلمي! أنا تعبت يا حلمي والله! كمية مكالمات وتعليمات وتوجيهات وقرف! الله يلعن المثقفين ومشاكلهم! مالي ومال مقهى البستان! ما الذي جرى يا حلمي! حلمي! أنا كانت مكالمة واحدة مني، أقفل بها أجدع شارع في البلد! الحال في النازل، مكالمة أنا الأسد، ومكالمة أنا الفريسة، مكالمة أنا الراكب، والأخرى أنا المركوب! حلمي! كلم الحبايب!».

٢

انتهت توصيلات يوم الجمعة، فعدت أسفل البناية، وبعد ركن السيارة، وحساب كل مليم دخل من رزق المشاوير، ووضعه فوق

مرتب المكتبة، قررت التخطيط للمرحلة الثانية من حملات إبادة المجاذيب، والتفكير في خطة قتلهم بمنطقة الحسين، مع تكرار جملة الباشا العجيب داخل عقلي: «حلمي! كلم الحبايب!».

رفعت خططي إلى مستوى الاحترافية، وقررت أن أطلب الوجبات من الجمعية الخيرية مع تغيير مناطق الاستلام، وظني الوحيد في تلك المسألة هو اختلاف المرسل إليَّ، وفقًا للعنوان الأقرب لفرع الجمعية، فلا يقابلني المندوب نفسه مرتين، ومع التفكير بشكل استثنائي اقتنعت بضرورة الابتعاد عن طلب كمية كبيرة في كل مرة، وأنني قد أطلب مرة الحد الأدنى للوجبات، ومرة ثانية أعدادًا أكبر.

حتى مكالماتي للجمعية، فكرت في ضرورة تغيير الهواتف المستخدمة لتأدية الغرض، لن يظهر الرقم ذاته ثانية! إذن فالأكشاك والسنترالات هي الملاذ الآمن لقاتل محترف يمشي بين ضحاياه في المدينة التي ترحب بالقتلة، لتخفيف زحامها، المدينة التي تدرك أهمية القاتل وتوفر له سبل إنجاح مهامه، فالقاهرة قاتلة بفطرتها، تكره الملل، وتعشق التغيير بشكل مستمر، يستلب عقلها منظر المواطن الغلبان الراجع إلى بيته آخر الليل محدثًا نفسه عن مشاكله المتجددة وديونه غير الفانية.

ذكرت نفسي بأهمية تسجيل تفاصيل الوجبات، وملامح خطتي في القضاء على المجاذيب، للتأكد من عدم تكرار استخدام عبوات الأكل، فتفننت بذكاء في توزيع تذاكر الموت المستقبلية على المجاذيب بأشكال متباينة، فاعتزمت وضع الأكل في أكياس بلاستيكية تارة،

وتارة أخرى داخل أطباق من الفويل الألومنيوم، أو أطباق أعياد الميلاد الرخيصة، ولفها بجرائد! عرفت المأساة كيف تحولني من موظف يجري خلف لقمة العيش إلى قاتل محترف يحسب خطواته، ونجحت جلسات كريم في تصفية عقلي مما يعيقني، فيتفرغ التركيز لهدفي الوحيد، المجاذيب!

بين الحين والآخر، وعلى الرغم من كل الأحداث المأساوية، أسأل نفسي: كيف تحولت إلى قاتل بتلك البساطة؟

في تلك الفترة، خصوصًا بعد التحدث إلى بثينة عن احتمالية وجود خاطف وراء قضية ياسمين، وتأكيد النقيب والنيابة على كلامها، صرت أفتح حاسوب زوجتي قبل فترة نومي الأولى وفي ساعات الاستيقاظ بين الفترتين، وأغوص وسط كل ملفات ياسمين، وفوضى أعمالها ورسائلها، والأفلام والتقارير، والمقاطع المصورة التي كانت تستخدمها في الإعلان عن حملاتها وأفكارها لمواجهة العنف والتمييز العنصري والنوعي ضد الإناث.

بريدها الإلكتروني كاد يقبل قدمَي لأنقذه وأفتح صندوق الوارد، أو أمسح كل شيء، فيرتاح من تخمة استقبال الرسائل المتلاحقة بشكل يومي في كل دقيقة، وتنوعت المراسلات بين التعزية، والسؤال عن سبب الاختفاء، وتذكيرات بمقابلات فات موعدها أساسًا، وردود آلية تابعة لموقع «Savehernow»، أو محادثات بين فريق العمل، تمت الإشارة إلى ياسمين فيها لمتابعة آخر المستجدات.

الرسالة الإلكترونية الوحيدة اللافتة للنظر كانت من شريكتها

نورا، تسألها عن المجنون الذي يرسل تهديدات إلى الموقع من عناوين غير معروفة!

تتبعت المحادثة، وعرفت أن ذلك المجنون كان يرسل صورًا لمضاجعات جنسية تخصه، أو ضحية يغتصبها ويعنفها في الوقت ذاته، أو صور عضوه متفاخرًا بفحولته، وفي إحدى الرسائل قالت نورا: «عبيط! المتخلف فاكر إنه سيد الرجال!».

فأجابت ياسمين: «النوع المتعارف عليه، المتفاخر بحاجة موجودة وعادية، لكن من الواضح إنه دخل علاقة مع واحدة أهانت ثقته بنفسه، فالأستاذ قرر ينتقم، وقرر يعرض مدى رجولته، كأنه فاكر إننا ممكن نركع له!».

تبادلت ياسمين ونورا بعدها محاضرات عن مفاهيم مغلوطة لدى الذكور الشرقيين، تحديدًا ثقتهم في شعور الأنثى بالهياج بمجرد رؤية أعضائهم، واتفقتا على تجهيز حملة تحت عنوان: «خليه في بنطلونك!»، مقسمة إلى ثلاث مراحل: التوعية بسخافة فكر الذكور، التوعية بخطوات التعامل مع المتحرشين، إنشاء خط ساخن لاستقبال مكالمات ضحايا التحرش الإلكتروني.

لماذا لم تخبرني ياسمين بأمر التحرش؟ هل إلى تلك الدرجة كنت مهمشًا في حياتها المهنية الناجحة، بحُلوها ومُرها، وترى أنني بلا فائدة أو لن أضيف جديدًا؟

بالصدفة البحتة، نتيجة للبحث والتنقيب داخل حاسوب زوجتي، اكتشفت أن ياسمين جهزت ملفًّا كاملًا، بالصور والتهديدات، وكانت على وشك متابعة الموقف مع صديقهما النقيب أسامة، وعرفت

من الرسائل المتبادلة بينها وبين نورا أنها يومها طلبت المساعدة من الموجودين، وأوضحت بصراحة مطلقة تعرضها للتحرش الإلكتروني، عارضة صور المتحرش الفاضحة، فقال أحد أمناء القسم: «لا مؤاخذة يا أستاذة، ينفع يعني تدخلي القسم بصور بذيئة! الست المحترمة تقدم البلاغ، والفهم موجود وحاضر، ولَّا حضرتك عاجبك الموضوع وبتحاولي توصلي رسالة معينة!».

طبعًا لم تهدأ ياسمين وقتها، وجن جنون أسامة حين جاء، وحسب روايتها، قالت إنه لم يسمح لها بمغادرة القسم إلا والأمين معتذر، وكاد يقبل رأسها، لكنها بنت حلال، رفضت الانتقام من رجل أكبر من أبيها.

تنقلت بين ملفات ياسمين، فعلًا زوجتي شعلة من النشاط، ومتاهة انشغالات لا تنتهي، عثرت على تسجيلات لندوات، تصميمات لحملات ضد الذكورية، كلها تنصف النسوة وتهاجم الرجال، منها الكامل ومنها قيد التنفيذ، كملف تلك الحملة، الذي يحوي تصميمًا يحمل صورة نجيب محفوظ، وكُتب تحته: «شكرًا لرعاة الذكورية في مصر»، مع ملاحظات جانبية، تدخل تحت بند التعديلات.

قلت بنبرة ساخرة: «والله شكل نجيب محفوظ هو الخاطف! الله يرحمه ويرحمني!».

انقضى الليل بفترتَي نومه، وكوابيسي المعتادة، أيهم وزوجتي والزبونة غير الراضية، وجسدي الطائر فوق برج القاهرة، وانضم حديثًا إلى الكابوس نجيب محفوظ وهو يطلب مساعدتي ليعبر الطريق، وفي منتصف عبورنا يدفعني بشدة تجاه عربة نقل مسرعة، فأستيقظ مفزوعًا من غدر الأديب تجاه رجل جدع ساعده بنبل.

استيقظت السبت بنية السعي لشراء سم الاستركنين، لأقود بعد الانتهاء من ساندويتشات دومتي، وكوب الشاي المعمول بواسطة عم بدر، إلى عيادة خليل سويلم، شريكي ـ الذي لا يعرف شيئًا عن شراكتنا ـ في استئصال المجاذيب من جذور بلدتنا الحبيبة، واضعًا في الحسبان ميزانية أضخم لمضاعفة كمية السم لأن عددهم في الحسين أكثر، ونيتي إحداث تلفيات جادة داخل نظامهم العشوائي.

ما يعجبني في دكتور خليل، بعد شخصيته المبهمة وسلوكه الغامض، هو عدم اهتمامه بالتفاصيل، والتفصيلة الوحيدة التي يتحرك من أجلها هي المال، ثم يجيء دوره الأساسي من معالجة الحيوانات، والصراحة لم أرَ مخلوقًا واحدًا يعالجه هذا الطبيب المستفز.

طوال الطريق، من ميدان لبنان إلى شبرا، وأنا أفكر في كلام الراكب العجيب، وجملته الأعجب، «كلم الحبايب». ومع تشغيل المذياع استقبلت المذيعة وهي تقول بصوت يستند على الحزن: «ببالغ الأسى والأسف، فقدت مصر مجموعة من أهم أدبائها، في هجوم إرهابي غير مبرر على تظاهرة المثقفين أمام مقهى البستان! سالت دماء الأدباء فوق الأسفلت، وهرب منفذو العملية، وسط دهشة وحيرة المراقبين للموقف، حيث أثبتت التحريات الأولية عدم حيازة الواقفين أي سلاح، ولجوء الأدباء إلى الحل السلمي لفض النزاع القائم بينهم وبين المسؤولين حول إغلاق المقهى، آملين في الوصول إلى حل وسط، لكن الإرهاب قال كلمته الخسيسة، لتتصاعد الأحداث، ويتحشرج صوت مصر بالبكاء على ساردي حكايتها، ومدوني تاريخها العظيم!».

٣

غيرت وجهتي ورجعت إلى البيت، تراجعت عن شراء السم وتنفيذ مذبحة الحسين، خصوصًا بعدما أعلنت الحكومة التأهب لحالات الطوارئ، وهذا يعني تعطيل انسيابية خطط الرب، مما يجبرني على تفصيص خطواتي بشكل مبالغ، وإلا سأواجه التعريف الخام لمأساة رجل خسر كل شيء حرفيًّا.

قضيت اليوم ما بين البحث في ملفات ياسمين، والتوصيلات لزيادة دخلي، حتى انقضى ونمت فترتَي معاناتي بكوابيسي وأحزاني، وبدأ الأسبوع الجديد في المكتبة، والشهر الثاني لي.

كان الحديث الحاضر في المكتبة، أو بيني وبين الركاب، وطبعًا في محطات الإذاعة وقنوات التلفزيون، أدباء مصر الذين أطلق عليهم الإعلام المصري شهداء البستان، وكيف خرجت تظاهرات من كل صوب وحدب للتنديد بالفعلة القذرة، والسعي وراء العدالة والقصاص.

الحقيقة، مع كثرة القيل والقال، تكونت لديَّ حصيلة معقولة بأسماء الكُتَّاب والكاتبات، وإسهاماتهم في الأدب، سواء الكتابة الإبداعية أو الترجمة، ولوهلة ـ مع أنني شتمت نفسي لتفكيري القذر ذاك ـ شعرت بأن الحادث جاء كتدريب فوق تدريب المكتبة، فيؤهلني للتعامل الأصح كجامع أو بائع كتب.

كم المصطلحات المكتسبة رسم على وجهي نوعًا من الثقة، على الرغم من عدم إدراكي لمعظم التعريفات، لكن عددًا محترمًا دخل

العقل، من مقولات وكلمات ظاهرها نخبوي أستطيع استخدامها مع الزبون المهتم بالموضوع، والزبون هنا زبون المكتبة أو «مشوارك»، لأكون بعدها نقطة اندهاش مضيئة في دواخل تفكيره، فيكتب عني مثلًا منشورًا ملخصه هو إعجابه الشديد بالمتدرب المثقف جدًّا، أو سائق «مشوارك» المثقف الذي يعمل لكسب لقمة العيش، وكيف أنني مثال للمظلومية المحلية.

بقبح مفضوح، علمتني مهنة مندوب المبيعات، والقيادة طبعًا، كيفية استغلال الفرص.

مع وصولي إلى المكتبة صباحًا، وجدت رصة كتب خارجية وضعت فوق حامل مصنوع من الخشب العتيق، عُلِّقت أعلاها لافتة رخامية سوداء مكتوب عليها بنقش ذهبي: «أعمال شهداء البستان»، وبثينة تقف أمامها، لم تتكلم نهائيًّا، اكتفت بالوقوف كأنها ترسل إليهم تعازيها، أو تطلب منهم الصفح والمغفرة بعدما قتلهم الإرهاب غدرًا.

سألت بثينة عن رأيها في استشهاد الأدباء، كي تزداد معلوماتي ثقلًا بآرائها، لتعبر عن حزنها موضحة: «مكتبات الحدود قررت تعرض كتب الشهداء مجانًا مع أي طلب شراء من المكتبة، حتى لو القارئ دخل يشتري كتابًا بعشرين جنيهًا، له حرية اختيار عملَين من أعمالهم، ولما شرحت لك موضوع إن القائمة دائمة التحديث، عرفنا أن أسماء مؤلفاتهم ستتم طباعتها على قائمة مخصوصة من ورق الذهب، وفاءً لدورهم في الدفاع عن مكان يحبه أهل الثقافة، وأعتقد أن دورنا هو توعية القرَّاء بأدب الشهداء، لأن فعلًا أغلبيتهم كانوا ممتازين، الله يرحمهم».

لم تكن الإجابة متوقعة، لكن على أي حال، الله يرحمهم فعلًا كما قالت. بعد حديثنا القصير، استبدلت ملابسي بسرعة ومشيت خلفها هي ونديم لنركب عربة المكتبة، وعرفت من شاشات العرض الداخلية بالعربة أننا سنتجه إلى مكتبة بالمعادي تبيع الكتب المستعملة، صاحبها قرر إنهاء حياتها بعد التعرض لخسارات متتالية، وعدم تمكنه من دفع الإيجارات ومرتبات الموظفين والفواتير.

خلال مشوارنا من باب اللوق إلى المعادي، لم تكلمني بثينة، وأكل دماغ أمي نديم، بحكاياته عن المكتبات التي بيعت، فقط بسبب وجود كتاب واحد لنجيب محفوظ، وبقية الكتب وزعت بين المحافظات، وبعد وصلة توصيات بضرورة قراءة الفاتحة قبل كل اقتحام لفلترة المكتبة، تمنى لي يومًا جميلًا، وأن أعثر على كتب تخص الأديب، لتكتب في التقرير النهائي وتزيد من تقييمي، وينزل المرتب محملًا بأصفار الألوف المحببة.

على الرغم من محاولات نديم لاكتسابي كصديق، فإنني أصده معظم الوقت، ليس كراهية في الصداقة، بل المسألة تتمحور حول غباء نديم، شكله الساذج، مشيته المضحكة، كلما أراه أقول سبحان الله، أول مرة أقابل نكتة ماشية بيننا! ومع ذلك لم أكن قاسيًا معه، شعرت كثيرًا بوحدته وبضآلة كينونته قبالة شخصية بثينة، يذكرني بنفس معاناتي مع وزني غير المحسوب أمام ياسمين شاهين، رائدة النسوية.

المكتبة بشارع ٩ الشهير، موجودة في الهواء الطلق، بلا سقف، أرفف من الكتب محاطة بأشجار ونباتات المعادي، وأرضية بلاط

تحتفظ بالطراوة، فلا يحتاج مالك المكتبة لشراء تكييف! والمالك في أواخر الثلاثينيات، اسمه هاني فوزي، طويل وجسده رياضي، ملامحه حادة، شعره قصير، يمكنك ملاحظة آثار الخياطة لجرح قديم من سنوات في جانب رأسه، بصحبة وشم للصليب كتب أسفله: «الله محبة». وللأمانة، فشلت في العثور على أي شبه بينه وبين أهل الفن كعادتي.

أوضح هاني أن كل المحيطين به لم يصدقوا واقعة بيع المكتبة، وتعجبوا كيف تغلق المكتبة المنافسة لأشهر مكتبات وسط البلد، لكنه مقتنع بوقوع مؤامرة مشتركة بين المكتبات المعروفة، وإقناع زبائنها بعروض خاصة تنافسية، مما صعب المهمة على مكتبته، وأشاد بنجاح خطتهم معترفًا بهزيمته أمام اتحاد المكتبات الكاسح، ليقول نديم: «طيب، حضرتك لاحظت أنك اتصلت بشركاء المؤامرة؟ يعني ساعدنا في قفل مكتبتك، ومع ذلك كلمتنا؟ فيه شخص عاقل يطلب مساعدة من المنافسين!».

انتبه نديم لسخافة رده بمجرد رفع بثينة لنظارتها، ليخرس ويترك المجال لمديرته، فتعلق على كلام هاني: «أستاذ هاني، مكتبة "ترويسة" من أهم مكتبات المعادي، تاريخ كبير وقديم من أيام والدك ربنا يمجد سيرته، لكن أحب جدًّا إني أوضح لك حاجة بمنتهى الأمانة، مكتبات الحدود عارفة إن المنافسة موجودة بينها وبين المكتبات المؤسسية فقط، حضرتك طبعًا عارف معنى المكتبات المؤسسية، آسفة لو ضايقتك بكلامي، أكيد مجهودك يشكر، لكن حضرتك لما تقول منافسة بين مكتبة استثماراتها بالملايين، ومكتبة أرباحها قائمة على

ملاليم الكتب المستعملة والفواتير الآجلة لدور النشر، تبقى إهانة لسمعتنا! عن إذنك، واضح إنك عاوز تعمل لقطة، والموضوع بعيد عن البيع أصلًا!».

تفاجأ هاني بجدية بثينة، ليعتذر فورًا عن كلامه، ويؤكد وقوع سوء فهم بيننا وبينه، موضحًا أنه يدرك جيدًا قيمة مكتبات الحدود، وأن ذكرها جاء تبعًا لجملته «أشهر مكتبات وسط البلد»، وليس لاشتراكها مع المكتبات الأخرى في المؤامرة.

ابتسمت بثينة، وعرضت قبول اعتذاره مقابل تخفيض المبلغ المطلوب، ولم تنتظر موافقته أو رفضه، مشيرة إلينا ـ أنا ونديم ـ ببدء عملية الفلترة، والبحث عن الكتب المتاحة في القائمة.

لكثرة الكتب الموجودة، عرضنا فكرة ترضي جميع الأطراف، سنرفع الآن الكتب الموجودة في قوائمنا، وسنرسل إليه مقطورة ضخمة غدًا أو بعد غد، لتحميل بقية الكتب، مع دفع المبلغ بالكامل، وإذا جاء زبون يشتري كتابًا من الكتب المعروضة، يهديه إياه مجانًا، لأنه قبض ثمنه سابقًا منا، ليوافق هاني شاكرًا إدارة مكتبات الحدود على كرم عرضها.

شرعت في إطلاق صرخة لما لمحت رواية نجيب محفوظ «الكرنك»، قلت الحمد لله، بداية مثالية. ثم تبعتها نسخة نادرة من الأعمال الكاملة لنجيب محفوظ في عشرة مجلدات بغلاف صلد، لونها ما بين الذهبي والكموني، تتوسطها صورة الأديب مبتسمًا، واسمه بخط ذهبي كبير واضح، وتتابعت أعمال الأديب بشكل غريب، لأرى فوق دماغي لافتة مكتوبًا عليها: «أعمال نجيب محفوظ»، وعلى

HTTPS://T.ME/WAT2025

الرغم من أنها واضحة، وكان يقف نديم تحتها، وهو نظره أساسًا ينافس الصقر، ففهمت أنه تركها لي، لأشكره بنظراتي الممتنة على نبل تصرفه، ليضع السبابة والوسطى بجانب جبهته، ويرسل تحية كتحية العساكر.

قبل كرتنة الكتب، وقفت بثينة أمامي وطلبت فتح الكرتونة الموضوعة أسفلي، نفذت أمرها حالًا، لتخرج من الكرتونة كل نسخ رواية «الكرنك» ورواية «الحب تحت المطر»، وتضعها بنفسها في كرتونة «يُعدم». تعجبت من فعلتها، وقلت: «يُعدم! أعمال نجيب محفوظ تُعدم!». تجاهلت صدمتي مبتعدة.

بعد الانتهاء من دورنا ورفع الكتب، رجعنا إلى العربة، وتحركنا متجهين ناحية الفرع بصيد ثمين، وحسب كلام نديم، ستُكتب تفاصيل الزيارة في تقرير، قد يكون هو السبب الرئيسي في الحصول على مبلغ محترم كحوافز ومكافآت، إلا أنني لم أقدر على نسيان قرارها بإعدام كتب نجيب محفوظ، وأردت فهم السبب وراء وضع «الكرنك» و«الحب تحت المطر» في كرتونة يُعدم، كيف وهما ضمن القائمة المطلوبة!

انتظرت حتى تنتهي بثينة من شلال مكالماتها التي لا تنتهي، وسألتها عن المسألة.

تنهدت وأشعلت سيجارة، لتفصص الموضوع: «من بين روايات الأديب رواية «الكرنك» لها وضع خاص، نجيب محفوظ كتبها لما سمع معاناة المسجونين والمعتقلين في سجون جمال عبد الناصر، يومها كان في مقهى ريش، والحكايات أحزنته جدًّا، وكانت الحافز

إنه يكتب روايته، خصوصًا مع اعترافه أن الأدباء لن يكتبوا عن المسجونين بسبب الرهبة أو الخوف من التعرض للأذى، وهو شاف الكتابة عن الحكاية مغامرة كبيرة، ونجيب عاشق للمغامرات، وعلى الرغم من أنه لم يتعرض للاعتقال، لكنه وصف الموضوع بخياله وموهبته. لما كتب العمل، عرضه على عبد الحميد جودة السحار لنشره في مكتبة مصر، ووقتها الأسلوب المعروف لنشر الرواية هو إن دار النشر تجمع الرواية وعلى طول إلى الرقابة، وساعتها الرقيب كان طلعت خالد، وكان يتصل بالأديب يوميًّا، يخبره بتطورات القراءة، مع ضرورة حذف جملة أو إعادة كتابة فقرة، مع الاعتراض طبعًا على آراء معينة، وفي الآخر طُبعت الرواية، ليكتشف الأديب أنها نسخة مشوهة من كتابته، وأن الأصل مختلف تمامًا عن المطروح في المكتبات، والله يرحمه حاول يقنع السحار بسحبها ووقف نشرها، لكن السحار قدر يقنعه إن وقفها يعني خسارة مادية كبيرة، ولو حابب يسحبها يبقى يتحمل التكاليف المادية، فالأديب استعوض الله في النسخة المشوهة من كتابته. نفس الكلام ينطبق على رواية «الحب تحت المطر». فبسبب النقص والتشويه والتغيير في العملَين، لا نعتبرهما كتابة نجيب محفوظ، لأنهما كتابة الرقابة والمشي في الأمان، وللأسف حاولنا بكل الطرق الوصول إلى النسخ الأصلية، لكن فص ملح وذاب، وإن شاء الله لما نرجع الفرع، نديم سيناولك القائمة المستبعدة. وعلى الرغم من كل شيء، الله ينور، مجهودك اليوم يحسب لك، وحظك الحلو رماك في أحضان مجموعة كاملة لنجيب محفوظ، يعني في علاوة محترمة إن شاء الله في الطريق!».

٤

بعد انتهاء دوامي بالمكتبة، فعلت تطبيق «مشوارك» متجولًا بالسيارة في محيط القصر العيني والمنيل، وما زال موضوع شهداء البستان حاضرًا، سواء على ألسنة الركاب أو في الإذاعة، والموضوع يتصاعد بين المثقفين والحكومة، ولا نعرف إلى أي مدى قد تتفاقم الأزمة.

الحديث الوحيد اللافت للنظر، والذي أربك حساباتي، ظفر به عجوز رأى الحكاية من زاوية مخيفة ساعدتني على ربط الأحداث بشكل منطقي، وعليَّ الاعتراف بأنني فعلًا ظهرت ضئيلًا أمام ثقافة الرجل وسنوات خبراته.

العجوز اسمه إبراهيم عزوز، نسخة قريبة الشبه من الممثل محمد متولي، وطلب توصيلة من حارات ضيقة بشارع رفعت المقابل لشارع سوق الغمراوي بمنطقة المنيل، قدت داخل شوارع مهانة، أسفلتها زهق لكثرة التكسير، إلى أن باركنا الرب ومشينا فوق طرقه السليمة متجهين إلى ميدان الرماية بالهرم، وكمحاولة مني لكظم غيظي حتى لا أشتم أمام العجوز، شغلت المذياع.

طبعًا برامج الراديو كلها تتكلم عن أدباء مصر المقتولين غدرًا، شهداء البستان، ابتسم العجوز محدثًا نفسه بصوت مسموع: «الله يرحمهم، عملية تصفية ناجحة، وكبش الفداء موجود، حركة معلم ما يعملها إلا داهية قلبه حجر، عارف قيمة الدوس على كل حاجة وقت المصلحة! فعلًا، صاحب دماغ داهية!».

HTTPS://WWW.AYAT2025

أخفضت صوت الراديو، وسألته عن رأيه في المسألة كلها مستفسرًا عن سبب قيام صاحب الدماغ الداهية بذلك، فأنار بصيرتي بكلام قد يضربك في صميم معتقداتك: «طبعًا، الموضوع له حسابات يعرفها أهل اللعب من تحت لتحت. من أول أيام التظاهر ومعروف إن كل مثقف واقف بطوله، وأي سلاح ظهر يبقى اندساس من أي شخص، غرضه واضح وصريح، تفرقة المظاهرة بأي شكل! عارف؛ إن سألتني عن تصفية المثقفين، أقول لك بحكم خبراتي كواحد من أقدم الباحثين الميدانيين تخصصه في سنة من السنوات كان حصر عدد المكتبات وكشف ملابسات إغلاق عدد محترم منها، فأحب أقول بكل أريحية إن فيه واحد صاحب دماغ داهية - الله يسامحه - قال كفاية ثقافة، ورفض التجديد خوفًا من أفكار الكُتَّاب والأدباء الجدد! من زمان والرقابة عارفة معتقدات أدباء العصور القديمة، وتعشق كل كاتب يمشي بجانب الحائط، والأمر كان واضحًا وضوح الشمس، لما كنت أدخل مكتبة أسأل عن كُتَّاب بعينهم فلا أجد كتبهم أو كتبًا معينة، لكن الكُتَّاب الآخرين، أحباب الرقابة والابتعاد عن المشاكل والجدل، متوفرة كتبهم وتعاد طباعتها ما دامت الكتابة بحساب، والشطحات غائبة! الأمر يا أستاذ أنها فرصة وقدمها المثقفون بحسن نية على طبق من ذهب إلى صاحب الدماغ الداهية، وبعد استخدام البصاصين ولجان العصافير، ومعرفة أسماء الواقفين أمام المقهى، والتأكد من غياب أحبابه، صدر الأمر فتمت تصفية الباحثين عن الحق والتجديد، في سبيل خلود أبناء الكتابة الماشية بجانب الحيطان. مع الوضع في الاعتبار أن كُتَّابًا معينين لو غابت كتبهم فقد تحدث كارثة

تطير فيها الرقاب، مثل نجيب محفوظ والسباعي ويحيى حقي والعقاد وغيرهم، هؤلاء أعمدة الكتابة، خصوصًا أديب نوبل، لو كتبه اختفت أو تناقصت، يا نهار فوضى! إنما الكُتَّاب الضحايا؟ عادي؛ يروح كاتب سيجيء عشرة! ركز في النقطة التالية، الله يبارك لك، الكُتَّاب الضحايا؛ بالنسبة لصاحب الدماغ الداهية؛ فئران ثقافة، صوتهم ضائع وسط مشغوليات يومهم والجري وراء لقمة العيش، وهو المطلوب يا ابني! شيء طبيعي، تلاقي الكاتب مهموم بالمصاريف، يحب الكتابة آه، وأفكار جديدة لانج، لكن صاحب الدماغ الداهية وصفوة الناشرين والمجتمع ضد وجوده، فيبدأ توزيع السيناريوهات، الكلام المحفوظ، التهميش، التجاهل، قفل أبواب المصلحة، فالغلبان يجري يشتغل بالعشر ساعات، مسكين عنده أورطة عيال وعائلة في رقبته، إذا سألته عن عمله الأجدد يقول لك: «أكتب تخاطيف أو وسط يوم يبان ظريف!»، وغيره لو سألته نفس السؤال، يقول لك: «ملعونة الكتابة! الواد ابني عيان ومحتاج علاج بالشيء الفلاني، تقول لي كتابة! عاوزني أقول للدكتور نعالج الواد بعتبات النص وحبكة العمل! يا أخي سيب الواحد في حاله، بلا كتابة بلا هم!». نهايته، كل كلامي يا ابني هدفه واحد؛ صاحب الدماغ الداهية قتل مثقفي بلدك بدم بارد، بمصلحة التخلص من صداع الأفكار، ومبدأ قتل التمرد على الظلم والأفكار القديمة، وسفك الفكر التنويري، قتلهم بصيغة استنكارية، تقدر تحفظها يا ابني، وإياك تنساها: «من يحتاج إلى كُتَّاب جدد وقد كتب نجيب محفوظ كل شيء؟»».

نزل الحاج إبراهيم عزوز، وأخذ معه كل تلميحات السابقين إلى

نظرية المؤامرة ورماها في زبالة التفكير العقلاني، نزل ثم رجع بعد دقيقة معتذرًا عن عدم دفع المطلوب، والصراحة من المعتوه الذي قد يأخذ أجرة من شخص لخص له حكايات أجيال من الكُتَّاب في مشوار مسافته بين المنيل وميدان الرماية؟

مع انقضاء اليوم وركن السيارة أسفل المنزل، شعرت بإرهاق مستفز أجبرني على الخضوع، كي تتلقفني كوابيسي أثناء فترتَي النوم بلا رحمة، فحافظ كابوسي المعتاد على ظهوره في فترة نومي الأولى، بنفس التفاصيل، أيهم والزبونة وزوجتي وبرج القاهرة والناس الملمومة حولي.

أما في فترة النوم الثانية، فزارني الأديب بشكل مفزع، كنا نجلس في فرع المكتبة فوق رصة كتبه، يدخن سيجارة ويمينه تهتز، مع وجود سكين مرشوقة ومستقرة بين كتفه ورقبته! أي نعم الدماء تسيل، لكنه يستمتع بأنفاس السيجارة من دون الالتفات لأي ألم قد يعكر مزاجه.

لم يرعبني فقط شكله، بل نبرة صوته الأشبه بالنبرات التكنولوجية التي يستخدمها مهندسو الصوت لإضفاء طابع الرعب على شخصية تلعب دور شيطان، مع ظهور نافورة دم بين الحين والآخر، كأنها تذكير بسيط بوجود الجرح.

أمسك نجيب كتابَين: «قلب الليل» و«حضرة المحترم»، وابتسم وهو يتأملهما قائلًا: «ينبغي أن أذكر بأن طبيعة العصر الذي نعيشه بالأعصاب المرهقة، أصبحت تقضي على الكاتب بالإيجاز والتركيز. وهو ما يبرز بوضوح في «حكايات حارتنا» التي كتبتها لمن يقرأ في الأتوبيس المزدحم، أو من يجري مثلًا من الجمعية التعاونية

إلى الجمعية الزراعية. إنني أتساءل حقًّا، هل بيننا اليوم من يطيق وهو يبحث عن الغذاء والكبريت والشاي وغيرها، أن يجد وقتًا أو أعصابًا لقراءة الثلاثية؟ إذا كان القارئ لا يطيق، فالكاتب مثله تمامًا لا يطيق!».

بسلاسة وخفة وتعامل عادي مع الأمر، سحب نجيب محفوظ السكين من مكانها ورماها أرضًا، ثم مشى بين الكتب، يمسك هذا ويترك ذاك، ثم قال: «رشح لي كتابًا من أدباء العصر، أحب أعرف الأدب وصل إلى أي درجة!». كان يمشي خلفي، وبعد كل خطوتين يسقط على دماغه، فأساعده على الوقوف، فيتزايد الدم الفائر من كتفه، ويزامل نافورة الدم خط آخر يمشي ببطء فوق وجهه، أناوله علبة المناديل فيضعها جانبه ويسقط مجددًا، وأساعده على النهوض، ويتكرر الأمر عدة مرات.

اقترحت الجلوس أرضًا كي لا يرهقه المشي أكثر من ذلك، ساد الصمت، أسمع حشرجة صدره، يسعل ويشرب سيجارته، ثم يتبعها بفنجان قهوة، لا أعرف من أين جاءت، ويسألني: «اعذر جهلي، محسوبك نجيب محفوظ، وأعتقد أنك زائر الليل، صح؟». لم أفهم ما يقصد، لكنني قلت له نعم إنني زائر الليل وتحت أمره في أي شيء يطلبه، فطلب مني مساعدته للوصول إلى مكانه المفضل، أمام النيل.

بعد معاناة غادرنا الفرع، مشينا، كنت أقود مسيرتنا، يتبعني، لا يعترض إن مشينا يمينًا أو يسارًا، يغمض عينيه ويفتحهما بحركاته اللاإرادية ونظراته التائهة، علق على الأماكن حولنا: «البلد تغير جدًّا! الواحد شكله غاب فترة طويلة!». تقريبًا لمح الأديب حيرتي

HTTPS://T.ME/ZRWAYA 2025

في التعرف على أي اتجاه نسلك، يتعجب: «زائر الليل ولا تعرف مكاني المفضل! حاجة غريبة جدًّا!». لنتوقف أمام إشارة ميدان التحرير، حيث تمر السيارات مسرعة، فيقول: «في هذه اللحظة من العمر أرى أنني أقمت حياتي على أساس الحب، حب العمل، وحب الناس، وحب الحياة، وأخيرًا حب الموت!». ويدفعني مجددًا تجاه مقطورة، لأستيقظ لاعنًا غدر الأديب.

٥

استقبلني الصباح باهتزاز هاتفي، لأجد التذكير الأسبوعي بموعد الجلسة، بعدها خرجت من السيارة متوجهًا إلى الكشك، عازمًا على شراء ساندويتشات دومتي وعصير وزجاجة ماء، فتمدني وجبتي التي لا تتغير منذ رحيل أيهم واختطاف ياسمين، بالطاقة اللازمة لتحمل دوام المكتبة الصباحي.

غسلت وجهي في غرفة عم بدر البواب، وطلبت منه الصعود إلى منزلي لإحضار سترة شتوية ثقيلة، مصنوعة من القطيفة السوداء، أهدتني إياها ياسمين في عيد زواجنا الأول، لتحميني من برد الشتاء وتقلبات مناخه.

تحركت بالسيارة، وطوال طريقي من ميدان لبنان إلى باب اللوق ومنظر الأديب المرعب لا يفارقني، تأملت ملامحي في المرآة الجانبية، على الرغم من اختباء شكلي خلف النظارة، فإنني أرى

HTTPS://T.ME/ARIWAYA2025

وجهي بكامل معالمه، سألني انعكاس صورتي: شتمت الأديب في البث المباشر لزوجتك، وتعرف أن حبيبتك المخطوفة تكرهه، ومع ذلك تعمل في مكتبة مشروعها نجيب محفوظ؟

بررت موافقتي وفقًا للوعد الذي غازلني به الزمخشري، وارتضيت بكل متاعب المهنة من نقل كتب وكرتنة، وثقل دم نديم وجبروت بثينة، ومزاولة مهنة أخرى معها، كل ذلك في سبيل تحقيق ظهوري الإعلامي، وتحويل اختطاف ياسمين إلى قضية رأي عام، ثم أضفت على كلامي مع ذاتي أن استغلال المصالح بكل الطرق الممكنة من سمات الرجل الذكي، الذي يباركه الرب ويجعله يد التطهير الكاسحة، ليحقق مصالحه وخططه المقدسة، فلا يشغل باله بفلسفة المبادئ والإيمان بالقناعات.

عند وصولي إلى الفرع، قبل موعدي بربع ساعة، استقبلني المدير بنظرات غريبة كلها شك وريبة، واصطحبني إلى غرفة تغيير الملابس وهو يسألني عدة أسئلة، شعرت بسببها أنني في تحقيق؛ كيف تعاملني بثينة؟ نديم شخص لطيف أم بارد؟ ما رأيك في قسم المشتريات؟ كم كتابًا يجب الحفاظ عليه؟ ثم تركت الأسئلة منحنى التقييمات، وانتقلت إلى هاتفي، تحديدًا مدى كفاءة تطبيق التوظيف معي! سألته عن أي تطبيق يقصد؟ ففهم من الاندهاش المفاجئ أنني أجهل وجوده، ليفتح هاتفه ويريني فخر سلسلة مكتبات الحدود، تطبيق «لا حدود»، الذي يعرض ساعات عمل الموظف، أيام الإجازات المتاحة، الأداء العام والملحوظات، الخصومات والحوافز والمكافآت، وخاصية أشبه ببصمة آلية منذ دخولك إلى فرع المكتبة، تسجل حضورك،

وتتبع كل خطواتك، فلا تترك مكانًا قصدته إلا وتحفظ بياناته، ووقت المجيء والمغادرة.

ثبت التطبيق على هاتفي، وابتسم لائمًا الرقيقة بثينة، لأنها في خضم مشغولياتها وكفاءة أدائها الوظيفي، تغافل تركيزها عن معلومة في غاية الأهمية كتلك. وضح سبب تثبيت التطبيق: «المفروض مع بداية شهرك الثاني، نبدأ في استخدام التطبيق معك لنضع به بيانات الشهر الفائت، مع حساب ساعات عملك في الشهر الجديد بدقة متناهية، أنت حاليًّا في منتصف تدريبك، انتهى شهر الدلع وبدأت الجدية!».

استبدلت ملابسي وهو يحدثني، وتعرفت على خانات التطبيق ومواصفاته، وقبل مغادرة صفحته الرئيسية لاحظت جملة مكتوبة بجانب اسمي، متدرب بقسم البيع! استفسرت عن المقصود منها، وهل هذا خطأ أم حقيقة، ليجيبني بثقة: «الأمر في يد الإدارة والله، التدريب عندنا ثلاثة أشهر، أول شهر في قسم، الثاني في قسم مختلف تمامًا، والشهر الثالث كوكتيل، يوم هنا ويوم هناك، وفي النهاية، حسب نقاطك وتقارير المسؤولين، نعرف هل سيادتك بائع شاطر، أم مندوب قسم مشتريات لماح، يدخل البيوت ويساعد في فلترة الكتب في ثوانٍ!».

توقف المدير كثيرًا عند جملة «يدخل البيوت»، وأعادها أكثر من مرة، ثم ظهر شخص أسمر يشبه الممثل الراحل عبد الله محمود، أطول منه قليلًا، عرفه المدير باسم علاء، ليصطحبني إلى الأسفل في معية بثينة، من تراقبني بنظرات استهزاء، وهو ما يجنني في معاملة

HTTPS://WWW.RIWAYA.NET 2025

بثينة المتغيرة دومًا! تارة تعاملني برفق ورقة، وتارة أخرى تتأملني بكل قرف الدنيا!

حدثني بحماس معقول عن قسمي الجديد: «أنا علاء الشامي، مسؤول قسم المبيعات في الفرع، أكثر قسم الحسد نافخ سنينه بسبب مرتبات ومكافآت موظفيه! الموضوع بسيط، مرتبك مع نسبة من الأرباح الشهرية من الكتب المبيعة، تحت اسم سيادتك، وتبقى أمه راضية عنه من يبيع أعمال نجيب محفوظ بصورة أكبر! والله وبلا مبالغة يقدر يشتري عربية موديل حديث بعد سنة!».

ناولني شارة عليها كلمة «متدرب»، ومشينا بين الكتب، يخبرني أنه سيعلمني كل شيء، بداية من حديثي مع الزبائن، مرورًا بالترشيحات واقتناص الفرص لعرض الكتب الأفضل من ذائقة الزبون، وصولًا إلى تحقيق الأرباح الخيالية التي يحسدهم عليها بقية الموظفين، وبائعو الكتب في المكتبات الأخرى! بصراحة، عودتني طبيعتي على مبدأ مهم، إذا ابتسمت الحياة لك فجأة، فلتستعد لكل المصائب!

علمت أنني سأقف بجانب كل بائع لمدة ساعة، أتعلم منه كيف يرشح الكتب وكيف يتكلم عنها، ثم أمرني بعدم مفارقة الابتسامة لوجهي، حتى بعدما شرحت له أنني أب مكلوم، مات ابنه واختطفت زوجته منذ أربعة أشهر، ربت على كتفي قائلًا: «بالعكس، أنت المفروض تبدأ تنسى أحزانك! الوظيفة فرصة ممتازة ووسيلة تشتيت لعقلك عن كل الحزن والتساؤلات! حاول، صدقني الحكاية كلها في يدك!».

تركني بابتسامة ريثما أوقفني بجانب بائع، وبعد عدة مراقبات

لهم، لاحظت أن كل الذين وقفت متابعًا طرق بيعهم للكتب لم تخرج ترشيحاتهم عن نجيب محفوظ، وإذا طلب القارئ الابتعاد عن الكلاسيكيات، ظهرت قائمة لا تتغير لمجموعة كُتَّاب معاصرين، ولكن بحماسة أقل وأسلوب كلام يعبران عن عدم اقتناع، ليعود القارئ مجبرًا لسيرة الأديب، فتنتفض الطاقة داخلهم مجددًا، ويبدأ الحديث عن مدى عبقرية الأديب في خلق شخصيات حية، عجز كُتَّاب آخرون عن الاقتراب من محاكاتها.

في أثناء انشغال الموظف مع قارئ متمرس، اقتربت قارئة تسألني عن كتاب خفيف يمكنها الاستمتاع به في طريق سفرها من القاهرة إلى العين السخنة، وطبعًا بعدما عرفت أنني متدرب، اعتذرت عن اقتحامها المفاجئ، لكنني رشحت لها، وفقًا لكلام البائعين عن الكتب الخفيفة التي تحمل أثرًا عظيمًا، كتاب «حكايات حارتنا»، وسحبته من أمامي عارضًا محتويات الكتاب بثقة أُحسد عليها.

قرأت البنت مقتطعًا عشوائيًّا بصوت مسموع: «القطة الأم مستلقية على جنبها مترعة الحلمات والصغار تتلاطم مغمضة الأعين في حضنها...». أحبت المكتوب، وقالت إنها سعيدة لكتابة الأديب عنها، فهي من عشاق القطط، وخطفت الكتاب، ليصفق علاء ويقول بعد تأكده من مغادرة القرَّاء ورجوع المكتبة إلى وضع الخلو المؤقت: «أول كتاب للمتدرب الجديد! «حكايات حارتنا» لنجيب محفوظ! أسمع كلمة «عاش» تهز حيطان المكتبة!»، ليهتف الجميع مع تصفيق حاد، ويكافئني علاء الشامي بمظروف داخله خمسمائة جنيه وقسيمة شراء بنفس القيمة، قائلًا: «كتاب واحد

يساوي باكو! الوضع العام مختلف طبعًا، لكن مكافأة خيالية في أول يوم لك بالقسم هي التشجيع الأمثل! استمر يا وحش! أنا نظرتي فيك شكلها صح!».

لماذا ضاعت مني السنوات وأنا بعيد عن هذا العالم؟ ضاع العمر بين خدمة العملاء، قيادة السيارة، بيع الدراجات، وكانت أمي تعرف رفاهية الثقافة، الله يرحمك يا أمي فعلًا، لطالما حاولت دفعي تجاه حب الكتب بكل الطرق الممكنة، لكن من الواضح أني كلب فلوس، وورثت حب المال عن أبي، والموضوع كان يحتاج منك إلى دفع خمسة جنيهات مثلًا مع كل كتاب.

تفاجأت بكريم يدخل من باب المكتبة، حياني بابتسامته الهادئة، وقبل سؤاله عن سبب مجيئه، تداخل مع المشهد عبور رجل يشبه المساجين، أصلع وأعور، قصير، جسده مترهل، تسمع صوت أنفاسه المتلاحقة، وحشرجة صدره من على بعد، يرتدي الزي الرسمي، يمشي بصعوبة ليقف أمام المدير الذي رافقه إلى الخارج في مشهد عبثي، حيث إن المدير احتضنه قائلًا: «عفارم عليك!» بصوت مجلجل تسمعه وأنت بالداخل، فسألت علاء الشامي، بدافع من الفضول، عن وظيفة الأعور القصير، والصراحة صدمني رده: «عم زيطة؟ صانع العاهات يا ابني!».

مع نظراتي المتعجبة من ثقة إجابته، صحح معلومته: «تصدق نديم طلع عنده حق فعلًا! أي شخص ممكن يخدعك بسهولة! عم زيطة، صانع الساعات، من نجوم قسم الهدايا، المؤسسة فيها قسم هدايا من أجل القرَّاء وكبار الشخصيات، من ضمن موظفي القسم

عم عادل زيطة، أجدع واحد يصنع ويفكك ويجمع أجدعها ساعة، ويحولها إلى ماركة خاصة بالمؤسسة!».

٦

غادرت بصحبة كريم بعد انتهاء ساعات العمل، وبمجرد خروجي ظهر إشعار فوق الشاشة لتطبيق «لا حدود» يودعني ويتمنى لي يومًا سعيدًا، سألت كريم عن وجهته، قال إنه مستعد لعقد جلستنا الآن في أحد المقاهي الشعبية، بسبب ارتباطه بموعد إحضار ابنه من حضانته بالدقي، لذلك زارني في المكتبة لتوفير مشواري إلى شبرا، وحفاظًا على وقته، واختتم مقترحه قائلًا: «صاحبك جدع عارف قيمة الوقت، ولو أنت مشغول، يبقى نتقابل في العيادة عادي!».

اندهشت لما عرفت بزواجه وأبوته، ثم أدركت أنني من يتكلم دومًا وهو يسمعني فقط، فكيف سأعرف؟

تسعدني كلمة «صاحبك» كلما رددها كريم، لم أسمعها طوال حياتي، تشعرني باحتمالية وجود القبول تجاهي داخل قلوب الناس، خصوصًا أن الجميع عاملني ككائن حي بظروف خاصة، يتفاعل واحدهم معي إذا لزم الأمر، غير ذلك فالسلامات من بعيد، والابتسامات المصطنعة أو الكلام بحساب هي المعاملة الرسمية بيننا.

اقترح كريم التمشية حتى نصل إلى مقهى بشارع منصور، وفي أثناء تمشيتنا ناولني سيجارة، فذكرته بكوني غير مدخن، ليكرر

عرضه موضحًا ضرورة التدخين، خصوصًا في حيز مكتبات الحدود: «نجيب محفوظ كان حريقة سجائر، وأعتقد أنك ملاحظ كله عندك يدخن، والله أعرف موظفين منهم غير مدخنين أساسًا، لكن الزمخشري يعبد السيجارة! ويكره غير المدخنين، فمن فضلك، خذ لك سيجارة أو اثنتين، دخنهما طوال اليوم، يا سيدي انفخ الدخان وريح بالك، فلا يكتب مدير الفرع في نقاط ضعف تقريرك النهائي أنك غير مدخن!».

سمعت نصيحته، أسحب النفس وأطرده قبل التغلغل إلى الرئة، فتحت موضوع التهديدات وخطف ياسمين، وأنني على وشك الانهيار فعلًا، وطالبته بالتفكير معي في هوية الفاعل ومن الذي قد يخطف أميرة تنتصر لقضايا المرأة مثل زوجتي العزيزة، فنصحني بممارسة تمارين التنفس طاردًا الأفكار السلبية خارج دماغي، وترك أمر القبض على الخاطف للمسؤولين، الذين قدمت لهم خدمة جليلة بتسليمي حاسوب حبيبتي: «لا تقلق! ياسمين شخصية مؤثرة ومهمة، وإن شاء الله قريبًا تطلع مع الزمخشري والموضوع يكبر جدًّا والتحركات تبقى أسرع!».

هدأ قلقي قليلًا لما ذكر موضوع الظهور الإعلامي، من دون تحدثي عنه، فشكرت الرب على عدم نسيانه لي، وفي طريقنا إلى المقهى، توقف كريم ليستقبل مكالمة، ولتتحول ملامحه من الهدوء والابتسامات إلى الغضب والانفعال، وبمجرد غلق الخط سألني: «أقدر أعتمد عليك في توصيلة للدقي؟ مدرسة ابني يامن كلمتني، في مشكلة كبيرة!».

وقفت بجانب صديقي، قدت إلى العنوان بأسرع ما يمكنني، وصلنا بعد ساعة إلا ربع بالضبط، ووجدنا ابنه مع معلمته، ركض كريم تجاه صغيره، حمله واحتضنه، يقبل رأسه ويده، يمسح دموعه، يردد: «لا والله! لا عاش ولا كان!».

وفي ظل انشغال كريم، سألت المعلمة عما حدث، فقالت إن زميلًا له مشاكسًا ومتنمرًا يضرب الأطفال كلهم معتمدًا على سلطة أبيه الذي يجيء إليهم بعد كل مشكلة يجعجع ويصرخ فاضحًا إدارة الحضانة بكمية الأموال التي يدفعها تحت بند التبرعات.

طلب كريم من المعلمة، بعد اعتذار لطيف، اصطحاب ابنه إلى الحضانة لنصف ساعة فقط، وتحرك مبتعدًا عني، ركضت وراءه مستفسرًا عن قراره، تجاهل سؤالي، يمشي محددًا هدفه، شعرت بوجود فكرة ربما يندم عليها لاحقًا، فمشيت بجانبه، لا أتحدث أو أثنيه عن فعلته، حتى وصلنا إلى توكيل بيع سيارات بالقرب من ميدان هيئة التدريس، ووقفنا أمامه.

بنبرة حازمة، يجتهد الهدوء في تغليفها، سأل كريم عن الحاج سعيد المهدي، ليشير موظف إلى مكتب الحاج، ويسأل من نحن، فيقتل كريم سؤاله بالتجاهل متحركًا تجاه المكتب، ويفتح بابه بلا استئذان صارخًا في الحاج سعيد: «اسمع، لو ابنك لمس ابني مرة ثانية، والله العظيم، ستندم على خلفته!».

هب الحاج واقفًا ملوحًا بعصا خشبية غليظة، تشعر بصداع إن اقتربت، فما بالك إذا ضربت!

تشابكت الأيدي فجأة، اجتهدت لفض الاشتباك أنا والموظفون،

HTTPS://WWW.REWAYAT2025

طلبت غلق باب المكتب كي لا تكبر الفضيحة ونجد الشارع بأكمله هنا، الكل في حالة اندهاش، من هذا الذي دخل يهدد، وما علاقة ابنه بابن الحاج، وأنا في المنتصف أحاول تخليص رقبة الحاج سعيد من يد كريم، أو ركل عصا الحاج بعيدًا فلا تصيب وجه كريم، وفي الوقت ذاته أشرح لموظف آخر، باختصار شديد، كيف ضرب ابن الحاج ابن كريم، لتصيبنا بالدوار موافقة تعريصية من موظف بار على أي شيء يفعله ابن الحاج، لأن الحاج وابنه يجهل الخطأ طريقهما! وما بين «الطيب أحسن» و«نسمع منه يا حاج» و«ابن الحاج مستحيل يغلط»، وظهور السباب وقوة الشباب، ظهر العم زيطة من حيث لا نحتسب، وصرخ بالجميع لتنحل العقدة.

ظهور زيطة غير مفهوم، كيف ومن أين جاء؟ التبرير الوحيد لمسألة حضوره العجيبة هو أن كريم هاتفه ليلحق بنا، وبعد السلامات بين زيطة والحاج سعيد المهدي، طلب الحاج من الجميع الخروج، وبقينا أنا وزيطة وكريم بصحبة الحاج الذي رجع خلف مكتبه قاعدًا على كرسيه الجلد، ماسكًا ذراع الشيشة.

برك زيطة على الأرض برك الجمال، يكره الجلوس على المقاعد، يفضل التواصل مع الطبيعة، ولع سيجارة، ناولها لكريم، ثم أخرى له، وبدأ في عرض الصلح بين سعيد المهدي وكريم، بعد توضيح أن ابن كريم طفل حالم، وابن الحاج سعيد ورث عنه الحزم والعنف.

تفاخر الحاج بمميزات ابنه، ووضح كم عانى ليحوله من طفل هادئ إلى طفل سابق سنه، يدرك أن أخذ الحق صنعة، ولا يقدر أحد عليه، وكلمته مسموعة، بفلوسه وفلوس أبيه، ومن يرفض عنده

HTTPS://WWW.2025

أقرب حائط! باستخفاف قابل زيطة تهديد الحاج، إذ إنه قام وأمسك هاتفه ووضعه أمام الحاج، فتغيرت ملامح المنتفخ، وكش وتضاءل عنفوانه، وسأل ما الذي يرضيهم ليمسح المقطع؟

تحدث كريم: «مقاطع ياما لشخص المفروض أنه معروف في سوق السيارات، في سريره مع بنتين، الحقيقة صعب أحدد العمر، لكن الشكل العام واحدة مثلًا عشر سنين والتانية نفس السن أو أصغر! تخيل يا حاج لما سمعتك في السوق تتحول من حوت الزيرو لحوت العيال! أنت متخيل يا حاج؟ وتأثير الموضوع على ابنك، بيتك، واسم محلك، تخيل يا أخي! المزاج كافر والله! إنما ما شاء الله عليك يا حاج، صوت البنات في كل مقطع واصل لآخر الشارع! فحل حقيقي!».

ضحك زيطة على تعليق كريم، لم تطِعني عضلات الضحك، وحرر الحاج شيكًا، تحت ضغط التنمر والفضيحة، بمبلغ يفوق المليون تقريبًا، في المقابل طلب من زيطة نقل المقاطع من هاتفه إلى هاتف الحاج، ثم مسحها من عنده ليحتفظ سعيد المهدي، حوت العيال كما وصفه كريم، بإنجازاته «الصغيرة»، متعهدًا بعدم لمس ابنه لابن كريم، وإن تكرر الأمر بعد اليوم فله الحق في فعل ما يشاء، فغادرنا المكان بشيك وانتصار وأمان لابن كريم، ورجعنا إلى الحضانة.

شكرني كريم على التوصيلة، ودفع ألف جنيه، استكثرت المبلغ ورفضت بمبدأ الصداقة، لكن عم زيطة حسم الأمر: «أكل العيش حاجة والصداقة حاجة، خذ الفلوس، المبلغ طالع من كرش الوسخ

بتاع العيال، أنت دخلت في حوارات بعيدة عنك، ضرب وخناقات، إنما وقفت وقفة جدعنة، والجدع يستحق التقدير!».

ثم وجه حديثه إلى كريم: «المهم، تحب ترجع في عربة المكتبة يا دكتور، ولَّا ترجع مع الأستاذ؟».

ترك كريم حرية الاختيار لابنه، الذي بعد عدة نظرات متنقلة بين عربتي وعربة المكتبة ركض ناحية الأخيرة فتبعه زيطة وسط ابتسامة كريم.

وقفة كريم تكشف نواياه، وذلك لأنه ظل واقفًا ينتظر شيئًا ما أو تعليقًا مني عما حدث مع الحاج الغريب، وفي عرض وجهة نظري الآن مخاطرة كبيرة، إذ ربما يفسد الخوف علاقة الصداقة بيننا، أو يتضخم الاندهاش أكثر، وأركض حفاظًا على حياتي كمكتبجي تحت التدريب، وقاتل مترصد بالمجاذيب.

كسر كريم حاجز الصمت: «الواجب والمفروض توضيح المسألة، وباختصار، أنا كلفت زيطة بمتابعة الحاج، كنت عاوز أمسك حاجة أقدر أستخدمها قدام جبروته، طبعًا أنا كان في مخيلتي أن يرجع زيطة لي بمخالفات مثلًا، لكن معارف زيطة ياما، قدروا وفي أقل من أسبوعين يسلمونا الملف الكامل لكل وساخات الحاج! أنا في الطبيعي أحب جدًّا الحلول والتفاهم والوصول إلى حل يرضي جميع الأطراف، لكن ما دام الموضوع دخلت فيه سيرة «يامن» ابني، فأنا كأي أب مستعد يعمل المستحيل، ممكن يعمل أي حاجة، بمعنى كلمة أي حاجة، لحماية ابنه! وشكرًا جدًّا إنك وقفت مع صديقك! حقيقي وقفة جدعنة، مستحيل أن أنساها

طول عمري! أما بالنسبة إلى جلستنا، فبعد إذنك نؤجلها، وستكون مجانية طبعًا بعد وقفتك معي!».

٧

فات شهر منذ واقعة كريم وسعيد المهدي، بدأ الشهر الخامس، يناير الحزين، لا جديد في الحياة، القاتل مجهول، زوجتي مختفية، الإعلام مشغول بشهداء البستان ويؤجل ظهوري، وإذا كتبت منشورات عن ياسمين تمسحها إدارة مواقع التواصل بعد حملة بلاغات نجهل منفذها، على الرغم من إرسال الاستفسارات اليومية لمعرفة السبب، والرد لا يأتي، وطبعًا النقيب لن يغير ردوده ويخبرني بأي جديد.

جولات البحث نتائجها واحدة، لم يسمع واحدهم عن زوجتي، مكالماتي لأهل ياسمين أصبحت عبارة عن برود تام، مختصرها: عندك جديد؟ لا. وأنتم عندكم جديد؟ لا. نتبعها بالترحم وقراءة الفاتحة لأبيهم، ثم رفض الدعوة المتكررة بضرورة الزيارة في أقرب وقت.

حتى شهر التدريب بقسم المبيعات، والتحدث إلى القرّاء، لم ينجح في قتل الحزن أو تخديره مؤقتًا كما اقترح علاء الشامي، يوميًّا يستدمع عينَي كل مرور لعائلة من أمامي، أب وأم وأطفال، أرى فيهم الحياة الدافئة بحلوها ومرها، بمشاكل المرتب الذي لا يكفي، وفرحة

HTTPS://T.ME/RWAYAT2025

الأطفال حين يرجع أبوهم بحلوى أو ألعاب، وأتخيل الأم تحتضن زوجها وتهون عليه أزمات اليوم، وقد ترد الروح لمزاجه حين تعده بليلة من ليالي العمر لما يأكل العيال الأرز مع الملائكة، وتجعله هو باشا عصره، فيأكل الأرز والملائكة والعيال إذا شاء.

أقف في المكتبة وسط الكتب وهمومي، منتظرًا القرَّاء، تدخل بثينة بفوج من القرَّاء الأجانب، تحدثهم الإنجليزية بطلاقة كأنها مواليد شوارع شيكاجو، ثم يلمحني علاء، فيقترب حاملًا كوب شاي وكتابًا مرشحًا إياه لتهدئة أعصابي والبدء في إعادة إحياء حياتي، كتاب «أصداء السيرة الذاتية» لنجيب محفوظ، وطلب مني ضرورة التركيز مع مقولات الشيخ عبد ربه التائه، لأنه سيؤكد على الصراع النفسي الموجود في دواخل الإنسانية، وعلى الرغم من ذلك سأشعر بمناجاة خاصة بيني وبين نجيب محفوظ، من خلال شخصية عبد ربه التائه.

شكرته على الكتاب والشاي، وقلت لنفسي: لن أقرأ لنجيب احترامًا لزوجتي! أتمنى من كل قلبي أن تكوني بخير يا ياسمين!

تركت الكتاب، وانتبهت للقرَّاء والبيع معاودًا الوقوف بجانب البائعين، أتابع الترشيحات، وأتعلم أصول المهنة، وأمارس ما تعلمته من مهارات بين الحين والآخر، وفي أثناء متابعتي لحركة البيع، لاحظت وقوف المدير محمود الحساني مع عدة أشخاص، ومن المظهر العام للنقاش يبدو أن خناقة كبيرة ستهبط على المكان حالًا.

كواقف في المنتصف بين جمال شرح بثينة الأجنبي لفوج السياح،

HTTPS://T.ME/RIWAYA2025

وشناعة الردح المحلي لمجموعة الحاضرين، نبهت علاء الشامي بنظرة عين وتوجيه رأس تجاه مكان المدير، ومع التفاف المجموعة حول الحساني كأنهم قبيلة على وشك شواء لحمه، تحرك علاء، وظهر عم زيطة بسيجارته وكرشه، يتبعهما نديم بمشيته المضحكة، لاحتواء الموقف والتخلص من العصابة الآتية، بأبهى صور التعامل الكلاسيكي المتحضر.

من بين الكلام الواقع الذي تستطيع سماعه بوضوح جملة «الحي أبقى من الميت»، ومع اصطحاب الحضور إلى الدور الأعلى ومرورهم أمامي، ثقبت أذني بمنتهى الجلاء جملة أحد المتجمهرين: «الله يرحمهم يا سيدي! لكن أعمالنا والله تستحق الظهور أيضًا!»، لتغيب المجموعة كلها عن نظري، باستثناء نديم الذي رجع ووقف بجانبي لينقل الأخبار كعادته.

يقول نديم إنهم كُتَّاب معاصرون نجوا من تصفية الشهداء، ووقفوا في المظاهرات، ومع ذلك لم تضع المكتبة كتبهم بجانب كتب شهداء البستان، وإنهم على أتم الاستعداد للترويج لفروع المكتبات باستخدام جميع الوسائل المتاحة، فهم يكفيهم فخرًا وشرفًا وجود الكتب فوق أرفف مكتبات استثنائية، مثل مكتبات الحدود.

لم أعلق، اكتفيت بالمشروح لي، لكنه أكمل على أي حال: «حركات أدباء نصف كم! الكُتَّاب العظماء، أمثال نجيب محفوظ ويحيى حقي وتوفيق الحكيم وغيرهم، كان شغلهم الشاغل الكتابة! بذمة النبي، عمرك تخيلت أن الأديب الكبير نجيب محفوظ ينزل ويسأل كتبي معروضة ولّا مرفوعة؟ والله العظيم الأدب المصري

في النازل طول ما أدباء السبوبة بين المكتبات، ناقص تسمعها منهم: «لله يا مكتبة! أي كتاب معروض ينوبكم الثواب!»».

انضم إلينا علاء الشامي متأففًا كارهًا اللحظة التي شاف فيها وجوههم العكرة، سحب سيجارة وتبادل النظرات مع نديم، لينسحب الأخير خارج الفرع، ويترك الصمت ثالثنا لمدة نصف ساعة، علاء يدخن وأنا أتابع حركة البيع والترشيحات.

سحبت كتاب «أصداء السيرة الذاتية» الذي رشحه علاء، ولم أفهم كلمة واحدة من المكتوب، ولم يتغلغل أسلوبه إلى روحي، وتقافزت بين الصفحات أهمهم وأتنحنح، أقرأ ما بين السطور بزهق وملل قائلًا: «أي كلام! ما هو أنتم يا أدباء كل واحد فيكم قاعد فوق برجه، وعمره ما نزل للناس وعرف همومها، والله الواحد نفسه يعرف فائدة وجود الأدب أصلًا! ما السينما والمسلسلات والراديو ياما علمونا! الواحد ناقص فلسفة وهم فوق دماغه! عبد ربه التائه! والله الواحد تائه خلقة!».

رميت الكتاب بعيدًا عني فوق رصة كتب للأديب، ومشيت تجاه كتب شهداء البستان أتأمل العناوين: «إعلان عن قلب وحيد» لمحمد حسن خليفة، «قبل الفراق بخطوة» لأحمد مدحت، «مقابر الأحياء» لضياء الدين خليفة، «القطيفة الحمراء» لبهاء عبد المجيد...

قاطعني صوت عم زيطة المزعج، يسألني هل رأيت من ألقى كتاب الأديب فوق تلك الرصة، لأجيبه: «أنا! كتاب ممل! خير يا عم زيطة؟ الكتاب يخصك؟ تفضله والله!».

ابتسم ورفع الكتاب مناولًا النسخة لعلاء الشامي، وبدوره وضعه

بجانب بقية النسخ المعروضة للكتاب ذاته، قائلًا بنبرة ساخرة: «كتاب ممل! تمام!»، فتظهر بثينة في الصورة، وتجذبني من ذراعي إلى خارج الفرع، وبمنتهى الغضب توبخني على حماقة فعلتي، فقد رآني الفوج السياحي وأنا أحمل كتاب أحد أهم أدباء العصر، إن لم يكن أهمهم، وألقيه بعيدًا متململًا.

لم يوقفها حزن ملامحي عن استمرارها في توبيخي: «يعني أنا واقفة أكثر من ساعة أكلمهم عن حب العالم لنجيب محفوظ، وسيادتك في لحظة طيش ترمي الكتاب بقرف! لا والمصيبة يا أستاذ أن واحدًا من الأجانب فرح جدًّا باللحظة الخاصة بينك وبين الكتاب، فالمسكين شغل كاميرته وبدأ يصور، وما شاء الله عليك، صدمته! والفوج كله متابعك، وبعد حركتك الماسخة الرجل قفل الكاميرا، والضحك واصل للركب جوه! حقيقي أنا أول مرة تفوت أمامي كتلة غباء مركزة!».

كدت أرد قلة القيمة إليها، لكن تدخل نديم في الوقت المناسب منع تزايد الكوارث. دفعني نديم ناحية الفوج السياحي متحدثًا ومشيرًا إليَّ، وبعد عدة جمل بالإنجليزية، صفق الأجانب وتعالت صافرات التشجيع، وطلبوا التقاط الصور، فوقفت بينهم كالحمار أفعل ما يأمرني به صاحب البردعة، أرسم علامة النصر، أسمح لرجل بتقبيل خدي الأيمن، وفي نفس اللحظة تتظاهر أنثى برمي قبلة في الهواء تجاهي، حتى ظهر علاء فجن جنون الفوج، وطالبوه باحتضاني، لتنتهي أغرب جلسة تصوير قدمتها الحياة لي.

غادر الفوج بأعداد محترمة من كتب نجيب محفوظ، بالإنجليزية

أو باللغات الأخرى حسب لسان العملاء، وجاءت بثينة معتذرة عن موقفها، تتبع اعتذارها بنوبة ضحك مجنونة، فيتدخل علاء ليزيل الغباء عن دماغي: «الحقيقة يا برنس، نديم قدر ينقذك من خصم معتبر وتحذير شديد اللهجة من الإدارة، أي نعم الحل يكسف، لكن ما باليد حيلة! عامةً نديم قال للأجنبي صاحب الكاميرا إنك لا مؤاخذة يعني، مرتبط بالعبد لله، ورميت الكتاب كنوع من أنواع استفزازي، لأني مخاصمك ورافض إني أصالحك!».

مع التفاتة بعصبية لألوم نديم على أفكاره السوداء، ظهر المدير بوجه متجهم، ترفض عيناه مغادرة أرض وجهي، يحتل ملامحي ثبات مصطنع، تقبض يمينه على كرة مطاطية، وبعدما شكر نديم حذرني بصيغة تهديدية لا تحتمل أي تأويلات أخرى: «ما دامت ظهرت فكرة الشذوذ كحل واعتذار للأديب الراحل عن سوء تعاملك مع كتبه، إذن تخلع كرامتك وتتركها في البيت، وتعترف بالندم وأنك موافق على أي فكرة لتصليح موقفك، خصوصًا أن الزمخشري سيظهر إعلاميًّا قريبًا! لعلمك، أنا أفضل أن تبقى الموظف الشاذ في ذاكرة الأجانب، على أن تبقى الموظف الراحل في ذاكرتنا!».

تركني في منتصف ملابسي، أتمنى انشقاق الأرض لتبتلعني فلا يتذكر أي شخص هنا منظري وأنا أهز رأسي موافقًا على تحذير المدير ونعتي بالشاذ حفاظًا على لقمة العيش، وظهوري الإعلامي من أجل ياسمين، محاولًا نسيان نظرات بثينة الرقيقة التي كانت تطرح عيناها الطِّيبة، والآن خوزقتني بنظرات استهزاء واضحة.

HTTPS://T.ME/WAT2025

٨

مع انتهاء ساعات العمل، غادرت المكتبة بغضب الدنيا والآخرة، ركبت سيارتي وأنا يدفعني شعور واحد فقط، لا مفر من تفريغ طاقتي السلبية وإلا سأموت من كتم الغيظ!

منذ حادثة كريم والحاج حوت العيال، وجملة كريم تحاوطني: «فأنا كأي أب مستعد يعمل المستحيل، ممكن يعمل أي حاجة، بمعنى كلمة أي حاجة، لحماية ابنه!». انتبه عقلي إلى الفكرة التي تفرض نفسها، ويتصاعد صوتها داخل أذني، فأيقنت أن حملتي الثانية للقضاء على المجاذيب تجذب انتباهي لتظهر إلى النور، لذلك قررت الذهاب إلى الدكتور خليل سويلم، كي أحصل على كمية معقولة تساعدني على تنفيس غضبي في أسرع وقت.

الغباء في أبهى صوره هو انتقالي المفاجئ من وسط البلد إلى شبرا في أزحم أيام الله، الثلاثاء، بتوقيت الخامسة والنصف مساءً، مما يعني إقامة علاقة طويلة المدى مع المرور وحكاياته، مع السيارات وعوادمها إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

حين وصلت إلى عيادة الطبيب البيطري الدكتور خليل سويلم، شريكي الذي لا يعالج الحيوانات، ويقتل المجاذيب معي بطريقة غير مباشرة، وجدت ـ وللمرة الأولى ـ بنتًا جميلة تحاول معالجة قطها على يد الدكتور، ما يذكرني بعم زيطة، الملامح نفسها وعدم المبالاة الربانية.

تنحنح كثيرًا لما لمحني، أخافتني تبريقة عينيه، أجتهد لتفسير

HTTPS://T.ME/WAT2025

ما يريد توصيله، ينظر إلى البنت ثم يهز رأسه يمينًا ويسارًا، تقريبًا ـ والله أعلم ـ يحذرني من طلب السم في وجودها، لكنني كنت أذكى منه ولم أذكر سيرة المطلوب نهائيًّا، وانتظرت اللحظة المناسبة حين قال للبنت إنه يجب ترك القط لمدة ربع ساعة ليظهر مفعول التخدير، فقلت له: «مساء الخير يا دكتور، بعد إذن حضرتك محتاج كمية أكبر، وتفضل المبلغ، ومعلهش محسوبك مستعجل، تقدر تحضرها وأنا هنا مع الأستاذة، سنراقب القط لو حصل حاجة لا قدر الله!».

ناولته المبلغ ليفهم المقدار المطلوب من دون تحديده.

ذكرتني البنت الواقفة بالممثلة المصرية أمينة خليل، الملامح وأسلوب الحديث نفسه، إلا أن البنت أقصر قليلًا منها، والحقيقة كانت تحدث القط كابنها، تلاعبه، تطلب منه مسامحتها، تردد: «التعقيم بشع أنا عارفة والله! أنا آسفة! وحياتي آسفة!».

خرج دكتور خليل بالمطلوب، كانت أسرع مرة، أجهل سبب خوفه وقلقه، شكرته، وقبل التحرك قالت البنت وهي مصدومة: «يا أستاذ! من فضلك لو سمحت، حضرتك اشتريت منه استركنين صح؟ أرجوك قل الصراحة، صح؟ معقول يا بابا! أنت حلفت لي إنك تُبت! ماما عندها حق، أنت قاتل بشع!».

ثم وجهت حديثها إليَّ: «أنا آسفة يا أستاذ لو اقتحمت خصوصيتك، لكن السم ممنوع تداوله، وحرام أرواح الكلاب البريئة، لو حضرتك في كلب ضال وحابب تتخلص منه، أقدر أقدم إلى حضرتك رقم خدمة مجانية، والموضوع في دقائق يخلص!».

تابعت نظراته، العرق فضحه، مسح جبهته وطلب منها عدم

التحدث إلى الزبائن، واعتذر لي قائلًا إنها ابنته، تعالج قطها وسترحل، لكن البنت تجاهلت نصيحته وتحذيره، واستمرت في عرض اقتراحاتها، تتمسك فعلًا بفكرتها، حتى لما تصاعد الأمر وبدأ الأب يأمرها بصوت عالٍ، وقفت أمامه وهددته بنبرة تحدٍّ بأنها على أتم استعداد لتصوير العيادة وكمية السم الموجودة، وتصعيد القضية للمسؤولين.

بعد محاضرة قصيرة عن بشاعة نفاقه وإخلاله بشرف مهنته، خطفت البنت قطها ورحلت، اعتذرت للدكتور خليل الذي جلس وأشعل سيجارة، يراقبها وهي تبتعد، بدأ في لم أدوات الجراحة، يعقم كل أداة ويرمي ما يستخدم لمرة واحدة، انتبه إلى وقوفي وعدم مغادرتي، علق على الأمر: «خير يا أستاذ؟ محتاج حاجة؟». كررت اعتذاري عن الموقف السخيف، فقال: «بنت عبيطة وساذجة!».

رحلت، يشوش إيمان البنت بقضية الأرواح البريئة على تخطيطي لمرحلة الهجوم المقبلة، كلما رسمت ملامح التنفيذ، يقتحم شكلها وهي تبكي فتبتعد المنطقية عن تفكيري، صفعتني كثيرًا كلمتها لأبيها: «أنت قاتل بشع!». البنت أجبرتني على التساؤل: أيحق لكل إنسان أن يجد من يدافع عنه باستماتة أم أنها حظوظ الدنيا؟ وإنك قد تقابل من يعتنق الإنسانية، وربما يقع حظك مع المتخصص في خنقها. عامةً الإنسانية في نظري هي أن أدفن كل المجاذيب لأخلص العالم من شرورهم.

راجعت خططي، داهمني قلق، منبعه حالة الطوارئ والشك العام في كل المواطنين، أدرت المذياع لعل المناخ السائد يلهمني، وهو

ما حدث بالضبط لما قالت المذيعة إن أمطارًا غزيرة ستبدأ الليلة، ولمدة ثلاثة أيام، ويفضل تجنب خروج المواطنين إلا للضرورة القصوى، وبموجب التفكير السليم الذي يبزغ فجأة كفكرة استثنائية، فإلحاق الأذى بمجاذيب الحسين في طقس بارد وممطر يتوقف على عنصر واحد فقط، توزيع مشروب لا يشك الناس في صاحبه، وحبيب الكل هو الشاي!

سألني التفكير: «كيف ستنفذ فكرتك العبقرية؟ ومن أين ستحصل على مصدر كهرباء لصنع الشاي؟».

فتحت هاتفي، أتنقل بين الصفحات والأخبار محاولًا العثور على فكرة، ومشاهدة مقطع ياسمين للمرة المليون، وبمجرد رؤية الغائبة الحاضرة، أتذكر حافظ المشروبات الساخنة الضخم المرمي في شنطة السيارة منذ سرقة ياسمين له في يوم السرقة الكبرى، الذي لن أنساه أبدًا.

وصلت إلى أسفل البناية، ناديت عم بدر، خرج قائلًا: «يا بيه، الدنيا بتشتي! تحب تقعد عندنا في الأوضة حتى، لو رافض الطلوع لبيتك؟».

شكرته على كرم عرضه، وبعد الاعتذار المثالي شرحت له مطلبي بالتحديد: «عم بدر، بعد إذنك محتاج شاي هنا على آخره، لأني ناوي أطلع أسوق في المطر، أساعد الناس توصل بيوتها بدون أجر، ثواب وصدقة على روح أبهم! وأتمنى تقدر ظروفي وتطلع البيت، محتاج كيس الأكواب البلاستيك، موجود فوق الثلاجة!».

هرع عم بدر إلى الداخل، وعاد بالأكواب والحافظ المجيد، داعيًا لي بالجنة وحسن الخاتمة.

HTTPS://T.ME/WAYA2025

في سيارتي فتحت كيس عبوات السم، ارتديت القفازين والكمامة، ووضعت كمية سم في حافظ الشاي، قلت لنفسي: أنا معتمد على الحظ، تقتل من تقتله وتصيب من تصيبه، العيار الذي لا يصيب يدوش! ثم مسحت بالمناديل المبللة أي وجود لبصمات، سواء على الحافظ أو كيس الأكواب، بعدها ارتديت نظارتي وقفازًا صوفيًّا أسود وكنزة سمراء، وقميصين فوقهما السترة الثقيلة المنفوخة ذات اللون الأخضر، والقلنسوة الضخمة التي تخفي وجهي بالكامل، واضعًا في حسباني أنني سأتخلص من السترة المنفوخة بعد إتمام خطتي.

غادرت عربتي، من دون أن يلاحظني عم بدر، ركبت سيارة أجرة متجهًا إلى الحسين بمباركة الرب، وكلي أمل في قتل المزيد من المجاذيب الأنجاس.

باركني الرب بسائق أجرة لا يتحدث نهائيًّا، ولم يسألني عن سبب نزولي في جو ملبد بالغيوم، والأمطار على وشك الهطول، وكلما سمعت في مذياع سيارته تحذيرات الدولة بضرورة البقاء في المنازل، أحدث نفسي: أنا أعاني من رهاب المنازل، إذن الشوارع هي مسكني! حتى وصلنا إلى وجهتنا، وأعطيته فوق أجرته عشرة جنيهات، ونزلت من سيارته استعدادًا لملاقاة مجاذيب الحسين وتصفيتهم بدم بارد، كما فعلت الحكومة مع المثقفين، حسب كلام الحاج إبراهيم.

محيط المنطقة بالكامل هجره الناس خوفًا من الأمطار، إلا المجاذيب، يمشون في الشوارع بحرية وسعادة، الأنجاس يظنون

أنهم ملوك الأرض الآن، أراقبهم وأتمنى زوالهم جميعًا، أمشي بينهم، أبصق عليهم، أحلل المعطيات من حولي، هل أكتفي مثلًا بذلك المربع؟ أم أتنقل في الحسين كله؟

قطع تركيزي رجل عادي، سألني عن سبب وجودي في ذلك التوقيت والدنيا أوشكت أن تمطر، فقلت له بمنتهى الثقة من خلف نظارتي الشمسية: «الله يرحمها زوجتي ماتت، وكانت في كل شتاء تأتي بالشاي الساخن للمجاذيب وأهل الله المساكين، يعني تقدر تقول حبًّا في الثواب، لكن للأسف حساسية العين فاشخاني، لابس نظارة سوداء والشوف في أضعف حالاته، فالموضوع صعب، إنما إن شاء الله مسيرها تفرج، وأوزع الشاي وأمشي قبل المطر!».

تحوقل الرجل مقتربًا، يربت على كتفي قائلًا: «حالًا يا ابن الطيبين ولا تحمل الهم أبدًا! الله يرحم زوجتك، شكلها كانت ست طيبة وجدعة! محسوبك صلاح أولسيه، أو أولسيه، اسمح لي قبل ما أدخل أوزع الشاي، أطلب منك خدمة، أنا مزنوق في خمسين جنيه، الدماغ خرمانة ومحتاج سجائر، والحال واقف! لو الحال واقف معك، بالله عليك قل لي!».

ناولته مراده بابتسامة قاتل محترف.

إغراء عرض أولسيه يكمن في تفصيلتين بالتحديد، أولاهما الراحة والاختباء في الدفء، خصوصًا مع شتاء يناير القاسي، والأخرى ابتعاد شبهة القتل عني لقيامه هو بدور التوزيع، مما يعني ظهور بصماته وملامحه في كاميرات المراقبة، أو بين شهود الواقعة بعد اكتشاف موت المجاذيب.

رجع أولسيه مستفسرًا: «تحب أوزع الشاي بنفسي، ولَّا نضاعف الثواب؟».

سألته عما يقصده، فشرح لي أن هناك بائعة اسمها أم حنان يعشقها المجاذيب، تبيع لهم وجبات رخيصة، فعرض عليَّ فكرة توزيع الشاي عن طريقها، فتكسب معنا الثواب، وأم حنان، حسب كلامه، عاهرة تائبة، تعرف عليها في أثناء سبوبة، اسمها الحقيقي رضا، عملت في بيت دعارة معروف لأهالي منطقة البراجيل، ولزبائنه خاصة، موجود في شارع أولاد صقر، أشهر شوارع المنطقة! وافقت طبعًا على الفور، لأن تزايد الأشخاص يعني ابتعاد الشبهة عن المتسبب الأول.

أخرجت له مائة جنيه، لم يفهم المقصد، فشرحت له بمنتهى الود والبساطة: «لك أنت وأم حنان، صب الشاي في الأكواب، وبعد إذنك قف معها وتأكد من حصول المجاذيب على الشاي، ومن فضلك، قل لها تأخذ خمسينة شاي إكرامًا لتعبها معنا!».

غاص أولسيه في دهاليز الحسين، وقفت أشاهد الأنجاس وهم يتجولون أو يفترشون الشوارع، وبين الفينة والأخرى يصرخون بكلام غير مفهوم، كذلك الذي جاء بجانبي صارخًا: «أفوظ! آه! أفوظ! لا! أمينة حلوة!».

مع وجودهم حولي، ونظرة السعادة المرسومة على وجهي ليقيني بمغادرتهم الحياة قريبًا، حدثت نفسي بأن بلدنا بيئة خصبة لحدوث أي مصيبة بمنتهى السلاسة، ما دام الموضوع يخص أهل المدينة البائسة، وليس له علاقة بالحكومة أو شخصية مهمة.

جاء صلاح أولسيه بعد إتمام مهمته، لم يدهشني مدى سرعته في إنهاء المسألة، إذ إنها من خصال رجال الشوارع الذين تعلموا من المدينة، من القاهرة، سرعة إنجاز الأمور، لأن البطيء داخل القاهرة مقهور بلا أدنى شك، مدهوس بين أقرانه أولياء السرعة، عبيد الركض خلف الرزق، من خلقت لأجلهم مقولة: «الرزق يحب الخفية!»، والصراحة مساعدي في مذبحة الحسين أشهد له بخفة الفراشة وغباء الإنسان.

وصف أولسيه كيف تم توزيع الشاي على معظم المجاذيب، وبعض الرجال المتسولين، وأهل الله المساكين، وأم حنان التي شربت كوبين، والكل حاليًّا يدعو لي، وأبواب السماء مفتوحة.

استعدت حافظ المشروبات منه، شكرته على مجهوده واتجهت إلى الشارع الخارجي، كي أستقل سيارة أجرة تنقلني من محيط الحسين إلى ميدان الحصري بالسادس من أكتوبر، وفكرتي في تلك التوصيلة الغريبة هي الوصول إلى منطقة بلا كاميرات، فأستطيع لحظتها مغادرة السيارة ووضع السترة في كيس أسود بلاستيكي، وركوب المواصلات العامة من دون نظارتي، لأعود إلى ميدان لبنان كشخص آخر، يرتدي زيًّا مختلفًا عن الذي تابعته الحكومة ـ إذا كان هناك من يتابعني أصلًا ـ وغادر الحسين لابسًا سترة منفوخة.

نفذت ما في بالي حين وجدت الطريق خاليًا من أي أعمدة أو إشارات أو لافتات إعلانات، فقط المساحات الخضراء على الجانبين، فطلبت من السائق سرعة التوقف فورًا لأنني على وشك التقيؤ، ليركن المسكين على جنب، وتظهر على ملامحه علامات

القرف والخوف، إذ ربما يستقبل صالون سيارته ضيفًا ثقيلًا، يفشل في تنظيفه أو التخلص من رائحته.

دفعت للرجل أجرته كاملة، وقلت له إنني سأبقى هنا بمفردي حتى يهدأ بطني، حاول إقناعي بالرجوع معه وإخراج رأسي من النافذة وقتما أشعر باقتراب الأمر، لكنني صممت على موقفي قائلًا: «صعب يا أسطى، أنت تحمد ربنا أساسًا إن كان فيه وقت، وقدرت أنزل وأطرد ما في معدتي بعيدًا عن تابلوه التاكسي! أنا عارف نفسي، ممكن تطلع مني فجأة، وساعتها أنت ستكره السواقة والجدعنة، لا تقلق يا أسطى، المواصلات هنا كثيرة، يهدأ بطني وإن شاء الله ربك يفرجها!».

لم يضغط عليَّ، ورحل تحت ضغط خوفه من المفاجأة والقرف. وضعت سترتي في الكيس الأسود، وانتظرت فرج الرب بأي وسيلة نقل، سواء مواصلة عامة أو شخص جدع ابن أصول يراني فيساعدني، ولم يغب عن بالي أولسيه وأم حنان وكل بريء شرب من الشاي.

أحيانًا، تكافئ الحياة الطيبين بقص شريط العمر سريعًا.

٩

بعد ليلة استثنائية قضيتها تحت تأثير القتل ونشوته، استيقظت بعقل مرتاح ونفسية شبه متماسكة، تناولت الوجبة المعتادة التي لم تتغير

لمدة تقترب من نصف عام، ساندويتشات دومتي الجاهزة والعصير، ثم قدت السيارة، وفي طريقي اشتريت علبة سجائر تطبيقًا لنصيحة كريم، إلى أن وصلت إلى فرع المكتبة، وجاءتني رسالة على هاتفي من تطبيق «لا حدود» بمجرد دخولي.

استبدلت ملابسي وأنا أدخن سيجارة، ظهرت بثينة مع قهوتها ونظارتها الشمسية وشعرها القصير، ونديم مع شايه وسيجارته وشكله الساذج، لم يعلق أي منهما على تدخيني، بعدها حياني المدير، واحتضنني علاء الشامي من ظهري قائلًا: «أتمنى يكون حبيبي بخير! صحيح، هو المفروض أتقدم لسيادتك، ولّا محتاج تقيم العلاقة الأول؟»، لينفجر نديم ضاحكًا، ويخبط كتفَي علاء بعد قصف جبهتي، والتأكد من رضاي عن مزاحه السخيف المتكرر.

تأسف علاء مرة ثانية على مزاحه، ثم أبدى إعجابه بقوة تحملي لموقف الاتهام بالشذوذ ورجوعي للوظيفة، مقتنعًا بأنني رجل ناضج، يعرف الحياة تمام المعرفة، ولا يسمح لكلام خائب عن الكرامة أو عزة النفس بالتدخل في قراراتي، مختتمًا كلامه بـ«هكذا هم الرجال، كرامتهم ثانيًا بعد القرش الحلال».

ساعدت علاء في تفريغ شحنة تضم مترجمات نجيب محفوظ باللغة الإسبانية، وسألته بجدية عن حوار الشذوذ، وكيف أنني أشعر باعتيادية الأمر في مكان راقٍ كلاسيكي، فلم يقل المدير له شيئًا من قبَل الحرمانية مثلًا، ليجيبني علاء: «الأديب ياما تكلم في الصحافة والمقابلات وفي أعماله عن عالم الشذوذ، خصوصًا أنه رأى بنفسه الظلم الكبير في الحياة الوظيفية بسبب المثليين، وكتب حكايات عن

استغلالهم لجمالهم ولانتشار «أهل ذلك» ونجاحهم في خطف أي مصلحة بتصدير المصلحة!».

ابتسمت لصياغة التلاعب بالألفاظ، فأعجب علاء بتفاعلي مع الموضوع، وسحب كتابَين من مجموعة الأديب للاستشهاد بهما: «عندك مثلًا شخصية الفتوة «وحيد الناجي»، في «الحرافيش»، هو كان شايف نفسه «صاحب الرؤيا»، لكن الحرافيش لقبوه بالأعور، الشذوذ كان شهرته مع الفتونة، وحواليه لا مؤاخذة عيال، حاجة من شغل المماليك وأنت فاهم!».

انضم نديم إلى حديثنا بعد أن عرف تمحوره حول عالم المثليين في أدب نجيب محفوظ، وشرح هو الشخصية المقصودة في الكتاب الآخر الذي سحبه علاء: «وشخصية «المعلم كرشة» في رواية «زقاق المدق»، كان يقول لما أي شخص يحتقر ولَّا يتنمر على مزاجه الغريب: «لكم دينكم ولي دين!»، وناس ياما حاولوا يرجعوه إلى الطريق المضبوط، لكن نجيب خلق شخصية معجبة بالشعور والحب الغريب!».

ثم تبادلا ذكر الشخصيات المحاطة أو المتهمة بالشذوذ، كرضوان ياسين وشرارة النحال وأحمد مدحت وعلي رأفت وحامد النجدي وعبد الرحيم باشا عيسى وسليمان مصطفى وغيرهم، سعيت لقتل المسألة أكثر من مرة بتغيير دفة الكلام من الشذوذ إلى التعرف على الأقسام الأخرى بالمكتبة مثلًا، لكن الشباب ما شاء الله عليهم، الكل راكب دماغ الآخر، والحمد لله على ركوب الدماغ وليس ما يقلق البال!

في أثناء مرور عم زيطة، سأله نديم بضحكة خبيثة عن مسألة المثليين، فقال بحزم رادع لا تراجع فيه، ولن ينجح رأي آخر بعده: «الركوب هو راكب ومركوبة أو راكبة ومركوب! إنما شغل الموقع الأجنبي فتليكس ولا نتليكس بره في لندن!».

ارتفعت ضحكاتهم، وقفز نديم من جانبنا ليقسم على عم زيطة بضرورة إخراج علبة الجنيهات المعدنية خاصته لنراها، وبعد محايلات رضخ زيطة، وفزع قلبي من بشاعة المنظر! علبة مصنوعة من السيلكون، عبارة عن كرة من حلمات بشرية، شكلها فعلًا بغيض!

اقترب المدير وطالبنا بالصمت، ثم تحكم في مستوى علو الصوت المذاع عن طريق تطبيق هاتفه تقريبًا داخل المكتبة، فيبهجني خبر عاجل انتظرته من البارحة: «حالة من الغضب الشعبي، عبر عنها المواطنون الزائرون لمسجد الحسين بعد وفاة عشرات المجاذيب، مع إصابات أخرى بالتسمم، وتأخر وصول الإسعافات اللازمة للمكان في الوقت المناسب!».

جاءت بثينة ووقفت بجانبنا، لم تتحدث إليَّ، وأنا عامةً لن أقبل اعتذارها إن فعلت، وسألت المدير: «الإخوان قتلوا المجاذيب ثانية؟».

تجاهلناها جميعًا موجهين تركيزنا لصوت المذيع: «أعرب شخص من الحضور عن عدم اهتمامهم في البداية بالأمر، ظنًّا منهم أن الواقعين أرضًا دخلوا في حالة من الدروشة والصفاء حسب كلامه، لكن مع تفاقم الأعداد وارتفاع أصوات الصراخ، انتبهت القلة الحاضرة للمأساة!».

حاولت ادعاء التأثر كي لا يشعر أحدهم بسعادتي، على الرغم من قلقي من جملة المذيع التي خرجت كأنها تهديد يخصني: «وتم الإعلان عن تكثيف الحراسات الأمنية في محيط أضرحة ومساجد الدولة، حفاظًا على أرواح المجاذيب الأبرياء، مع مراقبة أماكن توزيع الوجبات، وفحص جميع المأكولات والمشروبات قبل توزيعها بدواعي فعل الخير، مع التأكيد على فتح التحقيقات سعيًا وراء الفاعل، ومحاكمته، خصوصًا مع تصاعد أزمة قتل المجاذيب في الآونة الأخيرة!».

ضحك المدير حد السعال، ضرب كفًّا بكف بعدما ابتلع ريقه، وبدأ يكلمنا بصوت مسموع، أو أعلى من المسموع بشكل طبيعي، كأنه يريد توصيل رسالة إلى شخص ما يراقبنا: «الحكومة قامت قيامتها، والسبب؟ المجاذيب! وأنت أصلًا خارج من كارثة شهداء البستان! يعني الدولة مهتمة أكثر بالمجاذيب، وفي نفس الوقت ولا فارق مع رجالها موت الأدباء! طبعًا، الإيمان الشعبي، الإيمان الشعبي أهم، عيال الله، مساكين الشوارع، أهل البدع والكرامات، إنما الأدباء؟ الأدباء بالنسبة إليهم ناس فاضية! يا سيدي، كبر دماغك، يموت أديب يعيش غيره، لكن المجاذيب؟ البركة؟ لا طبعًا! تقوم الدولة وتقعد!».

من بين كل ما قاله لكمني وصف الإيمان الشعبي، وأوقعني على جذور رقبتي، وسألني القاتل الموجود بداخلي، هل نقف ضد المجاذيب أم الإيمان الشعبي وربه؟ من الذي يقدر على محاربة رب الغلابة؟ كلام المدير أجبرني على تفصيص فكرة قد توضح لي الصورة، أو تزيدها ضبابية، إذا كان الرب يساند المجاذيب، فلمَ

السلاسة التي منحها إياي؟ هل يستخدمني كسلاح مضاد؟ أيعقل مثلًا أنه زهق من كثرة رواده، فجعلني أنا يده الكاسحة جامعة الأرواح ومحدثة الجروح، فيتخلى أحدهم عن تمسكه بمبدأ «الله يحميني»، أو يزعل من عدم حماية الرب له فيبتعد عن طريقه؟

أكمل المذيع نشرته وسط حزن الحاضرين، وفرحي المؤقت: «هذا وبعد عدة مباحثات من جانب رئيس مجلس الوزراء ووزير الثقافة ورئيس نقابة اتحاد كُتَّاب مصر، أعرب سيادته عن عدم توقف التحقيقات للوصول إلى مدبري العملية، واعدًا الشعب المصري وأهالي الشهداء بالاقتصاص العام من منفذي الحادث الإرهابي البشع، وصرف تعويضات مجزية لأهالي الشهداء، لن تعيد الغائب، لكنها إشارة بسيطة من الحكومة تجاه أولادها. وأوضح رئيس مجلس الوزراء أن التحقيقات الأولية تفيد تدخل جماعة الإخوان الإرهابية في تصفية أدباء مصر، نصرة لأفكارهم الكاذبة المضللة، عازمين على زعزعة استقرار البلاد بعد سنوات من الفوضى!».

علق عم زيطة على خبر قتل المجاذيب، وهو يقلب علبة الحلمات بين يديه قائلًا: «الإخوان خربوا البلد!»، ليجيبه المدير بعصبية بالغة: «الإخوان؟ والإخوان يهمهم تصفية الأدباء؟ يعني قضاياهم ومشاكلهم محلولة لكن الأدباء قضية كبيرة محتاجة تصفيتها! اعقل الكلام يا زيطة!». تدخلت بثينة لتنهي حوارًا نتيجته النهائية محسومة إذا لجأ أصحابه إلى العراك.

طلبت بثينة من عم زيطة إخفاء علبة الحلمات المقرفة، ثم أمرتنا بالاستعداد الفوري للتجهيزات العاجلة بخصوص تعليق لافتات

كبيرة، نقدم فيها تعازينا للمجاذيب ولأهل البلد عاشقي الأسياد والكرامات، كطقس من طقوس الاحترام المتبادل بين فوقية الثقافة وشعبوية الإيمان، وأن المكتبة ستقدم طوال الشهر الحالي والمقبل أيضًا، بسبب تأبين المجاذيب، خصم خمسين بالمائة على الإصدارات المتوفرة في كل فروع المكتبات.

السعادة الأكبر لا تتعلق بأوامر بثينة، إنما بطلب نديم حين ساعدني على رفع إطار إعلاني ضخم مكانه بالخارج، سيقف كلوحة مسنودة أمام فرع المكتبة، يضم صور المجاذيب القتلى!

لم يخطر على بالي تمامًا أنني قد أحمل صور ضحاياي، وأشارك في احتفالية تأبين أو مواساة، ليلطشني عقلي بمقولة: يقتل القتيل ويمشي في جنازته!

بعد الانتهاء من تثبيت الإطار، ناولتني بثينة حزمة أوراق لأوزعها بين المارين أمام المكتبة، تحمل كلمات مواساة، ذيلت بإمضاء سلسلة مكتبات الحدود، وأسفلها بخط واضح توقيع الزمخشري الذي كتب ليقدم تعازيه: «حتى وإن كانوا بلا أهل أو مأوى، فذكراهم في كل قلب، وقلوبنا عامرة بسيرتهم العطرة، ولعن الله قاتلهم وحامي قاتلهم، وبارك في مجاذيب بلدنا الذين لطالما تحدث عنهم الأديب الفريد نجيب محفوظ، ووضعهم كتفصيلة لا تكتمل أعماله من دونهم! لشهرين كاملين سننعى المجاذيب بطريقتنا الخاصة، داعين المولى عز وجل إسكان أرواحهم الطاهرة فسيح جناته!».

يسري بين عروقي فخر أبوي وانتصار ذكوري، سأكون بين الحضور أشرف على الاحتفالية الثقافية المقامة فوق شرف خططي،

والمعمولة لتمجيد ضحايا تخطيطي! سأمشي بين الناس غدًا، أتأكد من سلاسة يومهم، أو ترشيحات الكتب المتعلقة بسيرة المجاذيب، وربما بعد الاحتفال والتأكد من قيامي بدوري أغادر المكتبة متجهًا إلى مكان آخر، لأقتلهم مجددًا، وأرجع بعد غد لأعيد الإشراف على احتفالية تأبينهم.

يعجبني، بكامل قواي العقلية وبموجب الاتفاق بيني وبين القتل، أن أكون واقفًا فوق جثامين المجاذيب، أضحك وأتكلم مع الزبائن، وأن أستمر في دعمي لقتلهم بخطط لا يكشفها الجن الأزرق، بفضل دعم الرب لعبده المسكين.

فعلًا، الحياة بين قتل وتأبين المجاذيب استثنائية، والحياة كقاتل يبيع الكتب صباحًا ويقتل المجاذيب مساءً أفضل جدًّا.

١٠

بعد انتهاء ساعات العمل الرسمية، وقبل رحيل الجميع، وصلت للكل رسالة من تطبيق «لا حدود» تخبرنا بوجود حفل توقيع لكاتبة شابة، اسمها ميار الشرقاوي، عن رواية قصيرة عنوانها «أمينة وزائر الليل» اليوم في تمام الثامنة مساءً!

اعتقدت أن غضبًا عامًّا سيظهر، أو اعتراضًا جماعيًّا سينفجر، لكن الزملاء رجعوا إلى أماكنهم بتقبل مرعب للأمر العارض، وبدأت الاستعدادات على قدم وساق، مع توزيع الأدوار بين الموظفين

لسرعة إنجاز التجهيزات، وخروج الحفل بأبهى صورة، من دون إسقاط أهمية توزيع الكتاب بشكل لافت داخل المكتبة لجذب انتباه القرَّاء، فيشترونه قبل الموعد وفي أثناء الندوة.

جاء نديم كعادته بالخبر اليقين، وحدثنا ـ أنا وبثينة وعلاء الشامي ـ عن أهمية العمل المعروض اليوم: «يا جماعة، اهتمام الإدارة برواية «أمينة وزائر الليل» سببه أنها رواية عن نجيب محفوظ! وسبب إنهاء الحفل جاء على غفلة، لأن الكاتبة رفضت مكان التوقيع وقالت إنه لا يليق بالحدث! فالناشر أجرى اتصالاته، وكانت مكتبات الحدود هي البديل الممتاز».

لاحظوا جميعًا علامات التعجب الظاهرة على وجهي، لتسألني بثينة عن السبب، فقلت إنني حلمت كثيرًا بنجيب محفوظ، وكثيرًا ما سألني عن زائر الليل، لذلك تعجبت حين رأيت اسم الرواية، خصوصًا أن الاسم لم يمر أمامي نهائيًّا!

لم تعلق بثينة، وغيَّر علاء الحديث تجاه الكاتبة: «الكل عارف أن ميار الشرقاوي من المهاجمات لأدب نجيب محفوظ! فأنا مستغرب من أننا نقيم أول حفل توقيع للرواية؟ طب نفترض إن الرواية فيها هجوم على نجيب محفوظ، ساعتها الإدارة ستتعامل مع الموقف بنظرية الحياد وقبول كل الآراء؟ مستحيل! الزمخشري ممكن يقفل المكتبات كلها، ولا يوافق على اشتراكه في توزيع عمل مسيء لنجيب محفوظ!».

فاتت ساعات الفضول، وأقيم الحفل، لتقتل الكاتبة مخاوف بثينة ونديم وعلاء، وتنجح في الحديث عن كتابها بشكل مبشر، ولم تتهرب

من أي تساؤل، حتى سؤال الصحفي السخيف: «حضرتك قرأتِ منجز نجيب محفوظ كله، وكل كتب نقده لكتابة رواية عنه، ولَّا العمل مكتوب في شهرين؟».

ابتسمت الكاتبة، وقالت بنبرة تحدٍّ: «غير مسموح لأي كاتب أنه يقترب من سيرة نجيب محفوظ من دون اللجوء إلى مصادر وقراءات تساعده على إنجاز أي عمل، سواءً كان العمل نقديًّا أو أدبيًّا، وأعتقد أن حضرتك لما تقرأ تقدر تحكم بنفسك إذا كان العمل ناضجًا وخرج بعد سنوات بحث أم كتابة تيك أواي، كما يقولون!».

توالت الأسئلة والكاتبة تجيب، تناور بالديمقراطية تارة، وتراوغ بغرورها الأنثوي تارة أخرى، ترضي القرَّاء بإجابات شافية، وتتركهم بعدها بنصف إجابات قائلة: «الحكاية كاملة في الرواية! استمتعوا بها بدلًا من حرق أحداثها! والله تعبت فيها جدًّا يا جماعة!».

وفي النهاية طلبت الكاتبة الدعاء للناشطة الحقوقية ياسمين شاهين، أكثر الداعمات للقضية النسوية، ورجوعها إلى أهلها سالمة، ليهتز قلبي فأركض إلى الدور الأول باحثًا عن نظارتي، كي أبكي خلفها فلا يلمحني أحد.

كفكفت دموعي وأنا بين الحاضرين، ثم سحبت رواية لأحصل على توقيع الكاتبة التي كتبت لي مع ابتسامة رقيقة: «بعض الحكايات تحمل الجزء الأكبر من الحقيقة، والتي لا نتخيل وجودها بيننا في عالم أساسه المعرفة السطحية!».

قبل رحيل الكاتبة عرفتها بنفسي، فقدمت المواساة كما يليق بحزنها، وقالت إنها تعرف ياسمين منذ سنوات ولطالما تشاركتا

الندوات والمؤتمرات، ومع شعوري بصدق حبها لزوجتي طلبت منها واسطة تساعدني على تحويل القضية إلى رأي عام.

جلسنا في الركن الجانبي الموجود في المكتبة للقرَّاء إذا ما أراد أحدهم الاطلاع على كتاب قبل الشراء، ووضحت لي أن شائعات انتشرت بين أوساط الجمعيات والأحزاب المناصرة لقضايا المرأة بضرورة التعتيم على قضية ياسمين شاهين، والسبب مجهول، وبما أنها شائعة فقد وصل إلى مسامعها العديد من الأسماء المشاركة في تضييق الخناق على أي أدلة تساعد الجهات المسؤولة وتقرب المسافات.

قالت بعد إشعال سيجارة: «خذ بالك، أنا قلت لك الكلام كله مجرد شائعات، لكن في شائعات ثانية منتشرة نفس انتشار الأولى تقول إن التعتيم مفروض على القضية بسبب وصول الحكومة للجناة، واشتراك اسم كبير في الجريمة، وتتم صفقات صلح بين الاسم والحكومة لإطلاق سراح ياسمين، وإيجاد السيناريو الأفضل لتوضيح أين كانت! وأحب أقول لك للمرة المليون كلها شائعات! بلدنا تعشق الشائعات، والحقيقة نفسها الله أعلم بها!».

سألتها على واسطة قد تسرع من عملية ظهوري في الإعلام، أو عن إمكانية ترشيح شخصية معروفة أستطيع اللجوء إليها، حتى لو تكلمت الشخصية نفسها عن الموضوع، لتجيبني: «طبعًا أعرف! هات رقم تلفونك وإن شاء الله الموضوع في أسرع وقت يتم!».

بعد تبادل الأرقام، سألتني بدافع الفضول عن عدم ظهوري مع ياسمين في ندواتها، فقلت لها: «أستاذة ميار، أكيد حضرتك متأكدة

أن ياسمين شاهين عبارة عن قلعة عملاقة من الإنجازات، وطبعًا مع شهرتها، أنا جنبها بقلة خبراتي وحياتي المحدودة صفر كبير جدًّا، والحقيقة الواحد مننا كرجل يعز عليه أن يظهر أمام الناس بصورة صغيرة!».

نظرت إليَّ، تقريبًا والله أعلم باستهزاء، وتركت تعليقًا قاتلًا قبل رحيلها: «تمام! أقدر أقول إني فهمت حالًا سبب عدم ظهورك في مقطع مباشر، مثلًا يعني، على مواقع التواصل، وإنك تحول القضية بنفسك إلى قضية رأي عام، اعذرني، أنا صريحة وكنت أتمنى أنك تكلمني من دون النظارة، خصوصًا أن ياسمين ياما قالت عنك إنك شخص خجول، لكن الحقيقة واضحة، وفرق كبير بين الخوف والخجل! الله يمسيكِ بالخير يا ياسمين، كانت راسمة في خيالنا صورة ثانية تمامًا عن زوجها المثالي!».

في كل مرة أتكلم مع شخص بخصوص زوجتي، ينجح الجميع في تغذية كل شكوكي، ولم يتدخل فرد واحد لطمأنة قلبي الذي يحترق، أما الأستاذة ميار الشرقاوي فقتلتني بكلامها الجارح ودفنت كرامتي بجانب المجاذيب ضحاياي.

بعد انتهاء مواعيد المكتبة ودعني تطبيق «لا حدود»، وقررت الرجوع إلى أسفل البناية لتصفية ذهني من كلام ميار الشرقاوي، وطرد مراحل الاستسلام الظاهرة بوضوح مع كل يوم تتأخر فيه الحقائق، وفي طريقي بين باب اللوق وميدان لبنان هاتفت أهل ياسمين لإلقاء التحية والتأكيد على فشلي الدائم في العثور عليها.

من الكشك المقابل اشتريت العصير وساندويتشات دومتي،

ومع كل قضمة أو شربة عصير أفكر في ياسمين وأيهم، في كلام الضابط والنيابة العامة وميار الشرقاوي، من الذي قد يكون فعلها؟ ومع ذلك، على الرغم من الاختطاف، فأنا أشعر بها حية تستنجد بي، وأنا واثق من حسن معاملة الخاطف لها، وتوفير كل احتياجاتها، وإذا قالت أريد جاءها بما هو أكثر، ولو أكلت لن يتركها حتى تشبع، ولن يقلق راحتها أو نومتها، يكفيه فعلًا النظر إليها فيحمد الله على نعمة الخطف.

تمر الساعات، أجلس بالسيارة أسفل البناية، أتابع الأخبار، أدخل صفحة ياسمين، أشاهد مقاطعها للمرة المليار، وصور أيهم، أبكي، يذكرني موت ابني بالمجاذيب فأخطط لتنفيذ مذبحة جديدة، بعدها أتذكر تعامل كريم مع الحاج عاشق العيال، ليسجل قلق عجيب حضوره داخل عقلي بطرح فكرة الفضيحة عن طريق زيطة، الذي أشعر بأنه يراقب الجميع، ثم أطرد الهاجس بتبرير ساذج، ملخصه هو اهتمام زيطة بموظفي المكتبة المهمين فقط، وأنه لا يحبذ تضييع وقته مع موظف جديد.

مع استعاذة وحوقلة وطمأنة الذات بصعوبة العثور على شبح تظنه الحكومة من جماعة الإخوان، هدأ القلب وارتاح البال، لأدخل في فترة النوم الأولى، ويتكرر كابوس الأديب، لم تنقص تفصيلة، الدماء والمكتبة والتمشية، وبعد سرد مقولته العجيبة عن الحب، قال بنبرة كلها تعاطف: يؤسفني أنك قاتل! في زمن وظروف أخرى، ربما توطدت بيننا صداقة، بموجبها أكتب عنك عملًا خالدًا! أنا كتبت الكثير من شخصيات رواياتي من خلال متابعتي لحكايات

الناس، وأنت حكاية تستحق التدوين! أصلًا أرى اسم الرواية وغلافها وإعلان صدورها، نجيب محفوظ في رائعته الجديدة «حارس مدينة المجاذيب»! عنوانًا لافتًا!

ودفعني مجددًا.

اعتدت على الاستيقاظ مفزوعًا من فترة النوم الأولى، فأشرب الماء لأهدأ، وبدلًا من قضاء الثلاث ساعات الفاصلة بين فترتَي نومي في كتابة المنشورات عن زوجتي، أو البحث عن أماكن جديدة لاصطياد المجاذيب، قررت لأول مرة في حياتي قراءة رواية ميار الشرقاوي، الأستاذة التي مسحت بكرامتي الأرض، خصوصًا مع تكرار اسم زائر الليل في أحلامي، حتى قبل معرفتي بأمر الرواية، وهو الأمر العجيب الذي دفعني ـ بفضول حديث العهد ـ لفتح روايتها وقضاء الليل معها.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا
@RIWAYAT2025
@RIWAYAT2025

Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

أمينة وزائر الليل

١

«يا زائر الليل افتح لي باب التكية واملأ حجري بالتوت، يا زائر الليل جدد مباني حارتنا القديمة، يا زائر الليل نجنا من الفقر والجهل والموت».

رتلنا دعاء الصباح، وتحركنا بعدها لمباشرة أعمالنا من دون التفوه بكلمة واحدة، ودوري هنا، من اليوم الأول، التنظيف بكل أشكاله.

استيقظت بقرقرة بطن وهمدان جسد، مع وجع خفيف في عضلاتي، ففهمت أنها الدليل الواضح على قرب موعد دورتي الشهرية، الدورة الثالثة لي منذ كنت في ميدان السيدة وتم خطفي.

مرت الأيام وانقطعت أخبار العالم عني، لأحسبها مع تتابع دورتي الشهرية، العلامة الوحيدة الباقية مني كأنثى بعد تعمد الخاطفين محو كينونتي، فحاربت الطمس بالطمث! لم أصدق أنني سأستخدم أكثر الأشياء التي أكره حالتي المزاجية فيها كمرشد وقتي، يخبرني بانتهاء الشهر أو بقدوم آخر.

HTTPS://T.ME/RIWAYAT2025
حصريا على روايات وكتب عربية

غير مسموح للمخطوفين بالكلام أو السؤال عن التاريخ والوقت، وإذا تكلمت من دون استئذان، تمسكني امرأة عفية لقبها «المزورة» وترفعني في الهواء، لتسقطني داخل حوض يحتله روث وعلف الحيوانات، ثم تتركني بلا استحمام ليومين، وإن حاولت مجددًا تتضاعف المدة.

كلنا هنا، رجالًا ونساءً، يجمعنا شيء واحد، التعدي على الذات المحفوظية، كلنا بشكل أو بآخر تخطينا الخطوط الحمراء، فكان العقاب حاضرًا، بلا رحمة أو تفريق أو مراعاة لسن وجنس وحالة صحية.

يوميًّا تدخل المزورة وتسألني عن اسمي، أقول لها بعلو صوتي: «أمينة! **قرنفل!** آسفة!»، فتصفعني وتركلني، وبعد انقضاء موجة الغضب، أشرح لها طبيعة مرضي وأن عقلي هو السبب، أما كياني فيحفظ عن ظهر قلب اسمه الجديد، أمينة! ومع ذلك أردد في كل مرة تسألني، بيني وبين نفسي، بصراخ مكتوم داخلي: أنا ياسمين شاهين! ياسمين شاهين! اسمي ياسمين شاهين! حتى تصفح عني المزورة وترحل.

من الأشياء العجيبة داخل مكان الخطف عدم وجود الألوان، مع سيطرة الأبيض والأسود، أو فلنقل الرمادي، على كل شيء موجود، وذلك بسبب استخدام إضاءة أحادية اللون لا تعكس موجتها الألوان، فتنجح في إضافة الكآبة بامتياز على الجو العام، ولحظة بلحظة تسحب من داخلك الحياة، وتحولها إلى لون قاتم ينهش كيانك باستمرار.

والحيز كبير، يجعلك تعجز عن تحديد مكانك، هل أنت تحت

HTTPS://T.ME/RIWAYA2025

الأرض أم داخل مبنى محاط بعوازل صوت؟ خصوصًا مع معرفتنا بوجود المساحة ذاتها من أجل جناح الرجال، الذين يقومون بنفس دورنا مع تبديل الشخصيات، فتجد الكتبة كاتبات، والمزورة رجلًا وهكذا، ومع ضخامة المساحات وشسوعها وكثرة المخطوفين، تتأكد يومًا بعد يوم أن الموضوع بُني خصيصًا لغرض الخطف وتعذيب أعداء نجيب محفوظ.

كلما تأملت المكان من بين اللون الرمادي الكئيب، عرفت أنه عبارة عن دورين، الدور الأرضي الذي ننام فيه، وتقابلنا الحمَّامات، والدور الأول المكون من جناح الكتبة وغرفة المزورة وغرفة المدير والغرفة المحرمة.

تبدأ قائمة مهامي بعد دعاء الصباح والسؤال عن اسمي، بالمرور على أجنحة الكتبة العشرين، وقد أقف أمام الجناح الواحد لمدة ساعتين، حتى يؤذن لي بالدخول، ويطلب مني الجالس أي شيء؛ تنظيف المكان، الرقص عارية، الاغتصاب، ركوبي كحمارة، صفعي وضربي، التبول عليَّ، تحريك عجلة الأسئلة، فيأذن لي بالكلام، أو ربما يجبرني على تحريكها طوال اليوم من دون الإجابة عن سؤال واحد!

بعدها، لا مفر من انتظار المزورة حتى تأتي للتأكد من مستوى الخدمة، ولو قصرت أو رفضت أو بكيت، يتم تحويلي إلى مجلس تأديبي، يقرر أعضاؤه عقوبة تليق بتمردي، وفي حالتي، تم عقابي في شهري الأول لأكثر من أسبوعين بالحبس الانفرادي، مع منع أدويتي الخاصة بمتلازمة توريت، إلى أن قررت الاستسلام نهائيًّا.

يحق لكل الشخصيات المهمة في المكان قول ما يحلو لهم من

أسرار ومصائب، اعتمادًا على عدم مغادرة المخطوفين أبدًا، فالسر محفوظ معهم إلى يوم مماتهم، سواء بفعل فاعل أو بفعل الموت.

والكتبة مجهولون، غير مسموح بمعرفة أسمائهم، مفكرون ومثقفون، باستثناء شخص واحد، الوحيد الذي أخبرني باسمه والذي يتلذذ بتعذيبي، أما البقية فلا يطلبون مني شيئًا، لانشغالهم - وفقًا لما قالوه من تلقاء أنفسهم - بكتابة أعمال ستظهر في المستقبل على أنها تخص نجيب محفوظ واكتُشفت في شقته مثلًا، أو كمسودة تركها الأديب عند صديق!

والغرض من وظيفتهم هو ضمان وجود نجيب محفوظ بشكل متجدد وعصري، حتى لو كان ميتًا، وترسيخ اعتقاد أن أعمال الأديب كلها لم تكتشف بعد، فيظل هو الأديب المتفرد، الذي ينتظر قراؤه إبداعاته، مهما تأخرت، مثله مثل الأساطير، كل يوم نرى معجزات جديدة.

كل جناح من أجنحة الكتبة عبارة عن غرفة فندقية كبيرة، بها من الملذات ما يجعلك تتحسر على حظك الحالي، خصوصًا مع توفر سرير ضخم، وتلفزيون لا يعمل في وجود الخادمات أمثالي، وحمَّام فاخر بمياه ساخنة وفاترة، وثلاجة مليئة بخيرات الله، ونبوت ضخم قد يحتاج إليه الكاتب في ضرب ما يشاء لطرد القلق والتوتر، وتصفية المخ من أي عقبات تعسر من عملية الكتابة.

يمكن للكاتب الاستعانة بالخادمات في إدراك الشعور الغامض، أو العصي على الفهم، فلا يصح خروج كتاب يحمل اسم نجيب محفوظ وبداخله معلومة مغلوطة، أو كتابة عن شعور تحير القارئ

بوصف غير محكم! كالكاتب الذي استخدمني لمعرفة تأثير وضع حديدة ساخنة تحت إبط إنسان، كي يجيد وصف تعذيب شخصية في عمل، ولا يخذل قارئ نجيب محفوظ، العاشق للتفاصيل.

ربما يمر اليوم بأكمله وأنا واقفة أمام كاتب، أو قاعدة أسفل قدميه مع التقبيل والتغسيل، ليرضى عني ويعطيني تفاحة، ألتهمها بسرعة قبل مجيء المزورة للتأكد من قيامي بوظيفتي على أكمل وجه.

المفروض بعد فقرة الكتبة أنتقل إلى الحمَّامات، أنظف أرضياتها وأحواضها ومراحيضها، مع تسجيل فقرة صوتية أشكر فيها ربنا على نعمة تنظيف الحمَّامات والشغل في جنة كتلك، وإن ظهر في صوتي أي رياء أو سخرية، أو لاحظ المسؤولون كذب اعترافاتي، ستنتقم مني المزورة بقطع أصابع يدي.

في اللحظة التي أسمع التسجيل وأعيده عشرات المرات كي أصل إلى مدى الصدق المطلوب فلا تعذبني المزورة، يرن جرس المكان، بنغمة متكررة تقول: «ولكن آفة حارتنا النسيان!»، بصوت جهوري مرعب، تعاد أكثر من عشرين مرة، إلى أن تجتمع الخادمات في غرفة كبيرة، بها مقعد واحد تستخدمه عجيزة المزورة لتوزع القوائم المتغيرة للمهام الضرورية بيننا.

كل الخادمات بلا استثناء، يقمن بنفس دوري، الكتبة والحمَّامات، ثم ينتظرن القوائم الجديدة، والتي يدعمها الحظ بجزء كبير، فقد تجد خادمة مهمتها التالية هي تقبيل المزورة، وبعدها يمكنها الرجوع إلى جناح الخادمات لترتاح وتنام، إلا أنا، أنا الوحيدة المكلفة بقائمة لا تتغير منذ قدومي، مراقبة فترة غداء المجاذيب!

في أسابيعي الأولى ركعت للمزورة، وأقسمت أنني على أتم استعداد لفعل كل ما تريده برضا تام، حتى لو كان اغتصابي، مقابل تسليم مهمة المجاذيب لخادمة أخرى، ومع رفض المزورة المتكرر وضربها لي لأنني تكلمت من دون استئذان، استعوضت ربنا في تأدية خدمات أخرى، وبدأت تنظيم معاملتي مع المجاذيب.

غرفة غداء المجاذيب عبارة عن جناح كزنازين السجن، ضخم ومساحته مهيبة، يتسع لاحتضان مئات المجاذيب، ومهمتي هي المشي بينهم والإشراف على راحتهم، لعل مجذوبًا يريد شيئًا، فإن تأخرت عنه سودت المزورة عيشتي، وسمحت للمجذوب بصفعي والبصق عليَّ، ثم تأمرني بتقبيل رأسه وقدمه، والانصراف لخدمة أسيادي المجاذيب.

في إحدى ليالي الأنس، بعد وصلة رقص أمام البصاصين تحت إشراف المزورة، استسمحت سيادتها وطلبت الإذن بالكلام، فأشعلت سيجارة ووافقت، لأسألها عن سر وجود المجاذيب بالمكان وما هي الغرفة المحرمة، وهو ما أجابت عنه بتوضيح شامل: «المجاذيب يا حبيبة قلب المزورة سلاح عبقري ابتكره الواد نديم، ابن أخت الزمخشري، كل يوم يخرج بعربيات نقل، ويرجع معه مجاذيب، ولا أجدع صياد، يقدم لهم الأكل والشرب، ولو في منهم واحد عنده مخ وصاحب مزاج يوفر له مقابل أنهم في كل الأماكن الموجودة يتأكدوا من وجود أعمال نجيب محفوظ. ولاد العبيطة أساسًا نجيب محفوظ بالنسبة إليهم مجهول، لكن طلعوا يقدروا يحفظوا شكل الحاجة بطريقة ممتازة، فالواد نديم بقى يعرض صور اسم نجيب محفوظ،

الطريقة المكتوب بها، وشكل الأعمال، سواء القديمة أو الجديدة، يوم وراء يوم لقى المجاذيب وقت ما يسألهم عن نجيب محفوظ في منطقة معينة يا إما يجاوبوا بآه أو لا، وهو بعدها ضروري يتأكد من إجابتهم، وسبحانك يا رب، ولا مرة واحد منهم قال آه وحصل العكس، أو قال لا والأعمال موجودة! فهمتِ يا بنت العبيطة؟ أما الغرفة المحرمة فإياكِ تسألي عنها ثانية! انجزي، أنا عاوزة رقص! هزي يا تربية البهائم! مزاج ودماغ البصاصين عندي أهم من أسئلتك الغبية! أقول لك، نامي، كلها كام ساعة ودفعة المخطوفين الجديدة على وصول، وحضرتك المسؤولة عن تقديم المكان!».

وطائفة البصاصين هم الأقدم هنا، إلى درجة أنهم جاءوا أولًا، ثم جاء المكان بكل أعضائه، ودورهم مراقبة أحباب وأعداء الأديب، وكتابة التقارير الشاملة الوافية الملحقة بتفاصيل التفاصيل، ابتداءً من عاداتهم وأماكن الزيارة، وصولًا إلى أكثر الأسرار الشخصية ظلامًا، لاستخدامها ضدهم في الأوقات المناسبة.

هذا بجانب الترصد اليومي لأكثر الأماكن المحببة لدى نجيب محفوظ، من مقاهٍ ومطاعم، وضمان استمراريتها، أو التدخل في الوقت المناسب لحل مشكلة خاصة بالأوراق أو التراخيص، وفي حالة تخلي المالك عن مقهاه مثلًا، يتم تقديم أفضل العروض له، وتجديد المكان بعد تسميته على اسم الأديب، أو على أي شيء يخص أدبه، من رواياته؛ كمقهى الحرافيش، أو مطعم قلب الليل، وهكذا.

لم يرعبني وجود المجاذيب بيننا، بل ما زرع حقًّا الخوف داخلي هم طائفة البصاصين! لأن الناس خارج التنظيم يقابلونهم يوميًّا

من دون معرفة دورهم الخفي! فالبصاص قد يكون القهوجي، المكوجي، الزلباني، بائع الآيس كريم الرخيص، الحلواني الشعبي، كمسري عربات النقل العام، جامع القمامة في الشوارع، مندوب البضائع الرخيصة، عامل توصيل البقالة، سائق التوكتوك، رجل الأمن بالمستشفيات، الساعي الذليل بالمكاتب الحكومية، بائع الروبابكيا، صاحب عربة الفول، ماسح الأحذية، العجلاتي، نادل الصالات والمطاعم. باختصار، طائفة البصاصين هم كل طبقات الشعب المتوسطة والأقل، الذين حين تراهم لن تصدق من طيبتهم، ووجوههم السمحة، وانخراطهم في رزقهم اليومي ولقمة العيش، أنهم أخطر طائفة يقوم أكبر تنظيم سري على حس مجهوداتهم!

يوميًّا وأنا بين الجميع، المزورة والكتبة والحمَّامات والمجاذيب والبصاصين، أخدمهم متنازلة عن كرامتي وكبرياء أنوثتي مقابل البقاء على قيد الحياة لأطول فترة ممكنة، إذ ربما أغادر وأعود إلى بيتي، أو إلى طين الأرض.

منذ اختطافي وأنا أقف بشكل أسبوعي، بمعنى كلمة بشكل أسبوعي، أمام ضحايا جدد، أجهل من أين جاءوا، أو لماذا يتم جلبهم كل أسبوع، وهل فعلًا كل هؤلاء هم أعداء نجيب محفوظ؟ وإذا كان أعداء نجيب محفوظ في تزايد، فلمَ لا يتحدث الناس عن حقيقة مشاعرهم تجاهه؟

لطالما تمالكت أعصابي، وفي الآن نفسه كرهت حياتي وأنا أشرح لهم أسباب خطفهم، وأعرفهم على أدوارهم داخل «ت.س.ح.ا» أو «تسحا» أو بمعنى أصح: «التنظيم السري لحماية الأديب».

٢

في يومي الأول بالتنظيم، بعد خطفي من ميدان السيدة، بكيت بلا توقف لمدة قد تفوق الساعتين، توسلت إلى طوب الأرض، قبَّلت أقدام سيدات ورجال، لعلهم يساعدون أمًّا ستقتلها أحزانها خوفًا على ابنها المرمي في ميدان السيدة، وزوجة تشتاق إلى زوجها، الرجل الذي عاملها كما يليق بالأميرات.

لحسن حظي كانت أدوية متلازمة توريت معي في حقيبتي التي سلبوها مني، وبعد ازدياد هياج عقلي، وخروجه عن السيطرة، وتكلمي أغلب الوقت بالسباب والشتائم والدعوات بالموت، رضخ الخاطفون وسلموني الأدوية في يومي الثالث، بعد عدة شكاوى قدمتها المخطوفات الخادمات لعدم قدرتهن على النوم ومواصلة أعمالهن بطاقة وحيوية، بسبب المجنونة الموجودة بينهن.

في يومي الأول صفعتني المزورة كي أمتنع عن البكاء، ثم رفعتني ورمتني عاليًا، لأسقط بثقل جسدي على رأس رجل عجوز معنا، فقد الوعي بعدها، وقالت إنها ستقتلني حالًا إذا ظهر الباشا الكبير ليلًا ووجدني بتلك الحالة.

للأسف، ظننت أنه باستطاعتي التحدث والاعتراض أو طلب أي شيء، لكن مع ظهور الباشا الكبير، ساد الصمت العام، صمت مخيف، حتى تكاد تسمع تسبيح الملائكة بالأعلى احترامًا وإجلالًا لرجل يرى نفسه رب عالم نجيب محفوظ.

وقف أمامنا، لتتقدم المزورة قائلة: «يا زائر الليل افتح لي باب

التكية واملأ حجري بالتوت، يا زائر الليل جدد مباني حارتنا القديمة، يا زائر الليل نجنا من الفقر والجهل والموت»، ثم انحنت وقبّلت يمينه، فلا ينتبه لوجودها، ومر بيننا يتأمل وجوهنا، ومع كل إشارة من يده يتم سحب المشار إليه ويختفي إلى الأبد.

بدأ كلامه التعريفي بنبرة هادئة، تحمل سمة العظماء: «مساء الخير، أنا الزمخشري، أو زائر الليل، ولمن يجهل زائر الليل، فهي شخصية تمنى الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، مقابلتها، فقررت أن أكون أنا زائر الليل، لأحقق كل أمنياته وأمنيات عاشقيه والمهتمين بأدبه، وأحارب الكارهين والمتطفلين وعديمي التربية! أول حاجة، ممنوع أننا نسمع صوت حضراتكم، أنا أو المزورة أو أي شخص من الموظفين، إلا بإذن خاص، وأكيد مفهوم أن الموافقة قد تمنح أو ترفض، ولو واحد منكم طلب أنه يتكلم ورفضنا، لكنه على الرغم من الرفض تكلم! حقيقي أنا عاجز عن وصف العذاب والمعاناة! لكن أحب أوضح حاجة، لو، وأحب أعيدها، لو، نقول للمرة الثالثة، لو سيادتك معك إذن بالكلام وسؤالك عن الأديب، يبقى تقول الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، إنما تقول اسمه أو الأديب فقط؟ يا سواد الليل وموت كل كلب بذيل! حضرتك، الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، بعد الرجوع طبعًا لعلماء وشيوخ، لم يكن رجلًا عاديًّا، أو أديبًا متميزًا، نجيب محفوظ ممسوس، عاشت جنية الحكايات جواه، وقدرت تقنعه أن يكتب ما لم يُكتَب، وهذا

سبب أن الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ قدر يحصد نوبل!».

تحرك ببطء مبتسمًا، وعيناه تنضحان بلمعة غريبة، لمعة إنسان شغوف يتحدث عن هدفه الأوحد، وبسرعة اقترب من رجل عجوز، يهزه بعنف معلقًا: «آه! نظرة التعجب في عينيك يا حاج! والله سامع الاستغراب جواك يا جدي! سامع كلامك قبل نطقه، عاوز تسأل عن موضوع إن الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ ممسوس؟ الموضوع باعترافه يا أستاذ! باعتراف العملاق نفسه! الموضوع مستحيل بالنسبة إليك، صح؟ لحظة واحدة والدليل يكون أمامك!».

ركضت المزورة بكتاب، غلافه ذهبي لامع، من الواضح أنه لا يخص النسخة وقد تم لصقها بداخله، وبعد النظر إلى السماء، وهمهمة وشهيق وزفير، قال: «تفضل يا سيدي، في كتاب «أصداء السيرة الذاتية» للأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، كتب تحت فقرة «من التاريخ» الآتي: «في ذلك الوقت البعيد قيل إنه هاجر أو هرب، والحقيقة أنه كان يجلس على العشب على شاطئ النيل مشتملًا بأشعة القمر، يناجي أحلامه في حضرة الجمال الجليل. عند منتصف الليل سمع حركة خفيفة في الصمت المحيط، ورأى رأس امرأة ينبثق من الماء أمام الموضع الذي يفترشه. وجد نفسه أمام جمال لم يشهد له مثيلًا من قبل. ترى أتكون ناجية من سفينة غارقة؟ لكنها كانت غاية في العذوبة والوقار فداخله الخوف، وهَمَّ بالوقوف تأهبًا للتراجع، ولكنها

قالت بصوت ناعم: «اتبعني». فسألها وهو يزداد خوفًا: «إلى أين؟»، «إلى الماء لترى أحلامك بعينيك». وبقوة سحرية زحف نحو الماء وعيناه لا تتحولان عن وجهها!»».

بقلق لافت للنظر، ابتسم العجوز متوترًا، لم يعلق على المقولة، مكتفيًا بهزة خفيفة لرأسه، تبعها بسعال، فصفعه الزمخشري ليسقطه أرضًا: «أظن... أني... نبهت... في... أول... كلامي... على ضرورة الاستئذان! النفَس يطلع منك بإذني!».

مع أننا اقتنعنا بكلام الزمخشري عن مدى تفرد الأديب، لكنه شعر بعظمة درامية تستوجب الوقوف وإحضار المزيد من الأدلة لمجموعة من المخطوفين، أهم ما يهمهم وقتها الخروج أحياءً، أو العيش هنا بسلام بعيدًا عن جنون الزمخشري عبد نجيب محفوظ.

بينما الرجل العجوز واقعًا يبكي، جلس الزمخشري فوقه، ولم يعبأ بسن العجوز أو وهن جسده، واضعًا صفحة الكتاب نفسه في وجه العجوز صارخًا: «قدام عينيك يا أبويا! دليل واضح وضوح الشمس! اسمع يا أبويا، اسمع وشوف الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، وهو يدندن معترفًا بالمس، ورؤيته لأشياء لا نراها! تحت فقرة «نداء» كتب: «أحيانًا يظهر لي بوجهه الجميل فيلقي إليَّ نظرة رقيقة ويهمس: «اترك كل شيء واتبعني!»، قد يلقاني وأنا في غاية الإحباط، وقد يلقاني وأنا في نهاية السرور، ودائمًا ينتزع من صدري الطرب والعصيان. وكلانا لم يعرف اليأس بعد!»».

نطق شاب من الخلف من دون انتظار تعليق الزمخشري أو السماح

بالكلام: «يعني أنا مخطوف من واحد يعبد نجيب محفوظ! أستغفر الله العظيم! يا عم وحياة حبيبك نجيب محفوظ الأديب المنفوخ بين... لا حول ولا قوة إلا بالله، يا عم، يا سيدنا، يا زائر الليل، أنا مستعد أطلع من هنا، ورحمة أبويا في قبره...».

في أثناء اعتراض الشاب، قفز الزمخشري من فوق العجوز ساحبًا مطرقتين تمتلكان القدرة على هد جبل، وفي ذات اللحظة ضرب رأس المسكين بهما، كأنه يحمل صنجين ويخبطهما بلا احترام لوجود رأس الضحية، فمات المخبوط في لحظتها، وجن جنون الزمخشري، حيث طاح في كل الرجال، وشاركته المزورة ضاحكة، هو يدق رؤوسهم، وهي تفجر رؤوس النساء باستخدام بندقية، والدماء تتطاير مع الأشلاء، وسط صراخنا وركضنا في المكان كالفراخ التي تهرب ممن يحاول الإمساك بها.

كان يصرخ بعز ما يملك: «الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، كان ممسوسًا، من الذي كان يراه؟ ومن المرأة صاحبة الظهور المميز والغطس بالنيل؟ ترفض عقولكم الضحلة تصديق المعجزة؟ هو قال بنفسه إنه أملى السيرة الذاتية على جمال الغيطاني، وصدرت في كتابه «نجيب محفوظ يتذكر»، والجانب الفكري والعقلي أعطاه لرجاء النقاش في كتابه «صفحات من مذكرات نجيب محفوظ»، وقال بنفسه هناك فتافيت ومناطق لا أسئلة جمال تناولتها، ولا أسئلة رجاء حامت حولها، فكتبها هو! وقال جملته الشهيرة: «من يريد أن يعرف عني، فعليه قراءة هذه الأعمال الثلاثة!»».

قتلهم جميعًا، وجاء الدور عليَّ، أنا المقهورة الخائفة، المختبئة خلف رجل في أواخر الثلاثينيات.

اقترب الزمخشري منا، يمتلك جسدًا ضخمًا يشبه أبطال رفع الأثقال، مع طول فارع يجعله فعلًا زائر الليل وكابوسه الأسوأ، لم ينجح أي رجل من المخطوفين في مجاراته أو الإفلات منه، يتمتع بلياقة يُحسد عليها وسرعة تدهش، يبين من ورائهما تدريبات شاقة آمن بها الزمخشري، فآمنت به ونحتت جسده كشخصيات القصص المصورة عن الأبطال الخارقين.

مع اقترابه منا، أقسمت له، من بين بكائي واستجدائي، بحبيبه الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، ألا يقتلني، وأنني تحت أمره، سأنفذ طلباته كلها مهما كانت، كل ما عليه فعله هو الإشارة، كن فيكون، وإن تقاعست عن أداء دوري، فالعقاب أسلم حل، ثم ركعت تحت قدميه، أقبلهما ببكاء قد يشرخ حنجرتي، وسألته من بين دموعي: «والله كل حاجة أنا تحت أمرك فيها، لكن نفسي أعرف ابني أيهم حي ولَّا ميت؟ أرجوك!».

هضم الزمخشري وجبة القتل، وقال إن ابني حي وتم إسعافه، وهدأت المزورة، وبعد اختفاء الصيحات، وقتل كل من حولنا، رحب الزمخشري المجنون بالرجل الواقف أمامي: «أخيرًا يا كاتبنا! يعني أنا أحب أفهم سبب هجومك ضدنا! كان ممكن كل الأمور تمشي بشكل سليم ورسمي، وتكتب مقالات نقدية عن نجيب محفوظ، أنت وأي حد ترشحه، والفلوس موجودة تحت أمركم، لكن الشعارات

الوهمية والضمير وأنا أكتب ما أؤمن به، يا جدع، وهل في إيمان أعظم من إيمانك بأعمال وموهبة رب الأدب! وفي الآخر نتفاجأ بمقطع لسيادتك من برنامج تلفزيوني، وبكل ثقة شايف إن الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، وليد الصدفة! وإنه كاتب ذكي، قعد وسط الناس في القهاوي، وسمع حكاياتهم ونقلها! يعني هو العيب عليه إنه نقل الواقع وكتب مصر ومجتمعها؟ هات لي أي كاتب عملها مثله! كلهم أصحاب فلسفة فارغة، إنما هو! ممسوس! جنية الحكايات وآلهة الكتابة من كل الحضارات لبسوه يوم نزوله إلى النيل! لكن معلهش، كان المفروض إن القناة تقطع اللقاء، والمذيعة، آه، تقريبًا المذيعة هي تلك المقتولة هناك؟ الجثة وراء ظهرك يا مزورة، لا، الأخرى، الجثة المفشوخة، أم شعر أحمر، هي صح؟ تمام، نرجع لكلامنا، كان المفروض المذيعة، الله يرحمها، تقاطعك وتنهي الحلقة! أتمنى تكوني سامعة الحوار يا أمينة، وتعرفي حرية الرأي وصلت بنا إلى أي انحطاط!».

لاحظت تلعثم الكاتب وابتلال سرواله، الرجل من شدة خوفه تبول ولا يشعر بفداحة فعلته، والحقيقة معه كل الحق، فكيف يشعر الإنسان بمصيبة وهو أمام أعظم المصائب، التهديد بالموت؟

الفكرة الوحيدة المسيطرة على كياني منذ يومي الأول بالتنظيم، هي أنني لن أخرج أبدًا، حتى لو أقسموا لي على ذلك، فمن المجنون الذي سيصدق منظومة سادية يجري القتل في عروقها، وتستمتع بقتل الناس؟ ثم إنني وفقًا لمنظورهم، أكثر الأشخاص

تجاوزًا في حق الأديب، مع العلم أنهم عذبوا وقتلوا من كتب مقالات نقدية تهاجم مؤلفات الأديب، على الرغم من أن تلك النوعية من الكتابة تثير الحنق، وتجبر الجماهير على الاشتراك، سواء في محازبة الكاتب، أو الانضمام إلى الأغلبية الرافضة، فكيف إذن سيطلقون سراح شخص، لسنوات وهو يتهم نجيب محفوظ باشتراكه في غرس أصول الذكورية، وأنه لم يكن مجرد ناقل لمساوئ المجتمع؟

لاحت المزورة في المشهد تضحك على منظر الرجل، وتشير إلى الزمخشري، فينتبه ويشاركها الضحك بهستيريا، إلى الحد الذي أسقط فيه المطرقتين، وما بين غمضة عين وفتحها، شق الزمخشري بطن الكاتب بقطاعة موز، خرجت من اللاشيء، ثم ذبحه وهو يرقص، يردد كلمات أغنية عربية، ويمثل بجثة الكاتب قائلًا: «وسيدي العجوز قال لي إياك تقرب الحبيب، وسيدي الحبيب قال لي احذر عشق الصبايا! الله! الله! الله! حي، حي، حي!»، لأفقد الوعي من بشاعة منظر الجثامين حولي.

٣

في حياتي السابقة، أعني قبل خطفي وانضمامي عنوة للتنظيم، كنت أنتمي إلى طائفة المعافرين الذين يحركهم الأمل، مهما تكالبت عليهم الصعاب، وإذا الأزمات راهنت على خسارتهم، فهي تنهزم

أمامي في كل مرة توهمت وقوعي، إذ إنني أتسلح بالعائلة، المبدأ الأساسي والعقيدة الثابتة لمحاربة سخافات الحياة.

أعترف منذ جبري على الالتحاق بالتنظيم السري لحماية الأديب، بمدى خفوت طاقتي تجاه استكمال المعارك، وارتضيت قبول الهزائم، والتخلي عن كفاحي العام ضد الذكورية وإهانة المرأة، أملًا في رؤية أيهم ونجيب من جديد، تنفيذًا لوعود الزمخشري والمزورة بالعودة إليهما بعد مرور عام كامل، ومثلما جرى خطفي في سنوية نجيب محفوظ، سأرجع إلى عائلتي معززة مكرمة، تنقصني فقط النزعة الهجومية الأنثوية في السنوية المقبلة.

أربعة أشهر مرت ولم يتمكن اليأس من نقطة العائلة، تمسكت بصورة أيهم ونجيب، حفرت ملامحهما داخل قلبي، تنازلت عن اسمي ورفض الضرب، خدمت البصاصين والمجاذيب والحمّامات والزمخشري والكتبة والمزورة، كل الموجودين يقولون إنني عاهرتها، وافقت على الاتهام بصدر رحب، وعشت على أمل كاذب، إذ ربما بعد ثمانية أشهر، سأنسى آلام وذكريات الخطف، وسأحتفل بعذوبة الإياب.

قيل لي بعد شهر من احتجازي إنني الخادمة الأقدم، والأم الوحيدة الموجودة، والتي ستتعلم كل دروس الخضوع والذل والمهانة، حتى تعرف أن الله حق، وأن نجيب محفوظ خليفته في الأرض، فإذا كان الجالس على عرشه فوق هو رب العالم، فالأديب الجالس فوق عرشه تحت الأرض هو رب الأدب.

لاحظت في المرات القليلة التي طلب الزمخشري رؤيتي فيها بعد

شمولي بهالة الأقدمية، أنه توقف عن مناداتي باسم أمينة، وأضاف لقب «سمراء»، فصار يقول تارة أمينة سمراء، وأخرى سمراء فقط، على الرغم من أنني والحليب الرائق نتشارك في البياض، ومع ذلك إذا رآني الزمخشري أو زائر الليل سمراء، فأنا سمراء وبنت السواد كله، ولما عرف الموظفون بأمر التسمية، صار الاسم ملتصقًا بي، لا يفارقني، تتغامز به الخادمات، أو يقوله الموظفون الرجال مع بصقة معتبرة.

بحسبة بسيطة، مع تكرار الأحاديث الجانبية بهمس لا يسمع، عرفنا ـ نحن الخادمات ـ أننا كلنا أمهات، وأي خادمة عزباء أو أرملة، أو مطلقة وليس لديها أولاد، يتم قتلها بلا رحمة، طبقًا لخطط الزمخشري في عبقرية التخلص من النساء، أو استخدامهن كأدوات ترفيه وتوضيح للكتبة.

مثلًا طلبت مني المزورة يومًا التوجه إلى جناح الكتبة، وخصوصًا الجناح الرابع، لأن الزمخشري بالأعلى، يريدني حالًا.

ركضت ركض المجانين إثر تهديدي باقتلاع عيني إذا تأخرت عن تلبية استدعاء زائر الليل، بلغت وجهتي في أقل من دقيقة، وقلت بأنفاس تصارع التعب، بعد الاستئذان بالكلام: «يا زائر الليل افتح لي باب التكية، **قرنفل!** واملأ حجري بالتوت، **أمك قرعة!** يا زائر الليل جدد مباني حارتنا القديمة، **ولا تعرف تعمل حاجة!** يا زائر الليل نجنا من الفقر والجهل والموت! **يا رب تموت!**». ثم انحنيت لأقبل يمينه كطقس تحيته ومعتذرة عن قلة أدب عقلي، فرفعني بعزم ما يملك، ورماني لأصرخ من قوة الارتطام، ويقول الزمخشري

بعدها بهدوء وثبات: «هكذا تكون صرخة الأنثى وشكل جسمها، لما يرميها رجل يحب الضرب والعنف الزوجي! امسح يا أستاذ القرف المكتوب، ومن فضلك، اتبع أسلوب الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، في مثالية وصف تفاصيل التفاصيل! لن أسامحك المرة المقبلة!».

رفعني عن الأرض كرفع طفل لدميته، ومشى بي خارج الجناح حاملًا جسدي الضئيل قصاد بنيته، تجاهلت نظرات الخادمات، وتوعدات المزورة بحركات رأسها، كل ما فعلته وأنا مرفوعة بلا حول لي أو قوة هو التقاء أعيننا، لم أفهم السبب وراء تصرفه الغريب، لكنها المرة الأولى التي أقترب فيها منه، وأرى ملامحه بوضوح وعن قرب، وأشم أنفاسه ورائحة عطره، كم تمنيت البصق عليه، أو اقتلاع عينيه وتثبيت فوطي الصحية مكانهما، وعقب وصولنا إلى غرفة مكتبية ضخمة، ركل الباب بقدمه، لندخل، ويضعني فوق مكتبه ويغلق خلفنا.

ظننتني على مشارف اغتصاب، واستباحة جسد ليس ملكه، فجهزت نفسي بالدعاء لربنا بالستر أو إصابة الزمخشري بسرطان فوري، يسكته ويسقطه أرضًا، إلا أن الزمخشري طلب مني غسل قدميه بماء وملح، وأتبعها بجلسة مساج وأنا عارية.

قعدت أرضًا، ووضعت قدمه اليمنى في الطست النحاسي الفاخر، أظن أنه من النحاس، وفقًا لملمسه، فالألوان منعدمة في التنظيم، ثم أصب من إبريق نحاسي الماء المخلوط برائحة الورد البلدي والقرنفل، وأنثر ملح البحر برفق، وأدعك قدميه بحجر خفاف أسود،

وسط تأوهاته المستمتعة، وسريان قشعريرة في جسده مثلما وضح، والمشهد كله يحتله اللون الأوحد، الرمادي.

أفتقد الألوان، أتخيل لون الأشياء كي لا أنساها، أشير إلى التفاحة وأقول هامسة: «كان لونها أصفر وأحمر وأخضر، أو مزيجًا من الأحمر والأصفر!»، ثم أجبر خيالي على تذكر مختلف الألوان، لأضمن فشل مخطط التنظيم في محو كل الجمال من داخلي.

من طريقة تعامله معي، حمدت الله على اعتدال مزاجه، كان يدندن مع صفير خفيف، وينفخ دخان سجائره تجاهي، وكلما سعلت رفعني إليه، ليقبلني ويرجعني بعدها إلى الأرض، كان سعيدًا بالمرأة الضئيلة التي يلعب بها، والتي تخدمه مجبرة تحت إمرة الأمل في استعادة حياتها، بعد تجربة قاسية تسحب الروح وتستبدل بها جمود الحياة.

في أثناء غسل قدميه طرق الباب أقدم البصاصين لدينا اسمه صلاح أولسيه، وقال إن عدة أخبار مهمة يجب التطرق إليها حالًا، وإيجاد الحلول المثلى لكل موضوع بشكل قاطع.

سحب أولسيه نفَسًا من سيجارته، ثم فتح أجندة قديمة، وبدأ في عرض ما لديه: «فتح الكلام، مكتبة «ألياف» في البدرشين، رفعت كتب من القائمة الخاصة بمكتبات الحدود من عندها، وحجة ابن المرة إنه عاوز يكبر مساحة الأرفف، بسبب طلبية تعاقدات جديدة مع دور نشر شبابية! ثانيًا، الأستاذ الكبير نعيم صبري، فيه شخص حقير قاعد له في معظم منشوراته على مواقع التواصل، شخص مستفز ابن كلب مصمم يضايقه، مع إن الرجل في قمة الاحترام وكلامه كله موزون! ثالثًا، علاء الشامي لما عرف إني هنا، عاوز يعرف رأيك في أمر، الموضوع

باختصار، معظم أعمال الحاج أمير سعيد جودة السحار الله يرحمه، قدرنا نجمعها عندنا في المخازن، والمخزن منتظر إشارتك يا زائر الليل، نوزع الأعمال ولّا نخزنها؟ رابعًا، والصراحة الموضوع مصيبة لوحده، لكن في مقطع على مواقع التواصل منتشر جدًّا لقرار توسيع تكية محمد أبو الدهب وفتح مجمع مطاعم بجانب متحف الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ! ولما كلفت الواد صادق السايس يتأكد من المعلومة رجع وقال لي شكل الموضوع حقيقي!».

انتفض الزمخشري وخبط مكتبه، فابتعدت عن مجاله اتقاءً لضربة فجائية تقسمني نصفين: «مجمع مطاعم بجانب المتحف! أنت متأكد من الكلام؟ آه، نديم بعث رسالة بنفس الكلام! واضح إنه نهار أسود!».

سحب هاتفه ليطلب رقمًا، وقال بعلو صوته: «عارف بيه! من دون دخول في أي تفاصيل! مظاهرة الأدباء، آه، تتم التصفية حالًا! فاهمني يا عارف! ناوي تكلم من؟ حلمي؟ اسمع، تتصل بحلمي، تتصل بالجن الأزرق، أنا عاوز مصيبة في البلد! أنت فاهم! البلد اتجننت يا عارف! مطاعم وشباب وبنات وضحك وخروجات! في محيط قداسة الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ! نديم قال لي من فترة إن الموضوع مطروح، وعملنا مكالمتنا وقالوا إن الكلام طبعًا في مرحلة التفكير، وطلبنا إلغاء الفكرة وقالوا بسيطة، وفجأة ألاقي قدامي خبر البداية! عارف بيه! أنا عاوز تصفية الأدباء تتم حالًا!».

أغلق الهاتف في وجه عارف، وأشعل سيجارة قائلًا: «أنا رجل أفعال، وما دام المسؤول قرر يضرب بكلام التنظيم في الحائط، يبقى نتفرج على المأساة!».

ثم نظر إلى صلاح أولسيه، ونبهه إلى ضرورة تنفيذ التعليمات بالحرف الواحد: «اسمع، كلامي يوصل لزيطة بالحرف الواحد، الواد المستفز الموجود في كل منشورات عمنا نعيم صبري، بعد ساعتين زمن يبقى في جناح الخدم عندنا! وكتب أمير السحار يتم توزيعها في القرى، أي نعم في عداوة بيننا وبينه من ساعة تصريحه بأن كتب الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، لا تبيع، لكن معلهش الرجل عند ربنا، وكفاية عليه حملاتنا من ساعتها!».

اختفى صلاح أولسيه في ثانية، ليصفعني الزمخشري بلا أي سبب، تقريبًا كتنفيس عن غضب، ثم هاتف بثينة يأمرها بضرورة التعامل مع موضوع مكتبة «ألياف» سواء بشراء المجموعة كلها، أو عرض نسبة مبيعات مغرية، فلا يرفعها البائع القذر من فوق الأرفف، وجلس ليدخن سيجارته والشر يحتل عينيه.

مع تكرار سعالي، رفعني إليه مجددًا، لم يقبلني، وبدلًا من إنزالي على الأرض وضعني فوق عموده الخرساني، وبدأ يتكلم كأنه يدغدغني وليس يغتصبني: «الحقيقة يا سمراء، قال الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، إن المستهين بقدرات النساء أتمنى أن تعاد طفولته بدون أم! ومختصر كلامه هو تبجيل الأم، وأنا كزائر الليل أرحب وأبجل الأمهات تنفيذًا

لرغبات رب الأدب، وأعتقد أنكِ تحتاجين إلى أن تسجدي شكرًا لله لأنه بسبب مكانة الأم أنتِ حية بيننا! يعني مثلًا أول واحدة قتلتها، المدرِّسة! يا خبر أبيض! الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، قال عنها على لسان شخصية الأم «زينب» في رواية «السراب»، لما وصفت زوجة ابنها كامل، رباب جابر: «بإن المدرسة عادة ما تكون دميمة أو مستهترة مسترجلة!». فأتمنى يا سمراء، من كل قلبي، إنك تحسني اختيار قراراتك في الشهور المقبلة، وإياك تنسي، في سنوية الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ عندنا فقرة الإعفاء الرئاسي عن المخطوفين في التنظيم! يعني ممكن مع حسن سلوكك ترجعي لأيهم ونجيب!».

انتهى مني بعدما قرر الانتقام من قرارات المسؤول، بتصفية الأدباء وبتحطيم نصفي الأسفل وتفاخره بفحولته الذكورية، ورماني خارج الغرفة عارية، ولم تسترني المزورة بشيء، ومشيت بين الموجودين والموجودات كما ولدتني أمي، أحاول ستر ما فضحه الزمخشري، وأمسح ما بصقه عليَّ عموده الخرساني، وسط تهامس الكل وغضب المزورة.

بمجرد دخولي غرفة الخادمات، صرخن في وجهي بأبشع الألفاظ والاتهامات، ونفثن غضبهن تعبيرًا عن غيظهن من تفضيل الزمخشري لي، وقبل أن تتطور الأحداث إلى خناقة وضرب مبرح، تدخل الحراس والمزورة، فتراجعن عن فعلتهن، وخطفتني المزورة إلى غرفتها بجرِّي من شعري لمسافة طويلة، جرحت جانبي الأيمن الذي لحس أرضية المكان الخشنة.

وغرفة المزورة تشبه أجنحة الكتبة، بوسعها وبتوافر الطعام وسبل الراحة، إلا أنها مكان سادي محاط بالشر الكامل، حوائطه تحمل كل أشكال وأنواع الأسلحة، ابتداءً من العصا والسوط، مرورًا بالسكاكين والخناجر، وصولًا إلى الأسلحة الآلية كالبنادق والمسدسات والرشاشات.

لم تمهلني للدفاع عن نفسي، صفعتني وضربتني، شتمتني بأبشع الألفاظ، شعرت بأن فكي في أي لحظة سينكسر تحت وطأة يمينها القابضة عليه بغل يتصاعد، حتى وجهي الذي لطالما استحسنته ووصفته بالبدر الكامل انهالت عليه بأظافرها وبصاق فمها، ثم انتهت وصلة التعذيب بعشر جلدات من سوط أسود غليظ يفتت الجلد ويسلخه.

لما هدأت تمامًا، أو هكذا تخيلت، لفت حبل السوط حول رقبتي، وسألتني بمنتهى الهدوء: «المفروض أنكِ مغرمة بي، عاشقة لسيرتي، كل يوم خادمة من الجناح عندك تنقل لي كلامك وأنت نائمة، وعدد مرات نطقك لاسمي! وتوسلاتك أني أتعامل معك باللين، وضحكك وغنجك، وأحبك يا مزورة، وعاوزة أكمل حياتي في حضنك طول العمر، وفجأة تستسلمي للزمخشري! يا خائبة يا بنت الكلب! كسب الرهان! زمانه وقع على الأرض من الضحك، الزمخشري شاف حبي في عينيكِ وحدد رهان الاختيار، أنا ولَّا هو! وأقسم لي إنه مستعد يعاملك أفضل معاملة لو رفضتِ معاشرته بسببي! حقيقي أنا مصدومة فيكِ! أمينة! بسهولة وسذاجة تبيعي حب حياتك!».

في أثناء اختناقي، رفعت يدي لأقول شيئًا إذا سمحت لي قبل موتي،

فسحبت السوط بعيدًا، وقلت بطلوع الروح: «أنا يا مزورة، **قرنفل**، **يلعن ميتين أبيكم واحد واحد**، آسفة والله، عقلي، أنا، **عسل وبقى بصل**، آسفة والله، الزمخشري ضحك عليَّ، رفعني من الأرض، وفجأة اغتصبني وهو باصص في عيني وحالف ليعرفني السبب وراء استمراري معكم كل الوقت الفائت، وحياة غلاوة المزورة لو كان سألني هو ولَّا المزورة، كنت سأختارك أنت ولو فيها موتي! **ربنا يأخذك!**».

صفعتني مجددًا، وضحكت معلِّقة: «كذابة وبنت بيئة وسخة، المهم الزمخشري كسب الرهان، واسمك بقى أمينة سمراء، أو سمراء، وطبعًا لأنك جاهلة فأنت فاكرة الاسم سمك لبن تمر هندي، لكن اسمعي يا هانم، سمراء وجدي هي أكثر شخصية نسائية شاذة في أعمال الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، في الرواية الممنوعة في التنظيم والمكتبات «الحب تحت المطر»، كانت غرقانة في قصة حب مع حسن حمودة العاشق الولهان، وابن الأبالسة ياما تسلل ودخل لها قصر عمها، وفي مرة الخفير حس به وضرب رصاصة رشقت في خد سمراء، وقصة الحب ماتت. كرهت سمراء صنف الرجال النمرود، وحولت ميولها للستات، أصل الفاكهة والطعامة واللذاذة والحلاوة في الدنيا، وعاشت حياتها في أحضان البنات، بس للأسف عشقت واحدة اسمها عليات، عشقتها بجنون، وبدأت تحاوطها وتراقبها وتخايلها، والمحروسة كانت رافضة العلاقة، على الرغم من أنها نامت مع عشاق ياما، يعني مرمغة في الحرام، لكن علاقة شاذة مع بنت، لا! أنا أنام بكيفي مع أي واحد آه! أظن عرفتِ اسم سمراء لبس فيك من

أي اتجاه؛ الزمخشري اقتنع أنك شاذة وبتجري وراء الستات، فأنت أمينة سمراء، وإياك أسمع اسمي على لسانك تاني، أنا قرفانة منك جدًّا! مغفلة أنا، تصورت أنك كاتمة حقيقة ميولك وبانت هنا، إنما بعد ركوبة الزمخشري، كله في المكشوف يا أمينة! اصبري، وحياة ابنك أيهم، الشهور الباقية شهور عذاب وخدمات، شهور موت!».

٤

سقط الوقت من ذاكرتنا، نسيناه مثلما نسينا الحياة، وفارقنا ضوء الشمس، وجمال الألوان، وطعم الأكل الحلو والملذات. كنا في حالة تأرجح دائم بين المعروف والمسلوب، وسحب اضطراب الهوية مننا الاستقرار هادمًا المعتقدات والثوابت، فصار الغد الأفضل بالنسبة إلينا هو يومًا بلا ضرب أو اغتصاب أو خدمات شاذة، وليس الخروج من التنظيم، وحمدنا الله ـ أو نجيب محفوظ في أحيان كثيرة ـ على النجاة المستمرة يومًا بعد يوم.

كل يوم تقسم خادمة عجوز، اسمها أمينة طبعًا، على صدق حدسها وتوقعاتها للتوقيت، وإنهم إذا قالوا إن الصباح قد هلَّ، فهذا معناه حلول الليل، والعكس صحيح، استنادًا على مدى انضباط ساعتها البيولوجية كموظفة حكومية لأكثر من ثلاثين سنة، وحياتها محسوبة بالثانية الواحدة.

على الرغم من كل البشاعات المتلاحقة، عجزنا عن تفسير تصرف

الزمخشري لما طلب الخادمات فورًا، في يوم من أيام ربنا، وأظن أنه في خلال الشهر الثاني بعد قدوم دورتي الثانية.

ظهر الزمخشري عاريًا متفاخرًا بجسده، يدخن سيجارته، ثم سألنا: «صباح الخير يا أمينة، يا كل أمينة أمامي، من ساعة وصلت لي فكرة من فرع من فروعنا، قالها شاب في مقابلة عمل، إنما فكرة عبقرية! هي غريبة جدًّا جدًّا، لكن أنا معترف بأني معجب بها! وحابب جدًّا أننا نقدمها في سنوية أعمال الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ بالفرانكو! سوق مضمونة زبائنها بطريقة مستفزة! طبعًا تكملة الفكرة أننا نكتب أعمال الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ بالعامية، ونحولها بعدها لفرانكو! فنضمن شريحة قرَّاء عندها مشكلة مع صعوبة اللغة العربية أنهم يستمتعون بأعمال الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ! فأحب أعرف رأيكن في الفكرة؟ حلوة ننفذها، ولَّا إهانة لقيمة حبيبنا؟».

رفعنا جميعًا أيادينا انتظارًا لفرصة التحدث والتعبير عن مدى عبقرية الفكرة، حتى لو كرهنا المعروض أو ضده، لن نجرؤ على رفضها، أو حتى التفوه بتعديلات تُحسِّنها.

وافقنا على المقترح اتباعًا لمبدأ وضع البردعة مطرح ما يعجب صاحبها، واتقاءً لشر الزمخشري إذا وجد رافضة بيننا، وحفاظًا على سلامتنا المؤقتة التي نشكر الرب ـ وأحيانًا نجيب محفوظ ـ على وجودها ولو لساعة واحدة.

HTTPS://T.ME/WAEL2025

بعد الإجماع النهائي على مدى استثنائية الرؤية، قرر الزمخشري توفير حاسوب واحد، تتتابع عليه الخادمات بشكل يومي، لتحويل روايات نجيب محفوظ من الفصحى إلى العامية، واختتم كلامه موضحًا: «وأمينة هانم سمراء هي المسؤولة عن إعادة كتابة العمل بالفرانكو! ومع جاهزية كل عمل سأضمن لكن ـ وأقسم بشرفي وشرف الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ ـ توزيع كمية هدايا تجبركن على حب البقاء معنا، حتى لو أطلقنا سراحكن!».

فأصبح جدولي اليومي خدمة المجاذيب وتنظيف الحمَّامات، أوامر الزمخشري وإرضاء الكتبة والمزورة والبصاصين، وتحويل ملفات العامية للفرانكو.

كل يوم، منذ معرفتنا بفكرة الزمخشري العجيبة، تأتي المزورة بالحاسوب، في جناح الكاتب المختار، لتخبرني أن الخادمات تناوبن على تحويل الأعمال القصيرة بسرعة، فالمطلوب مثلًا ترجمة «أصداء السيرة الذاتية»، و«حكايات حارتنا» إلى الفرانكو، وضرورة الانتهاء من المهمة في أقل من أسبوع، مع التذكير بهدية رائعة لو نجحت، وحفل اغتصاب جماعي إن فشلت! وطبعًا مع مرور الأيام تتزايد الأعمال، نظرًا لتعاون كل الخادمات في الكتابة، مقابل مجهودي الفردي، لتحويلها.

ولتعلمني المزورة درسًا جديدًا في أدب وفقه العشق، وضعت الحاسوب، بعد التشاور مع الزمخشري، داخل جناح أكثر الكتبة استفزازًا، الكاتب الوحيد الذي يتلذذ بتعذيبي، من يجد متعته الخالصة

في بكائي أو صراخي، ولا يمانع أبدًا أن يعالج جرحًا تسبب فيه، كي يفتحه مجددًا بطريقة أكثر سوداوية.

من دخولي الأول للتعرف على الكتبة، قال إن اسمه «ضحاك» نسبة إلى أسطورة مذكورة في عدة ثقافات، وكانت شخصية شريرة في ملحمة الشاهنامة الفارسية، تعلق بها منذ صغره وكبر معها، حتى صارت اسمه عند انضمامه إلى التنظيم.

ضحاك لم يسمح لي قَطُّ بالتحدث، يقول ما يريده، ويفعل ما يشاء، ومهما حدث لن يسمح لصوتي بالخروج، وهو من أقدم الكتبة في المكان، ويعتبرني كاتمة أسراره وبشاعاته وجرائمه التي ستموت معي، على الرغم من معرفتي بإطلاق سراحي، حسب وعود الزمخشري والمزورة، لكنه لم يعطِني فرصة لأوضح الأمر.

ضحاك الوحيد أيضًا الذي فصص لي الدوافع الخفية خلف خطفي والإبقاء عليَّ طوال تلك المدة، حيث إن كل المخطوفين ارتكبوا في حق الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ غلطة بريئة، كتبوا نقدًا بشعًا، أو رفضوا تبجيل الأديب وكتابة مقالات تقدس مكانته، إلا أنا، الوحيدة على مر السنوات، منذ تأسيس الحزب وخطف الخطائين، التي اتهمت الأديب بإفساد قيم المجتمع وقتل الحرية النسوية، وتأسيس الاتجاه الذكوري الفذ، فلا تقدر أنثى على نيل حريتها بالشكل السوي.

سحبني ضحاك من ثديَي، وأجلسني تحت قدميه، وفتح ملفًّا كاملًا يعرض كل محاضراتي عن النسوية، منشوراتي لمناهضة التمييز الذكوري، حملاتي الإعلانية واستضافاتي في البرامج لشرح فكرة

تطبيقي المدافع عن المعنفات، تعليقاتي المنتشرة في جميع مواقع التواصل الاجتماعي، صوري الشخصية وفي مقر العمل، وكانت المفاجأة الكبرى صوري من داخل المقر وأنا داخل الحمَّام، خصوصًا الأوقات التي كان يطلب فيها نجيب زوجي صورًا عارية كتصبيرة مؤقتة قبل عودتي إلى البيت.

لم يترك الملف تفصيلة في حياتي إلا وأحصاها بدقة مرعبة، فعرفت أهمية دور البصاصين، ولماذا يحترمهم الزمخشري ويبجلهم إلى درجة أنني رأيته عدة مرات وهو يتكلم معهم، مستشيرًا خبراتهم، مستخدمًا نبرة صوت هادئة ومحترمة، ولم يتطاول عليهم قَطُّ ولو على سبيل الهزار.

كلما وضحت التفاصيل زادت الروح الانهزامية، وبسطت جناحيها فوق كتفي يوميًّا، ومع ذلك قلت لنفسي مرارًا، وأنا أسفل المزورة أو الكتبة، أو وأنا أزيل فضلات المجاذيب: لن يقتلني نجيب محفوظ، حتى بعد خطفي والتفريق بيني وبين زوجي وابني، لن أغير نظرتي تجاهه، ولن أتوقف عن محاربة الذكورية والانتصار للنساء الضعيفات.

أراد ضحاك استفزازي بإثبات ضخامة المؤامرة المنصوبة ضدي، ومدى مهارة البصاصين العبقرية، فعرض صورًا من جنازة ابنتي كرمة، لأدخل في نوبة بكاء من النوعية الكاتمة للأنفاس، بكيت وتذكرت سنوات العلاج النفسي، وسنوات الندم واللوم، كنت ألوم ذاتي كل يوم على أنني تركتها بصحبة جليسة لا أعرفها، من أجل رجل ظالم ظننت أنني قد أصلحه، أو تتصالح عقليتانا كزوجين، وتعود الحياة

إلى جمال البدايات، لكن عشم إبليس في الجنة، وموت ابنتي كرمة هو ما جنيته.

بعد رؤية الصور كنت أنام وأحلم بكوابيس، أرى فيها كرمة تبتسم، ثم تركض ناحيتي، تحتضنني، وفجأة تخرج سلك الشاحن من فمها صارخة، وتندلع النار بها، ودائمًا يظهر أيهم لينقذ أخته، فيحترق معها ويموت.

أول القرارات التي اتخذتها حين يحل موعد خروجي هو تصميم حملة تأبين لابنتي كرمة، مع إخفاء الغرض الحقيقي، كي لا يطاردني الزمخشري ويخطفني ثانية، وسأوزع صورها مع صور النجيب، مع البحث عن جملة ثنائية التأويلات، مثل: قاتل المتعة! وتحتها: لأنه أجبرنا أن نقرأ له فقط! وثاني القرارات هو التفكير في حملة انتقامية، أخلص بها العالم من شرور نجيب محفوظ والزمخشري والمزورة والكتبة والمجاذيب، وقبلهم جميعًا طائفة البصاصين.

صرت بشكل يومي، تطبيقًا لأوامر الزمخشري، أعيد كتابة سيرة الأديب، السبب الرئيسي في مأساوية حياتي، على حاسوب ضعيف الإمكانيات، إلى الحد الذي يجعله يتوقف عن الاستجابة لمجرد أنني فتحته، كان يتجمد في الدقيقة الواحدة ثلاث مرات، ولا يوجد عليه أي شيء باستثناء برنامج الكتابة.

لما انتهيت من تحويل الأعمال المطلوبة لفرانكو، وهي بعد تحديثها الدوري: «أصداء السيرة الذاتية»، «حكايات حارتنا»، «قلب الليل»، «قشتمر»، تم استدعاء الزمخشري ليقرأ المكتوب، فهاج وماج وركلني في وجهي، ليكسر لي من الأسنان ما يحولني إلى

فزاعة، ثم صرخ بوجه المزورة: «من طلب تحويل الفصحى الرائعة إلى العامية القذرة! أنا قلت نعيد كتابة الفصحى لكن بالفرانكو! كلامي مفهوم؟».

لم تعتذر المزورة عن الخطأ، ولم تخبره بأنه من طلب ذلك، وحجتها أنه قد يكذب الحواريون، أما الزمخشري فهو الصدق ماشيًا على قدمين!

غادر الزمخشري وخلفه المزورة، وارتبك حاجز الصمت المتروك بعد رحيلهما بدخول ست حلوة، لم تظهر من قبل، تحمل شنطة إسعافات، تفقدتني، لم تجد ما يقلق، أخرجت شريط مسكن، ناولتني إياه مع كوب ماء، انتظرت أمر الانصراف من ضحاك، وفي لمح البصر اختفت! قام ضحاك من مكانه للمرة الأولى، فلاحظت أنه خُلق بسبابة ووسطى ملتصقتين، فتشبه يمينه شكل المسدس، انتبه كيف أتأمل المنظر الغريب، فقال غامزًا: «تذكرك بما لدينا وتعشقه النساء، صح؟ آه، الممرضة اسمها حميدة، لو عاوزة تقضي ليلة معها أقدر أوفر لك فرصة!».

رفع ضحاك الحاسوب إلى مستوى نظره، يقرأ المكتوب، يهمهم ويتنحنح ويفكر، ثم مسح ملف «قشتمر» كاملًا، وضحك على فكرة تقديم نجيب محفوظ بالفرانكو متوعدًا صاحبها بنهاية لا يتخيلها ولا في أحلامه، تاركًا الحاسوب يسقط فوق جسدي المتكور أرضًا، وقال لي قبل رحيلي: «نكتب قشتمر من الأول في أقل من يومين!».

خرجت من جناحه بكدمة في كتفي إثر اصطدام الحاسوب بها، وسنتَّين مكسورتين، وشفة سفلية متورمة، وجسد كل عظامه تصرخ،

وملف ممسوح لمجهود جبار. وفي وسط آلامي وكتم صراخي وانفعالي، رن الجرس اليومي المرعب، ردد: «ولكن آفة حارتنا النسيان»، فتحركت مسرعة تجاه غرفة توزيع المهام، لنقف أمام المزورة آملين في الرحمة والحصول على مهمة سهلة.

دخل الحراس، تقريبًا معظم حراس التنظيم، بكراتين كثيرة، ووضع أمام كل خادمة أكثر من عشر كراتين، وشرحت المزورة مهمتنا الجديدة: «الموضوع بسيط، كل وسخة قدامها أعمال الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، ببساطة نفتح الكرتونة، نختار منها أنظف حالة للكتب، كأنها جديدة، ونجمع نسخ العمل الواحد في كرتونة، ونكتب عليها اسمه وجنبه الحالة: ممتاز، جيد، متوسط، لا يصلح. و«لا يصلح» معناها إن الكتب قديمة أو مقطوعة أو ورقها أصفر أو مبقعة!».

قبل البسملة والاستعانة بالله ونجيب محفوظ، على تخفيف الشقاء، رمتني بعصاها الجلدية الغليظة صارخة: «أنت يا حلوة، تفضلي على جناح المجاذيب، تنظيف وغسيل ورفع أكل، عاوزة الجناح أنظف من قاعات الأفراح، وبعدها تدخلي جناحي، أنت ناسية كتابة أعمال الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، ولَّا تحبي تساعدي هنا؟».

فهمت من نظرات وجهي اشتياقي للقيام بمهام سهلة حتى لو فيها ذلي، المهم أن يتناقص المجهود البدني، ومع معرفتي التامة بأخلاق المزورة، التطبيق المضبوط للمثل «الحدأة لا ترمي الكتاكيت»، وجدتها تلعق شفتيها، وتتأملني بنظرات حمدي الوزير، دليل ميل

قلبها لي مجددًا ومحاولة إحياء الصلح بيننا، وفي أقل من دقيقة كنت فوق سرير جناحها أطيع الأوامر فقط.

انتهت مني على مهل، حاولت معرفة أمر الغرفة المحرمة، لكنها صفعتني رافضة، وقالت باسترخاء وتلذذ: «كان نفسي الوقت يطول، وتقابلي عشيقتي، الله يرحمها، دنانير!».

فأقول لها: «قابلتها طبعًا!».

٥

لما فقدت الوعي في أول يوم بعد مذبحة الزمخشري، وقتل كل من حولي، هزتني يد بعنف، ومع الصمت المحيط ثم السقوط المفاجئ واستعادة إحساسي بالحياة، عرفت أنني على وشك مقابلة موتي تقريبًا، أو معرفة ذنبي أولًا، ثم التكفير عنه.

اعتذرت سيدة لطيفة في غاية الجمال عن قلب وضعية جسدي، وقالت إنها تصرفت هكذا كي يجري الدم إلى دماغي بطريقة أسرع، فيستعيدني عالم الأحياء، سألتها قبل قيامي: «آسفة، **قرنفل، عسل أسود، يا ولاد الكلب**، لكن المجنون **ابن الكلب، الذي يعيش في لعبة القتل والكلاب**، قال إن ابني حي، صح ولَّا أنا كنت في حلم؟»، لتطمئنني بأنها هي أيضًا سمعته وهو يخبرني بأنه تم إسعاف ابني.

ساعدتني على القيام قائلة: «أهلًا، أنا ملك! لكن اسمي الحركي أمينة دنانير، وأنا مسموح لي بالكلام ساعة واحدة، لأنه يومي الأخير

هنا. اسمعيني، أنا موجودة حاليًا، لكن بعد ساعات يبدأ الاحتفال الرسمي بسنوية الأديب، ولا أعرف ما هو مصيري، هل سأخرج مثلما وعدوني بعد الحفل أم سأخرج إلى الجنة مع أمي الله يرحمها؟! حظنا الحلو، الزمخشري والمزورة في اجتماع بخصوص اللمسات النهائية لسنوية الأديب، فأنا ناوية أشرح لك كل حاجة لها علاقة بالمكان، وطرق نجاة روحك، والموضوع معتمد على شطارتك!».

في أثناء تطبيب جراحي، وتضميد روحي من المصائب المتلاحقة والمستقبل المظلم الذي ينتظرني، شرحت دنانير في عدة نقاط خلفية التنظيم السري لحماية الأديب، وهو ما عرفته من المزورة والزمخشري في جلسات صفا جمعتهما فوق شرف دنانير، وأوضحت أنها لا تعرف أي أسماء محددة، تعرف الموضوع بألقاب عامة.

تم التخطيط لتأسيس التنظيم بعد أعوام من مقابلة الوفد الإسرائيلي، حيث تلقى نجيب محفوظ مكالمة من رئاسة الجمهورية، يطالبونه بضرورة الحضور إلى الاجتماع مع شخصيات مهمة، بعد معاهدة الصلح بين مصر وإسرائيل، لشكر الأديب على نصائحه في الدعوة إلى التصالح بينهما، خصوصًا أنه كان من أوائل المرحبين بها، وسبق رئيس الدولة وقتها في تفعيل بند السلام.

المقابلة كانت سرية، ومع وصوله، وبعد استقباله كما يليق بأديب له أعمال كثيرة مترجمة بالعبرية، ومشهور لدى مجتمع القرَّاء الإسرائيليين، عرف أنهم قابلوا كُتَّابًا آخرين كعلامة تقدير وامتنان لدور الثقافة المصرية في توطيد العلاقات، والتأكيد على نشر السلام بين الشعوب العربية والعبرية.

مما قيل عن الجلسة إن الأديب ـ على الرغم من قبوله الدعوة ـ كان متجهمًا، لا يبتسم، وبالكاد يرد على الأسئلة، وتعامل مع الوفد بحذر، فلم يكن متساهلًا ودودًا كما عُرف عنه، حتى جاء السؤال الأكثر أهمية من رئيس الوفد الإسرائيلي، حين سأله عن حلمه الأبدي، وأجاب الأديب بكلمة واحدة فقط: «الخلود»، وأشعل سيجارة متأملًا ساعته بين كل دقيقة وأخرى، وفي النهاية طلب المغادرة، إذ إنه مرتبط بموعد مهم له علاقة بأعماله الجديدة.

من لحظتها تم الترتيب عبر السنوات، وبعد الكثير من الاجتماعات، لكل ما حولنا، وتم الاتفاق بين الحكومتين على إنشاء تنظيم سري مشترك، كانت البداية مع اسم الحزب الرسمي لحماية الأديب، ثم تغير إلى السري، لما قد تؤول الأمور إليه بين طبقات الشعب ورفضها التام مصافحة الأعداء، وبعدها قدم مسؤول اقتراح الاستقرار على اسم التنظيم السري وفاءً لمجموعته القصصية «التنظيم السري» التي ظهرت عام ١٩٨٤، بما فيها من ذكاء وعبقرية في الكتابة.

في عام ١٩٨١، تحديدًا بعد الرابع عشر من أكتوبر، تواصل المسؤول عن ملف التنظيم السري، مع مسؤول كبير سابق، لما يحمله الرجل من خبرات تؤهله للتعامل مع المواقف المتطلبة لرؤية مستقبلية.

عقد المسؤول الكبير جلسات مع المسؤولين المحليين لإرساء أهم قواعد التنظيم، ومتى يبدأ العمل به، موافقًا على اقتراح أستاذ الأدب العربي بجامعة تل أبيب، ببدء تفعيل التنظيم بعد عامين من وفاة نجيب محفوظ، حيث إنه من المتعارف عليه ازدياد الاهتمام

بالشخص الميت في عامه الأول، عن طريق إلقاء الضوء على إنجازاته، وعقد ندوات حول أدبه وأعماله.

حينئذ، مع خفوت الترحم على الأديب، لا بد من توقع تراجع سيرته بشكل مستمر، وبدء دخوله في مرحلة «أديب نوبل الراحل» وانضمامه إلى قائمة الأدباء السابقين، وانشغال الناس بالقوت اليومي والسعي وراء لقمة العيش، والانتخابات والسياسة، والصراعات المشتعلة بين الأندية الرياضية، فيبزغ دور التنظيم السري في الحفاظ على مكانة الأديب بشكل يومي في دوائر المثقفين والبرامج والمكتبات والقرَّاء، فلا يسقط اسم نجيب محفوظ من ذاكرة أغلبية الشعب ولو لثانية واحدة.

مع أهمية الوضع في الاعتبار أن العام الآخر هو عام البحث عن شركاء في تمويل التنظيم، وتيسير الكثير من الإجراءات الخارجية والداخلية، مع ضرورة توفير مقرات للتنظيم، والتستر خلف مؤسسة كبيرة، تظهر في صورة الداعم الأساسي للثقافة المصرية، واستخدام اسم الأديب الكبير، تحت مظلة «المشروع الثقافي الضخم»، والاهتمام بمؤلفاته، واتخاذه كأيقونة استثنائية لهوية المؤسسة.

تم تدوين الخطوط العريضة في كتاب من نسخة واحدة، وحفظ المشروع داخل خزائن الدولة المصرية، مع إرسال الحكومة الإسرائيلية رسالة تذكير سنوية إلى الجهة المسؤولة رسميًّا، تحمل تهنئة مشفرة تم الاتفاق عليها في الجلسة، فيفهم المسؤول الإشارة، التي باطنها مشروع نجيب محفوظ.

جاءت العلامة الأولى، بعد طعنته الشهيرة في أكتوبر ١٩٩٥،

فاستقبل المسؤول رسالة مفادها الحث البدائي البطيء على الاستعداد لتفعيل التنظيم، ولما قام الأديب بالسلامة، تراجعتِ الجهة المسؤولة، ليجيء ٣٠ أغسطس عام ٢٠٠٦، وينقلب العالم العربي حزنًا على الأديب، ويتحرك التنظيم السري بخطوات محسوبة تجاه عملية التخليد الأعظم التي لا يعرف عنها الشعب شيئًا.

أما الزمخشري فقد تم اختياره بالصدفة البحتة، والترصد له للتأكد من ولائه التام لنجيب محفوظ، وكان ذلك يوم جنازة الأديب بعد الصلاة عليه أولًا في مسجد الحسين حسب وصيته، ثم الصلاة عليه في مسجد آل رشدان، وقتها دخل شيخ الأزهر الراحل فضيلة الإمام الأكبر محمد سيد طنطاوي، ومعه فضيلة المفتي الدكتور علي جمعة، والدكتور محمود حمدي زقزوق وزير الأوقاف، ودعا فضيلة الإمام الأكبر للفقيد الكبير ضارعًا إلى الله أن يحشره مع الأنبياء والصديقين في جنات النعيم، مشيدًا بمكانة نجيب محفوظ الأدبية، كما وصفه وزير الأوقاف السابق بأن نجيب محفوظ بمثابة هرم مصر الرابع لما أضافه إلى الحضارة المصرية المعاصرة من أثر خالد لا ينسى.

فجأة ظهر صوت شاب من الخلف، يصرخ وسط الحضور: «والله! ما كان بيننا ودايمًا كان الهجوم نازل عليه! الآن بعد موته تحول إلى هرم مصر الرابع!». هذا الاعتراض المنبثق من وسط الحضور كان للزمخشري، الذي يفتخر بالكتابة العابرة عنه في كتاب للدكتور محمود الشنواني، أحد أصدقاء الأديب، وعنوانه «ثلاثون عامًا بصحبة نجيب محفوظ».

توقفت دنانير عن السرد عند سماعها لثلاث طرقات على باب

الجناح، وتحدثت بسرعة قائلة: «اسمعي، أول نصيحة، أنت معك سر التنظيم ومعك الوصية المتنقلة من أول خادمة في المكان! يعني في آخر يوم لك هنا، قبل الذهاب إلى سنوية الأديب، تختاري خادمة، إياك والمزورات، واحكي لها بالتفصيل الممل، هذه وصية الخادمة الأولى، أن ننتصر عليهم بمعرفة تاريخهم، فنسلب منهم صك الاعتراف بالسرية التي يتفاخرون بها! والنصيحة الثانية، كرامتك هنا غير موجودة، أنت جميلة، تقدري تستخدمي سلاحك في إنك تلعبي على الكبيرَين، الزمخشري والمزورة، معلهش، سنة كاملة تعيشي في قرف وبعدها إن شاء الله تخرجي، وإياك تنطقي ثانية سيرة نجيب محفوظ! أنا نبهتك، ياما خادمات قُتلن لما رفضن تصرفات المزورة أو زائر الليل! وكل يوم اصرخي جواك: أنا اسمي فلانة! أنا اسمي فلانة! أتمنى لكِ الخروج من هنا حية ترزقين! وأحب إني أعتذر لكِ سابقًا عن كم التعذيب الذي ينتظرك! أنا آسفة فعلًا!».

قبلت جبهتي، وفي أثناء تحضير حقيبتها وتوافد أكثر من حارس يطالبونها بسرعة إخلاء الجناح هي والخادمات الأخريات، ليتم تسكين الخادمات الجديدات، واللاتي أنا منهن، سألتها وسط ضجيج صراخ الحراس: «من يقدر يدلني على تاريخ الخادمة الأولى؟».

فركضت تجاهي واضعة يمينها فوق فمي بعصبية، وقالت: «إياكِ!».

انتبه الحارس لتصرفها، فقالت بسرعة: «آسفة، اتعودي على القرف!».

وقبَّلتني من فمي، فارتاح الحارس وصرف نظره عنها، واعتذرت

HTTPS://WWW.2025

لي مجددًا عن قلة أدبها، موضحة أن المزورات لا يرحمن النساء، لأنهن نسل سمراء وجدي، وأنني سأعرف من هي سمراء وجدي في أقرب وقت، وكانت كلمتها الأخيرة قبل الاختفاء خلف باب الجناح الضخم: «المزورة يا ياسمين! إياكِ تكسبي عداوتها!».

٦

كل فترة، تقريبًا أسبوعيًّا، حسب رؤيتنا العاجزة عن معرفة وحساب الوقت، يزور التنظيم ثلاثة أشخاص، تدهشنا أدوارهم على الرغم من تناقضها مع أشكالهم، ونحفظ عن ظهر قلب أسماءهم، بثينة ونديم وزيطة.

عرفنا ماهية مهماتهم وكل ما يتعلق بهم، من المزورة التي كانت تعطينا المعلومات حسب مزاجها المعتدل من خدماتنا ورقصنا لها، فتخبرنا بما نريد معرفته، مع جملتها الأشهر بعد كل معلومة جديدة: «أي واحدة نفسها تعرف أي حاجة تسألني!». ولما تسألها إحدى الخادمات عن عدم خوفها من تفشي أسرار التنظيم بالخارج، كانت تجيب بجملة قاطعة: «وهل فيه شخص عاقل سيصدق بوجود تنظيم سري لحماية كاتب؟ التنظيم قائم على فكرة واحدة، استحالة الفكرة أساسًا!».

مما أدركناه عنهم أن بثينة هي أميرة التنظيم، والتي تحرك تعذيب الخادمات، وأولهن المزورة، الدمية الخشب في يد بثينة، البنت ذات

الملامح المهجنة، والجاهلة بأصول الإنسانية مهما ظهر غير ذلك على وجهها البريء.

نديم، الفتى المدلل ونبي الكتبة، بمجرد ظهوره ينتفض أحدهم، وهو الوحيد بعد الزمخشري القادر على صفعهم أو ركلهم إذا قرأ شيئًا مما كتب ولم يعجبه، مع الوضع في الاعتبار قيامه بدور المفكر والباحث عن الأفكار الغريبة والجديدة لتوسيع نشاطات الحزب، فهو مثلًا صاحب فكرة الكتبة واختلاق أعمال جديدة دومًا لنجيب محفوظ، والاستعانة بالمجاذيب.

أما زيطة فهو صانع العاهات، المعذب الأكبر في التنظيم، تتفوق ساديته على الجميع، وفي بعض الأحيان يلجأ الزمخشري إلى استخدام خبراته في قتل أو إلحاق الأذى بأعداء نجيب محفوظ، وأسوأ ما يميزه هو بحثه الدائم عن طرق تعذيب مبتكرة تجبر الضحية على الاعتراف من أول صفعة.

ومثلما المزورة هي مديرتنا، فزيطة هو مدير جناح الخادمين، العالم الآخر الغائب بشكل كبير عن معلوماتنا لأننا لم ندخله قَطُّ، وكل ما عرفناه عنه هو انقلاب الأدوار، الكتبة نسوة، المزورة زيطة، حضور المجذوبات، وتنوب بثينة عن دور الزمخشري، فتصير هي زائرة الليل التي يصلون لها وتعذبهم كما تشاء.

زيطة هو كابوسي الأسوأ منذ إجباري على مساعدته، بأمر من زائرة الليل بثينة، في تعذيب المخطوفين.

يدخل زيطة إلى جناح الخادمات برجال مخطوفين معصوبي الأعين، مربوطين جميعًا بسلسلة حديدية ضخمة، يجرهم جر البهائم،

HTTPS://T.ME/WAF2025

وكلهم يتوسلون إليه طالبين الرحمة والمغفرة، إلا أنه يتلذذ بتعذيبهم والقضاء على كرامتهم، وحشر قهر الرجال في دواخلهم النفسية بالإهانة والتعسيف والشطط المخبول.

وزيطة يتعمد قبل إيذاء ضحاياه شرب سيجارة معهم، حتى لو المخطوف غير مدخن، مع حديث طويل من القلب يندرج تحت بند التعريف الإنساني النبيل، يحدثهم عن ابنته المقتولة على يد كاتب شهير كان يقود وهو سكران، وعرف كيف يفلت بفعلته لأنه من رجال الدولة، وزيطة مواطن غلبان، تخرج في المعهد الفني الصحي بطنطا، وعمل بائع منظفات بالجمعيات التعاونية قبل انضمامه إلى التنظيم بعد ترشيح البصاصين بالتعاقد معه، لما شاهدوا أهل منطقته يستخدمونه في تعذيب جيرانهم، أو لتخليص حق، أو للاستيلاء على أموال، سواءً كان طالب الخدمة ظالمًا أو مظلومًا.

يخطف زيطة الكُتَّاب والنقاد والمثقفين الرافضين للكتابة عن الأديب أو المهاجمين له، أو حتى الذين تأخروا عن تسليم مقالاتهم النقدية، وفقًا للاتفاق المنعقد بينهم وبين اللجنة الثقافية بسلسلة مكتبات الحدود التي يرأسها شخص لم نرَه اسمه علاء الشامي.

تكلف اللجنة الثقافية كُتَّابًا ونقادًا بالكتابة عن نجيب محفوظ، مع حصولهم على مبلغ مالي محترم مقابل كلماتهم، بشرط تسليم المقال في خلال أسبوعين، وتذكير المتعاقد بالبند الوحيد الموجود في الاتفاق: «التسليم واجب في الموعد المذكور أعلاه، ولا يعترف الاتفاق بأي ظروف قهرية أو مرضية!». طبعًا نديم هو العقل المدبر وراء الفكرة، وعلاء الشامي يخرج لمقابلة الكُتَّاب والتعاقد معهم،

وزيطة يخطفهم ويعذبهم في حالة الإخلال ببنود العقد، ويترك أمر موتهم لزائرة الليل.

نديم أيضًا هو صاحب مقترح المقالات المهاجمة للأديب، ونجح في إقناع الزمخشري بها بعد عناء ومعجزة، حيث رفض زائر الليل المبدأ، معللًا بأن الأديب خارج تصنيف النقد، شخص مقدس، يتشرف البشر وأشباه البشر بالكتابة عنه، وفي النهاية عرف نديم كيف ينتزع موافقته، تطبيقًا لمبدأ الناس مختلفة حول فكرة الإله ونجيب محفوظ إله، إذن فلنمنحه ثقافة الاختلاف، لكن وهي تحت أعيننا، وإذا كتب شخص من دون إذن منا مهاجمًا الأديب، فالله يرحمه ويرحمنا ويرحم الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ.

أنقذني الخيال في كل مرة يأتي زيطة ملتحفًا بغواية التعذيب، حيث كنت أمرن نفسي على قدرة الاحتمال وتجنب التقيؤ أو فقدان الوعي بالتفكير في أيهم ونجيب، أو بتخيل محاضرة عن النسوية، أقدمها أمام العالم كله بثقة أحسد عليها.

واحدة من أقسى جلسات التعذيب التي فشل خيالي في مجاراتها، بطلها كاتب شجاع، خطفوه بمفرده لأنه هاجم كثيرًا دراويش وبهاليل نجيب محفوظ، وكم المقالات الشاكرة لوجود أديب مثله في زماننا، ثم بدأ بتفكيك أعمال الأديب، حاصرًا عظمة أعمال بعينها، مثل: «الثلاثية» و«أولاد حارتنا» و«خان الخليلي» و«الحرافيش» و«قلب الليل» و«حضرة المحترم»، وقائلًا عن البقية: «أصغر كاتب مصري يقدر يكتب ما هو أعظم!».

مشهد الكاتب وهو جالس كما ولدته أمه، أمامنا أنا والمزورة وزيطة وبثينة والزمخشري ونديم وحفنة من البصاصين، لن يفارق خيالي ولو فقدت الذاكرة، فالمشهد وشم على جدار عقلي، وزامل كابوس كرمة ابنتي.

يومها قرأ نديم على الكاتب الشجاع عناوين مقالاته وملخص هجومه، ثم توقف عند نقطتين، التطبيع مع الإسرائيليين، وحصر العظمة في أعمال معينة، ليتقدم زيطة بكماشة حديدية، وينتزع حلمة ثديه الأيمن، فيصرخ صرخة تشرخ عرش الرب من شدتها، ويسقط مغشيًّا عليه.

فتح زيطة علبة صغيرة زاخرة بالحلمات، منظر يسرق الدم من عروقك، والحمد لله أنني تخيلت الموضوع بداخلها عبارة عن حلوى أو سكاكر، قبل دخولي في نوبة فزع وبكاء، ستنتهي بضربي وتعذيبي، وربما انتزاع حلمتي أيضًا.

رفع الحراس الكاتب ورجعوا به إلى جناح المخطوفين، وأمرتني بثينة بمسح الدماء، وتحدث الزمخشري بعصبية عن المس المحفوظي: «الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، عظمة كتابته منحصرة في أعمال معينة! أنا يا جماعة زهقت والله من كثرة كلامي عن عظمة رب الأدب وعن المس المحفوظي! اسمع يا عم زيطة، اسمع كلام الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، عن حوار المس المحفوظي: «في مرحلة حاسمة من العمر عندما تسنم بي الحب ذروة الحيرة والشوق، همس في أذني صوت

HTTPS://WWW.RIWAYA.NET 2025

عند الفجر: «هنيئًا لك فقد حمَّ الوداع»، وأغمضت عيني من التأثر، فرأيت جنازتي تسير وأنا في مقدمتها، أسير حاملًا كأسًا كبيرة مترعة برحيق الحياة». سمعت العظمة يا عم زيطة؟ شايف التفرد! الرجل شاف جنازته وهو حي! أقول زيادة؟ الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، شاف ملك الموت يا جماعة! ملك الموت كان بصحبته ويحميه! يا جماعة الكل عارف إن عبد ربه التائه هو الأديب العظيم نفسه، صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، حسب كلامه في عدة لقاءات، أتمنى تركز في المقطع المكتوب داخل «أصداء السيرة الذاتية»: «قال الشيخ عبد ربه التائه: استدعاني المأمور يومًا وقال لي: «كلماتك تدفع الناس إلى التمرد، فحذارِ!»، فقلت له: «أسفي على من يطالبه واجبه بالدفاع عن اللصوص، ومطاردة الشرفاء!»، فصاح بي: «هذا إنذار نهائي...». ولما كان عزرائيل يخف لنجدتي في الملمات، فقد تجلى ثواني للمأمور، حتى ارتعدت مفاصله وسقط عن كرسيه هاتفًا: الله بيني وبينك!»».

من دون أي سبب يذكر، صفعتني بثينة وأنا أمسح الدماء، ونفثت دخان سيجارتها في وجهي، وأضافت على كلام الزمخشري عن المس المحفوظي والكرامات النجيبية: «أنا عامةً قصة «اللؤلؤة» بالنسبة إليَّ، مع قصص أخرى، هي الإثبات القاطع على المس المحفوظي يا زمخشري!».

فيسألها زيطة عن القصة، لتجيبه مندهشة: «أول مرة يا زيطة تنسى تفصيلة مهمة! الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في

مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، حلم بشخص في المنام مد له يده بعلبة من العاج، هدية يعني، المفاجأة لما صحي وشاف العلبة فعلًا موجودة! فتحها وكان جواها لؤلؤة في حجم البندقة، وللأسف هو الوحيد القادر إنه يشوفها، كل شخص سأله عن رأيه في اللؤلؤة يقول له إن العلبة فارغة! القصة بالنسبة إليَّ في المعجزة، في خروج شيء من الحلم إلى أرض الواقع! الكرامات المحفوظية معجزة الزمن!».

سكت نديم، يتأمل الكلام والدماء أرضًا، وقال في لحظة واحدة: «كتاب جديد!».

اختفت المزورة ورجعت بعد ثوانٍ بكاتب من جناح الكتبة، وقف أمام نديم، انحنى قائلًا: «أيها الركب المخبون.. على الأرض المجدون.. فكما أنتم كنا.. وكما نحن تكونون!».

حيَّاه نديم، وطلب منه التفرغ التام قبل سنوية النجيب لتأليف كتاب جديد، عنوانه «نجيب محفوظ: المس والكرامات»، ليتم تقديمه في ليلة الاحتفال الكبير، ثم سحب هاتفه واتصل بعلاء الشامي، يستشيره بخصوص كاتب لوضع اسمه فوق الكتاب، وبعد مشاورات ومداولات، اختير الكاتب، وسيتم التواصل معه، بل وترشيح كتابه لكل الجوائز الأدبية المعنية بتلك النوعية من الكتب البحثية.

في أثناء مروري بالمسافة القاتمة الموجودة بين الجناح والحمَّامات، رأيت الكاتب المكلف بسيرة الكرامات يضرب خادمة، وهي تستحلفه بالله أن يتوقف وهو لا يسمعها، يركلها ويصفعها، يخنقها ويعضها، مع كل صرخة منها يقول: «أنا أكتب، والمجهود

HTTPS://T.ME/RIWAYA2025

ينسب إلى فلان، أنا تعبت! تعبت! إياك أن تموتي! والله العظيم لو حصل أنا عارف عنوان بيتك، وأولادك ممكن يحصلوك! إياك أن تموتي، فاهمة!».

كانت المسكينة تلفظ أنفاسها الأخيرة وهو يضربها بلا رحمة، يخبط دماغها في الحائط، سمعت صوت تكسير العظام والجمجمة، وتعجبت من ابتسامتها الحزينة، كأنها تحمد الله على موتها، وقالت بصوت مبحوح مكلوم، تصحبه خرخرة وحشرجة خروج الروح قبل الصمت الأبدي: «يا زائر الليل... أغلق... الكتاب... و... و... خذ سيدنا!».

٧

مع دورتي الشهرية الرابعة، ولتقلبات مزاج المزورة، قررت الجبارة منعي من الحصول على فوط صحية لمدة يومين، عقابًا لي بسبب تقاعسي عن كتابة الأديب بالفرانكو، ولسعادتها بمدى تحطم روحي، صورت مقطعًا لي والدماء واضحة فوق بنطالي، وقالت: «الألوان في التلفون حكاية! لعلمك، ممكن في أي وقت ينزل والناس كلها تشوف إنك إنسانة معفنة!».

رأيت في أعين الخادمات القرف، لم يسعفني العقل بحل للتغلب على الأمر، وتذكرت دماء الولادة القيصرية، وكل شيء متعلق بوجود الدم عامةً طفح داخل ذاكرتي، حتى قادتني الذكرى إلى أسعد لحظات حياتي، لما رآني نجيب زوجي للمرة الأولى وأنا أستخدم الفوطة

HTTPS://T.ME/RIWAYAT2025

الصحية، وقال وقتها: «أي نعم كان عندي أخوات بنات، لكن عمري ما فهمت موضوع الدورة والفوط!».

على الرغم من تمسكي بفكرة الخروج لمقابلة أيهم ونجيب، والاجتماع كعائلة من جديد، فإنني، وبشكل يومي، أسأل نفسي كيف تعامله الحياة بدوني؟ هل الحزن يأكله؟ أيشتاق أيهم إلى وجود أمه؟ أيتمسك نجيب بعودتي؟ أم نجح المجتمع في إقناعه بأهمية الزواج من أخرى لتربي العيل إلى أن تظهر أمه مرة أخرى، أو نعرف على الأقل هل هي حية أم ميتة؟!

كلما لمحت المزورة دموعي، تعتقد أنني أبكي لسوء المعاملة وقذارة تلك الفترة، لكنني، وبعد الاعتماد على القوة والصمود، كنت أبكي فعلًا حين يهاجمني شعور السقوط من ذاكرة الآخرين، أقول كيف يموت الإنسان وهو حي؟ ثم أتذكر مأساة نجيب، زوجي، الرجل الذي قالها يومًا لي: «إن الإنسان الميت بين مجتمعه هو الحي في مساحة صغيرة اسمها البيت، فيستنشق الطمأنينة من وجود أحبابه، ويتدثر بالاستقرار إذا وجد عائلته بخير، حينها لا يهمه كيف يراه الآخرون، ولا يفرق معه هل يحبه الناس أم يمرون من أمامه كبقايا منزل مهجور».

كلما حاول اليأس قتل صمودي وإضعاف مقاومتي، أقول له إن الإنسان الحي الذي ينتظره بيت صغير، به طاقة حب لانهائية سيفشل العالم دومًا في تكدير سلمه المؤقت، لأنه يواجه كل المساوئ بقوة الاشتياق للاجتماع بأحبابه مجددًا.

صفعتني المزورة، وقالت: «بسرعة، خذي الفوطة، وفي أقل من

دقيقة أشوفك قدامي هنا، عندنا طقس محفوظي، وأي تأخير سيقابله الزمخشري بقتل صاحبه!».

تعجبت من ممارسة الطقس المحفوظي الآن! إذ إن التاريخ الوحيد الذي ذُكر في حيز التنظيم، ومنه استطاعت بعض الخادمات معرفة التوقيت اليومي، حتى قتلتهن المزورة، هو يوم الرابع عشر من أكتوبر، وذلك لأنه اليوم الوحيد الذي يُحضِر فيه أعضاء التنظيم شخصيات مهمة، ويتخلصون منهم، بعد تأدية طقس غريب يطلق عليه «الطقس المحفوظي».

تسبق طقس القتل عامةً محاضرة طويلة عن براعة نجيب محفوظ، وعن المس المحفوظي والكرامات المحفوظية، وطبعًا عن براءة الأديب من أي تهم تنسب إليه، كالإلحاد والكفر والتطبيع والزندقة والعربدة، يليه تعريف بسيط بالتنظيم السري لحماية الأديب، كنوع من أنواع الترهيب الأخير للضحية، أو لتوضيح مدى ضخامة المصيبة التي وقع فيها المخطوف، وينتهي النقاش ـ الموجه بين الزمخشري ونفسه ـ بعرض صور الرهائن على شاشة كبيرة، مع تعريف تفصيلي بخطاياه.

القتل في المطلق هنا يحدث كقضم الأظافر، بسهولة ويسر، من دون أي وجود لمعوقات أو شعور بالندم، لكن في الرابع عشر من أكتوبر، نتشح كلنا بالسواد، نلبس الرداء ذاته، العباءة الطويلة الفضفاضة المتصلة بقلنسوة ذهبية، إلا الزمخشري، يرتدي قناعًا ذهبيًّا يشبه وجه الأديب، بابتسامته الهادئة المعروفة.

ويقف الزمخشري في منتصف الجناح، ثم يلتف حوله كل

الموجودين في التنظيم، في دوائر تبدأ من الأصغر إلى الأكبر، تضم الدائرة الأولى أعضاء التنظيم والكتبة، يليهم المخطوفون، بعدهم الخدم، وفي النهاية، الدائرة الأكبر، حراس التنظيم وطائفة البصاصين.

الإجراء المتبع بعد إشارة من الزمخشري، هو دخول المطلوب قتلهم واحدًا تلو الآخر من نقطة بداية محددة، كأنه يمشي داخل متاهة، حتى يصل إلى الزمخشري.

في أثناء مشي الرهينة في جوف متاهة الدوائر، يسمع نغمات غريبة، تجمع بين الإنشاد الصوفي واللطميات الشيعية، نحيب يناجي الفراق بأصوات مرعبة، ويمجد الذات المحفوظية، وفي الوقت ذاته يعرض مدى حزننا وصدمتنا على تعرض الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ للطعن، ثم يشهد الرهائن أربع مراحل من التعذيب: ركل الحرس والبصاصين، بصق الخدم وصفع المخطوفين، طعن أعضاء التنظيم، المذبح وسكين الزمخشري.

يصل المأسوف على أمره، بجسد يستغيث وروح في مهب الريح، إلى محطة الزمخشري، فتتقدم بثينة وتقف خلف الرهينة، لتترجم ما سيقال له بعد وصول الحراس ببرواز كبير من الذهب يحمل صورة نجيب محفوظ وهو جالس فوق عرش كملك متوج يمسك في يمينه ميزان العدالة وفي يساره حفنة أوراق، لينحني الزمخشري أمام الصورة ناطقًا بنغمة أشبه بالغناء الصوفي:

«اي فروغ ماه حسن ازروي رخشان شما ابروي خوبي ازچاه زنخدان شما».

بثينة: «يا من ضياء الحسن مستمد من وجهك المضيء، ويا من ماء الحسن ينبع من طابع حسنك».

«جز آستان توام در جهان پناهي نيست سر مرآبجز اين در حواله گاهي نيست».

بثينة: «لا ملجأ لي في الدنيا سوى أعتابك، ولا معتصم لرأسي إلا في هذا الجناب».

«آنانكه خاك رابنظر كيميا كنند آيابودكه گوشهء چشمي بما كنند».

بثينة: «أولئك الذين يحولون التراب إلى كيمياء بمجرد النظر، يا ليتهم ينظرون إلينا بأطراف أعينهم».

«درد ما را نيست درمان الغياث هجر ما را نيست پايان الغياث».

بثينة: «ليس لآلامنا علاج فالغياث الغياث، وليس لهجرنا نهاية فالغياث الغياث».

بعد الانتهاء من ترديد الكلام العجيب، وترجمة بثينة، ينظر الزمخشري إلى الرهينة قائلًا: «إذا قابلت الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، في الأعلى، فترجاه باكيًا حتى يشفع لك!».

ولا ينتظر أي رد من الرهينة، ولا يسمح بأكثر من ذلك، بل يسحب سيفًا ضخمًا، ويطعنه في نفس المنطقة اليمنى العلوية من الرقبة، التي طُعن فيها الأديب، منتشيًا بمناجاة الكرامات المحفوظية.

مع كل طقس، نتأكد من شيء واحد لا يمكن لأي شخص إقناعنا بغيره، هؤلاء القوم نصبوا نجيب محفوظ إلهًا فعلًا، وليس مجازًا.

تكرر الطقس ثانية بحذافيره في ليلة مجهولة التاريخ، لكن اليقين

بداخلي يقسم على عدم مرور سنة من وقت الطقس الفائت، إذ إنني أحسب العام بدوراتي الشهرية، وأيضًا لطالما تحدثوا هنا عن جمال الاستعداد لسنوية الأديب.

عامةً لم يترك زيطة الفئران لتلعب في صدر المزورة ـ على الرغم من حبها للأمر ـ وفسر لها الدافع من تكرار طقس القتل المحفوظي مع رجل عجوز أفشى سرًّا خطيرًا من داخل التنظيم، ونجهل طريقة حصوله على تلك المعلومات، ولأن المزورة لا ترضى بالتفاصيل الناقصة، سألته كيف عرفوا بأمره، فقال لها: «ركب مع موظف شغال في مكتباتنا، الموظف سائق «مشوارك»، دردش معه وفضوله عاوز يعرف رأيه في حوار شهداء البستان، فالعجوز قال الكلام، هو بالضبط الخطة المرسومة في دماغ الزمخشري! خطة طقس محفوظي بره التنظيم! ابن الأبالسة عرف التفاصيل كلها!».

نفذنا كل الخطوات؛ المحاضرة، الغناء والتمجيد واللطميات، الدوائر بركلها وبصقها وطعنها وصفعها، مع تقليل قوة الفعل، من دون ملاحظة التنظيم لمؤازرتنا للضحية، فالرجل عجوز وقد يسقط صريعًا من قلم واحد، ورتل الزمخشري جمله الأربع، إلا أن تلك المرة، أنا واثقة من وجود جملة خامسة لم أسمعها في الطقس الفائت، حيث قال الزمخشري للعجوز:

«درين زمانه رفيقي كه خالي از خللست صراحي مي ناب وسفينهء غزلست!».

فترجمتها بثينة بتأفف: «في هذا الزمان لا يوجد رفيق خالٍ من الخلل، سوى قدح الخمر الصافية وديوان الغزل!».

سحب الزمخشري سيفه، وسأل العجوز قبل طعنه: «أحب أعرف السر وراء المعرفة العظيمة! الخطة كلها بالضبط! ولا تفصيلة ناقصة! غلبت ذكاء التنظيم كله! أنت موهبة! أنت عظيم! أحب يا حاج إبراهيم عزوز، إنك تشرح لنا، لو فيك روح ونفس!».

العجوز بالكاد يفتح عينيه، ينظر بين الوجوه، يمكن تفسير نظراته بأنه يفتش عن شخص معين، أو يحاول كسب تعاطف الناس، ومع استسلامه للحقيقة المؤكدة وضَّح الموضوع كاملًا: «أنت فعلًا معجب بذكائي؟ أي ذكاء يا بيه؟ الواحد عائش في بلد تقدر تتوقع كل حاجة فيه! بلدنا بيئة خصبة لأمثالكم، طائفة المجانين بالسُّلطة، العالم الثالث كله بيئة خصبة لأي تنظيم أو حزب أو طائفة سرية، وطبعًا الحكومة ولا تعرف حاجة عنكم! الحكومة دماغها فيه مليون حاجة، هل معقول الوزراء والناس المهمة تركن مسؤولياتها ويركزوا مع المخطوفين أو الغلابة؟ لأول مرة في حياتي أتوقع حاجة من آلاف الحاجات اليومية الموجودة في دماغي، والتوقع يتحول إلى حقيقة، وأخيرًا الحاج إبراهيم عزوز، بعد سنين كثيرة من الدوس على دماغه وكرامته، من كلمة معلهش، من تهميشه في وظيفة دورها بالنسبة إلى الدولة صفر، كشف أكبر أسرار تنظيم سري! أنا عارف إن انتصاري على سريتكم ولا مخلوق في الكون يعرفه، لكن الموت مع قلقكم من اكتشاف وجودكم أمر عظيم، يستحق إني أطلع فوق بكل فخر، وأحكي لخلق الله عن موظف غلبان وقف قدام حكومتين!».

ثم سحب نفسًا عميقًا، ونطق الشهادتين قبل طعنه.

تحرك الزمخشري تجاه الحراس، وأمرهم بتطبيق حلقة ضرب عشوائية في حق المخطوفين والخدم، لأننا لم نقُم بدورنا، ولم نضرب العجوز بالقوة المطلوبة، وصاح في النهاية: «ابن الأوباش، المركوب من طوب الأرض، لو كان ذاق التشريفة التمام، لكان مات قبل ما يقف قدامي! حضراتهم لمسوه! رجل عجوز والمفروض أول قلم ينهي حياته، لكن تبقى روحه ماسكة فيه وقادر ينطق! وكلام خائب عن المبادئ والحياة، يا ساتر على الشعب المتخلف! وحياة الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، أنا عاوز أشوف الدم نافورة نازلة منهم!».

في وسط معمعة الضرب، والصرخات والتوسل، كي تنزل رحمة الله، أو رحمة الأديب، شاهدنا الزمخشري وهو يصفع نديم ويجره جر القمامة، فخففنا من مقاومتنا لنستقبل الضربات بيقين الموافقات على تعذيب سادي آخر، جاء لأدنى طبقة في المكان بعد رؤية نبي الكتابة يعاقب، والمزورة تحت رجلَي بثينة تلعقهما.

٨

بعد حادثة قتل الخادمة من الكاتب الغاضب، لأن كتابه عن الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، سينسب إلى مؤلف آخر، شعرت بوجود

ثغرة يمكنني التغلغل من خلالها، والاستناد على نفسية المظلوم لتحقيق هدفي الأخير؛ فضح التنظيم السري لحماية الأديب بطريقة يصعب اكتشافها!

بتوفيق من كرم الله، ودعوات أيهم لأمه الغلبانة، نجحت في تحويل عشرة أعمال للأديب إلى الفرانكو، وقررت زيارة الكاتب الغاضب، متمنية نجاح خطتي التي نزلت عليَّ من وحي أفكار نجيب زوجي، العاشق والمتابع للسينما، ألا وهي فكرة الرسائل المشفرة التي لا تفسر إلا بواسطة العقول الذكية.

لطالما شعر نجيب بأنه إنسان غير محظوظ، تفننت الدنيا في دهسه! نجيب، الرجل الذي عوضني الله به عن كل ما رأيته، صاحب النبرة الواحدة، من يجهل الصراخ والعصبية والشوفينية الذكورية، وعلى الرغم من محاولاتي اليومية لإرجاع الثقة إليه فإنه كبر ونضج وبداخله فكرة واحدة: أمي قالت إنني غبي، إذن فأنا غبي. ومنذ تلك اللحظة عشش القبح في قلبه، وكلما أقسمت له على جمال ملامحه أو ذكاء عقله، قال إن أمه من تعبت في حمله وتربيته، عاشت وماتت وهي تراه مسخًا غبيًّا، فكيف يصدق مجاملة حلوة قالتها أجمل امرأة في العالم!

مررت بجناح الكاتب الغاضب بحجة تنظيفه، ووقفت بجانب عجلة الأسئلة متعمدة اختيار الجملة الأنسب: «هل تريد إخباري بشيء؟».

في البداية رفض بسبب تركيزه مع كتابته، لكنني لم أتحرك، بقيت في مكاني أنظر إليه بعينين حانيتين، مشيرة إلى السؤال نفسه مرارًا

وتكرارًا، فقال لي: «آه، أنا نفسي أقتل كل الناس هنا! بره في داهية! هو أنا ناقص كلام ستات!».

وقفت أمامه وربت على كتفه، ورفعت إصبعي ليأذن لي بالكلام، تنهد وضم يديه إلى صدره، وقال بزهق ونفاد صبر: «نعم! قدامك دقيقة! أقسم بالله لو الموضوع سطحي ولَّا ساذج، ورحمة أبويا، بأوسخ حديدة هنا وفي دماغك!».

بترقيق طبقات صوتي أكثر من اللازم، قلت: «أنا آسفة، أرجوك سامحني واعذر جهلي، **قرنفل**، آسفة، متلازمة توريت، **يلعن توريت أمك**، آسفة والله، لكن أنا عاوزة أفهم، هو فعلًا قرار الزمخشري نهائي؟ **الزمخشري الأهبل**، آسفة، يعني الكتاب بعد ما يجهز، كل الفضل في الفكرة العبقرية، **فكرة وسخة أساسًا**، والله آسفة، عقلي معلهش، المرض ملعلع في عقلي، المهم، الفكرة والكتابة الروعة طبعًا، والتوزيع والجوائز تروح لشخص آخر ومؤسسة نشر؟ آسفة لو سألت أو أزعجت سيادتك، عن إذنك! **يا كاتب يا خائب يا وسخ!** آسفة والله آسفة!».

وهممت بالمغادرة، ليستوقفني ويأمرني بالجلوس أرضًا ونقع قدميه، وتكملة الحديث عن النقطة، لعلي أنجح في تهدئة أعصابه. افتتحت حديثي، بموهبة نسوية، عن رفض القهر والظلم، وتحقيق العدالة في أي مجال أيًا كان، وبين كل كلمة وأخرى أعتذر أكثر من مرتين كدليل عدم شجاعتي على استمرارية حديثي خوفًا من عقاب لا أتحمله، وأن نيتي الخير كله، فيستوقفني الكاتب لطلب المزورة بحجة غلق الباب لتقضية ليلة من ليالي العمر، واقترحت عليه في

أثناء حديثنا أتأوه بصوت عالٍ، فيفهم العابر من أمام الجناح مدى فحولته، وجمال اللحظة الراهنة، وهو ما أضحكه وجعله يوافق فورًا، لأستمر في عرض قضيتي.

نجحت في سلب تفكيره، وإجبار تركيزه على مجاراة كلامي، وقلت إنه بموجب الاتفاق الراهن على إعادة كتابة أعمال الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، بتلك اللغة، فحسب علمي الضعيف وخبرتي الساذجة، لن يتطور الأمر إلى الرسمية إلا بعد محاولات جادة لإقناع دار النشر المسؤولة عن طبعات نجيب محفوظ الحالية، وموافقة عائلة الأديب على التجربة، مما يعني أن النسخ الخارجة قريبًا من كتب الفرانكو سيتم التعامل معها باعتبارها نسخًا تجريبية، لن تنتشر على أوسع مدى، ما دامت الموافقة الرسمية غير موجودة.

من نظراته فهمت تعجبه، فأخبرته عن تعاملي سابقًا مع كتب كنت أريد إعادة نشرها أو ترجمتها، لنصرة قضاياي النسوية، وكلها فشلت بسبب حقوق الملكية.

مع اكتساب نقطة في صالح الاهتمام بحديثي، عرضت عليه الأمر بمنتهى الصراحة، وعرفته أن وفقًا لخطة نديم في تسهيل قراءة الأجيال الجديدة لأدب نجيب محفوظ، سنضع في نهاية كل عمل فهرسًا للكلمات الصعبة، أو ملحقًا لشرح التعابير اللغوية المعقدة، فيمكننا رص كلمات متتابعة في المنتصف، ليس لها علاقة بالكتاب، ومع علمي بوجود القرَّاء المدققين الذين لا يتركون كلمة إلا ورجعوا لها، فمن المؤكد اكتشاف الأمر لدى القارئ بعد ملاحظة التتابع اللغوي

للكلمات، وتكوينها لجملة مفهومة، مثل: «الكاتب فلان هو مؤلف الكتاب الجديد لنجيب محفوظ!»، أو مثلًا: «نجيب محفوظ: المس والكرامات، من تأليف الكاتب فلان الفلاني!».

تأوهت عدة مرات وصفعت لحم بطني، فيدرك من بالخارج ما الذي يحدث، ومع تكراري لنفس الفعلة وقف الكاتب أمام الثلاجة وأخرج منها تفاحة وزجاجة عصير، ليكمل تحسين خطتي: «المشكلة في قسم المراقبة، كل كلمة مكتوبة هنا يقرأها أعضاء اللجنة الثقافية والكتبة! وطبعًا قبلهم الزمخشري! يعني الموضوع لو أي شخص منهم اكتشفه، نهايتك من شدة بشاعتها سيتوب الشيطان بعدها!».

أشرت ناحيتي، وحركت يدي فاتحة قبضتي كإشارة لجملة: «أنا؟ وحدي؟».

ليجيب بإيماءة: «طبعًا، الكتبة هنا كلامهم مقدس، والولاء الكامل للتنظيم، وفي كتيب موجود في درج كل مكتب نجد فيه مئات التفسيرات للابتعاد عن أي تهمة أو عقاب، مثلًا ممكن أقول لهم تقمصتني شخصية متمردة في كتابي عن الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، فيُمحى ذنبي فورًا، ويتم اتهامك بالخيانة والتلاعب في عقل كاتب مجتهد يقوم بدوره!».

ابتلعت ريقي وتأسفت على حالي وحاله، وقلت له إن نبي الكتابة، نديم العظيم، نجح في فرض سيطرته وقوض إبداعات كتبته، وحولهم إلى مجرد تابعين يكتبون ما يُطلب منهم، على الرغم من أننا في يومنا

الأول قيل لنا إن احترام الكتبة واجب قبل الزمخشري نفسه، بسبب ممارستهم لنفس فعل الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، لكن سيطرة نديم فاقت قوانين التنظيم، واعتذرت عن إزعاجي بعد تقبيل يده، وقمت من مكاني لأرحل.

بنيت خطتي على مبدأ واحد فقط؛ زرع الفكرة، فكرة واحدة قادرة على تغيير كل شيء، على تحريك شخصيته وركل خضوعه بعيدًا، ثم بصق سيرة نديم وذبح هيمنة أعضاء اللجنة الثقافية! إنني أمارس طقس القتل المحفوظي الخاص بتنظيمي السري، لحماية حياتي والخروج إلى عائلتي، نجيب وأيهم.

بمجرد خروجي، دعاني مرة أخرى فدخلت وأغلقت الباب خلفي، ليعترف بعصبية مفرطة: «نديم نبي الكتابة؟ تقريبًا تقصدين ضحك الكتابة! آه تقديس الكتبة واجب، واحترامنا فرض عين على كل شخص هنا، ما عدا سيادته، هو وبثينة والزمخشري، إنما متيسرة! اسمعيني، الوحيد القادر على تفويت النسخ من دون رقابة هو ضحاك! ضحاك الأخ الأكبر لنديم، وأكيد لاحظتِ أن ضحاك مكانته أعلى منا، وجناحه أكبر، وصلاحياته أكبر وأعظم! ولعلمك، ضحاك كلمني بعد الموضوع واعتذر عن تصرفات نديم، ووعدني بتلبية أي شيء أطلبه! تمام! عاوزك في أقل من دقيقة تبقي قدامي أنتِ وهو!».

ركضت تجاه جناح ضحاك بورقة من الكاتب فلان، وهو الذي عرف نفسه بهذا الاسم، يخبره بضرورة المجيء إلى جناحه،

فيركلني ضحاك خارج الجناح ويصفعني فوق قفاي في المسافة بين الجناحين، ويتوعدني بركل أقوى إن حاولت تفادي صفعاته، فتركت قفاي مكشوفًا لضربات سريعة متتابعة، تحت أثر حماستي بنجاح فكرتي، حتى وصلنا ودخلنا الجناح وهو يمتطي ظهري كالحمارة.

طوال الجلسة لم يكف ضحاك عن إصدار الأوامر الترفيهية والجنسية والتعسيفية، وأنا أنفذ بابتسامة حقيقية لا زيف فيها ولا خداع، جل ما أريده تنفيذ الأحداث المرسومة داخل رأسي وفضح التنظيم السري بطريقة أو بأخرى، وحتى لو صدق الزمخشري في وعوده، وتركني أغادر، مع تهديده بقتلي أو خطفي مجددًا إن تحدثت، فالواجب يحتم على شخصية نضالية مثلي أن أخوض حربي وبشراسة!

سمع ضحاك فكرة فلان ـ فكرتي ـ وهز رأسه كأنه يحسب مدى المغامرة، ويقلب الفكرة داخل عقله، وأعرب عن عبقرية التفكير وعن استعداده لمساعدة زميله المحترم في التغلب على نفوذ أخيه، ثم ركبني مجددًا كحمارة، وظل يطوف بي في الجناح قائلًا: «طيب وبالنسبة إلى الحمارة؟ واثق أنها تحفظ سرك، ولَّا ممكن تكسب نقطة على حسابك، وأنت عارف، الخدم عندنا عبيد شلة نديم، لو نديم قال لهم اعبدوني أنا، والله ممكن يسجدوا له! عيل قادر، مع إنه والله العظيم وهو صغير كان أطيب من الطيبة!».

أطوف في الغرفة وضحاك راكب ظهري، يشتكي من بطء حركتي ويقول إنني حمارة عجوز لا مفر من ذبحها، وأنا أفكر في ظهري الذي على وشك الانقسام من ثقل وزن ضحاك، القاعد بكل أريحية، ويعيد

سؤاله، فيطمئنه فلان بكتيب الأعذار، وشناعة نهايتي إن حاولت نقل الكلام، أو الوشاية بمخطط فلان وضحاك.

رفع ضحاك جلبابي الأسود، وظل يمتدح في خير الله الوفير المكتنز أسفله، وغمز لفلان قائلًا: «طيب يا فلان باشا، أنا راجع لجناحي، عاوز أغير وضعية ركوب الحمارة!».

وسحب فوطة من فوط فلان، وربطها حول رقبتي ليشدني منها، على الرغم من صعوبة التنفس، وخشونة الملمس، وأذية جلدي، حتى إنني شعرت لفرط حماسته وشد الفوطة بأن رأسي على وشك الخلع، وسأموت على يد ضحاك المجنون.

لمحتنا المزورة، وضحكت لإهانتي وتعذيبي، وسألته عن السبب، فقال إنه سيمارس حقه الطبيعي مع خادمة ذليلة مثلي تستحق أوسخ معاملة، ولا تجرؤ على نطق كلمة، لتعرض عليه مجيء خادمة أو خادمتين لو شاء، لكنه أغلق الباب خلفنا رافضًا عروض المزورة، موضحًا أن كل الموجودات بالأسفل في كفة، وتلك الخادمة ـ أنا ـ في كفة أخرى، والأكلة الهنية تحتاج إلى استعداد والاستمتاع بها بعيدًا عن جو المقبلات أو مصمصة الأصابع.

دعوت الله في سري أن يصيبه عجز، أو يحوله إلى كلب حقير، أستطيع تهشيم رأسه بالحاسوب قبل محاولته القذرة لاغتصابي، وعلى ذكر الاغتصاب، لم يلمس ضحاك جسدي، بل نشل دماغي بسؤال مكير: «مَن صاحب الفكرة يا أمينة؟».

رفضت البوح بالحقيقة اتقاءً لعقاب ربما ينزله فلان بي، وفي ذاكرتي كتيب الأعذار الذي وصفه فلان بأنه مخرج مثالي من

كل مصيبة، ومع كثرة الضغط عليَّ وتمسكي بقراري وشجاعتي، قرر ضحاك الاعتماد على حيلة تجبر الشيطان نفسه على نطق الشهادتين!

لما انتهجت الشجاعة والأمانة الخادمية في رفض النميمة، استعمل ضحاك قطعة حديدية ووضعها فوق الموقد، وقال بكل برود قبل إشعال النار: «أنا كاتب يا أمينة، وتخيلاتي كلها مريضة، يعني أقدر أخترع تعذيبة وأنا واقف قدامك، فالمطلوب تعترفي بكل بساطة، مَن صاحب الفكرة؟ إما الاعتراف وإما نسخن الحديدة لأقصى درجة ونزنقها في مكان صعب جدًّا أن أشرحه، لكن عاوزك تتخيلي إني ناوي أغتصبك بالحديدة السخنة! عرفتِ المكان ولَّا نعمل تجربة سريعة؟ معكِ حق، نعمل تجربة سريعة!».

ركعت أسفل قدميه أقبلهما، أبكي من ظلمه وقسوته، أعرف أنني إذا قلت شيئًا من دون استئذانه فسيلسعني بالحديدة في أماكن متفرقة، ضحاك لا يرحم، ولم يتعاطف مع انهياري، سحبني من شعري، وفي أقل من دقيقة قصه بطريقة عشوائية جعلت شكله أشبه بالمجاذيب، أو بالموجودين في أجنحة العلاج النفسي، وسكب بقايا كوب شاي فوقي، ثم تبول عليَّ قائلًا: «أنا عندي استعداد أنفذ فيك كل طرق التعذيب المعروفة والمتخيلة والمرتجلة! مَن صاحب الفكرة يا أمينة؟ فلان غبي، آخره يكتب ويقلد، فلان أغبى كاتب في التنظيم، الكلام الكبير يطلع من نديم، أو مني، أو الزمخشري وبثينة، فيا أوسخ خلق الله، مَن صاحب الفكرة؟».

صفعت نفسي عدة مرات بقوة وحزم وأنا أبكي بحرقة وقهرة،

أمسح بوله في جلبابي، صفعت نفسي ليفهم أنني صاحبة الفكرة، ولما ظل يسألني، على الرغم من كل الإشارات التي فعلتها، قلت فجأة من دون استئذان: «أنا! **أنا يلعن ميتين أمك!** أنا! **يا ابن الزانية!** أنااااااااااا!».

تحول الضرب من رفضي للوشاية إلى كلامي من دون إذن، أحاول تفادي ضرباته لكن بلا فائدة، أصرخ ليتوقف، وتقريبًا صراخي يستفزه أكثر ويحرك هرمون الذكورة الزائفة في جسده، يتبول عليَّ، وأنا أقبِّل ذكره ليتوقف عن فعلته، يبصق فأمسح البصقة وأبكي.

هجرني التحمل، عادت روحي المتمردة، ركلت كلام الخادمة الأولى ووصاياها، ونصائح المزورة، دفعته بعيدًا عني، وسحبت الحديدة الغليظة بكل عزمي وقوتي وقهري وشوقي للخروج واستسلامي للإهانة، بكل ذكرياتي مع الكوابيس والحياة السوداء، بكل كرهي للرجال المغتصبين والتهديدات بالقتل التابعة لموقعي، وإصابة ابني أيهم وموت كرمة، بكل لحظة ضعف منعتها من الخروج لأنني أنثى قوية تريد محاربة مجتمع كامل يريد تطويعها لاستخدامها كأداة، وسلب كل حقوقها الطبيعية في كونها إنسانة خُلقت لتحيا.

خطفت الحديدة، وضربته أكثر من عشرين مرة، إلى درجة أن الرأس تهشم تمامًا تحت يدي، انفجر المخ وخرجت عينه، الأسنان تناثرت حوله، نافورة الدماء أغرقت محيط جثته وجسدي، وسمعت جرس الإنذار، وتجمع الحراس والمزورة والكتبة خلفي، كلهم

HTTPS://WWW.RIWAYA 2025

وقفوا مذهولين من تصرفي وقتلي لأقدم وأهم الكتبة في تاريخ التنظيم، وأصبحت أنا، ياسمين شاهين، الأم المقاتلة والزوجة المناضلة، أول أسيرة داخل التنظيم السري لحماية الأديب تقتل عضوًا مميزًا.

٩

في مشهد مهيب، تعرف تفاصيله كيف ترعب، دخلت أخيرًا الغرفة المحرمة، والتي تقريبًا تشبه محراب تعبد أو مقام ولي، بمساحة مهولة وجدران مخيفة، تثقلها صور أشخاص مقتولين، والصور إما لفرد واحد، أو لعدة أفراد، مع وجود تمثال للأديب في نهاية المكان، أجهل بسبب الإضاءة الكئيبة هل هو من الذهب أم النحاس، واقف كالمسيح بيدين ممدودتين ونظرة هائمة، لكاتب يحمل هم الأدب وأمامه تماثيل من حجر لأفراد راكعين كأنهم يتضرعون لمغفرة الأديب أو يستنجدون بمعجزاته.

التخمين الأقرب لما أنا مقبلة عليه هو بدء الطقس المحفوظي، وتعذيبي حتى يُفصل رأسي، فأقابل ربنا الرحيم، وأحكي له عن معاناة أُم لم ترتكب ذنبًا في حق الإنسانية، لم تلحد أو تسب الذات الإلهية، بل قالت رأيها، واستخدمت حقها للتعبير عن رفض كتابات أديب يعاملونه في مكان غريب كإله أو مُخلِّص أو صاحب كرامات، وقتلت وغدًا يعاملها بمنتهى الحقارة وانعدام الإنسانية.

HTTPS://WWW.ALMEZYAA.COM 2025

بعد اقتيادي إلى الغرفة، وتقييد حركتي تمامًا، وتكميم فمي، جاء الحرس بجثة ضحاك ووضعوها بجانبي، الجسد السائب والرأس شبه المفقود، ورائحة نتنة لا تطاق، ثم قرأ كبيرهم الفاتحة، ورحلوا.

سمعت صوت فتح الباب، وخطوات ثقيلة تقترب، ليقطع خلفي وجه زيطة، بصحبة الزمخشري وبثينة ونديم، وأشخاص آخرين أراهم للمرة الأولى، ينظرون إليَّ بغضب وغلٍّ، إلا الزمخشري يبتسم، يشعل سيجارة وينفث دخانها، ثم تدخل المزورة بكرسي مخصوص ليجلس الزمخشري، وتتبعها الخادمات بمقاعد لبقية الحاضرين.

طرقع الزمخشري أصابعه، فناوله نديم ملفًّا قديمًا، كُتب عليه من الخارج «التنظيم السري لحماية الأديب»، وتنقل سريعًا بين الصفحات حتى وجد ضالته، وبدأ يقرأ بصوت أجش ونبرة تحذيرية توضح معالم نهايتي المأساوية: «إن التنظيم السري لحماية الأديب مشروع قومي، غرضه الحفاظ على ثروة مصرية عربية، وثورة أدبية نجحت في اجتياح عالم الأدب العالمي وفرضت شروطها، وعرف الجميع في شرق الأرض وغربها من هو الأديب العالمي نجيب... إحم إحم... الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، وانطلاقًا من إيماننا الخالص بجواز ركوع الأدب لرجل واحد فقط، هو... إحم إحم... الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، فلا مناص من ضرورة التنويه إلى الالتزام بجميع الشروط المذكورة هنا، حفاظًا على سيرة تنظيم، ستكمل لسنوات طوال، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فالأبدية غايتنا، وحماية

الأديب هدفنا، مهما... تكلف... الأمر... سواء... بالسلم... أو... الحرب!».

سحب نفسًا طويلًا من سيجارته، مهمهمًا في أثناء قراءة الملف، يقفز بين السطور، باحثًا عن نقطة معينة، لينطقها وينير بصيرتي، أو ليعترف بمدى جرم فعلتي.

قام من مكانه، وقال بصوت عالٍ: «أعضاء التنظيم السري لحماية الأديب هم أفراد مُنحت لهم صلاحيات تمكنهم من استخدام كل الوسائل الممكنة لتحقيق أهداف التنظيم، ولا يُسأل رئيس التنظيم أو كبار الأعضاء عن سبب أو تفسير لأمر أو تصرف، ما دام الغرض النهائي هو خدمة مسيرة التنظيم السري لحماية الأديب، والحفاظ على مكانة الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، كما تم التخطيط بالاتفاق بين الحكومتين. وفي حالة تعرض رئيس التنظيم، أو كبار الأعضاء، لمحاولة اغتيال غاشمة، أو ـ نتمنى السلامة للجميع ـ عملية إهلاك ناجحة، فالعقاب الرادع لمرتكبي الحدث هو القتل الفوري بالطريقة التي يختارها رئيس التنظيم أو العضو النائب عنه، من الطرق التالية: الإعدام بالشنق، الإعدام رميًا بالرصاص، الإعدام بالخوزقة».

رجع إلى دخان سيجارته والهمهمة، وتقليب الصفحات، ثم ابتسم فجأة وخبط براحتي يديه فوق الملف، وعاود القراءة: «في حالة تسريب معلومات من داخل التنظيم إلى الخارج، فيعاقب المتهم مهما كان تصنيفه في التنظيم بالإعدام سلخًا، ثم ربط الأوصال وسحبها لانتزاعها، وفي النهاية يتم وضع الكتلة المتبقية من الجسد

HTTPS://T.ME/RIWAYAT2025

داخل إناء، استعدادًا لغلي الجسم وتقديمه للقطط الضالة بعد تقطيعه لسهولة الهضم!».

سمعت المزورة تقول بنبرة ندم: «حرام والله الحلاوة تهضمها القطط في الآخر!».

شعرت بماء دافئ يحتل مساحة حوضي، ينتشر ويتوغل، لقد استسلم جسدي للخوف وتبولت على روحي رعبًا لمجرد التخيل والتفكير في مصيري البائس من الإعدام بطرق غير آدمية، وأدركت مدى ضآلتي في عالم سري، حسبت أنني مقاتلة وربما أصمد، حتى تخلى العقل عن تصرفاتي، وسأدفع الثمن غاليًا، على الرغم من اعتناقي الصبر كل تلك المدة، متعلقة بقشة الغريق الذي يثق بالنجاة ولا يؤمن بالنهايات غير السعيدة.

ذكر الزمخشري سريعًا الكثير من الأمور المتعلقة بسياسات التنظيم، وطرق المناورة والتخفي، وانتشار التنظيم في عدة دول عربية، بجانب اقتسام المركزية بين القاهرة وتل أبيب، وأنه في كل دولة ـ باستثناء مصر ـ يمكن للتنظيم السري حماية أديب آخر مع نجيب محفوظ، يتم اختياره بعد الاقتراع بين أعضاء التنظيم في الدولة الواحدة، وأوضح اختلاف بعض القوانين الموضوعة أو معظمها في ملف المشروع الدولي، وفقًا لرئيس التنظيم ومعرفته بطبيعة الشعب الثقافية، والتمكن من أدواته التي قد تنجح مثلًا بكفاءة عالية في فرع لبنان، وتفشل تمامًا في العراق.

لما انتهى الزمخشري من قراءة الملف العجيب، قال وهو يمسح على التمثال تبركًا بسيرته العطرة: «القانون الوحيد المشترك بين

HTTPS://WWW.2025

كل فروع التنظيم هو الطريقة المستخدمة لتحرير أعضاء التنظيم لو قُبض عليهم، يعني يا أمينة سمراء يا كلبة، لو أي معلومة خرجت، أو بسببها عضو بقى في السجن، في أقل من دقيقة، قانون الطوارئ المحفوظية يتم تفعيله، وحرس التنظيم يتجه إلى القسم، وفي لحظة يختفي القسم من الوجود، هو وكل الموجودين جواه! أنتِ متخيلة يا أمينة، لو كان أي شخص من بره التنظيم عرف أن فيه مكان اسمه التنظيم السري لحماية الأديب؟ يا أمينة، أمر التنظيم معروف لمسؤول صاحب سلطة، ولا مخلوق في الدنيا غيره يعرفه! ولو المسؤول اقترح علينا انضمام اسم جديد، صدقيني، كمية الاختبارات المفروضة للتأكد من صلاحية وجوده بيننا كافية أنه يكره حياته ويهرب! أنا مثلًا، لما وقفت في جنازة الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، وصرخت بجملتي الشهيرة، الدولة رحلتني، وحتى تلك اللحظة، ولا أعرف هل هم كانوا أمن الدولة ولا خلية سرية، وبعد كمية تعذيب مقابل إني أهين نجيب محفوظ ورفضت، لقيت نفسي رئيس التنظيم! فأنتِ، بكل بساطة وحلاوة روح، عاوزة فعلًا تكتبي في كتبنا إن صاحب الفكرة فلان! هو الحقيقة فلان اعترف بكل حاجة، وأنا منبهر وأحسدك على الجرأة، وعلى قتل ضحاك، وعلى اللعب في دماغ فلان، وعلى تفكيرك في فضح سرنا، وأنا آسف، الاتفاق بيننا مُلغى، بغبائك، والله العظيم، وحياة الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، السنوية بعد أشهر، متخيلة! الإنسان غبي، أكثر الكائنات

غباءً، يحلم طول عمره بفكرة، وتضيع منه في لحظة استهتار! لكن أحب أشكرك في النهاية على حاجتين، الأولى الفترة الجميلة القصيرة معنا، والثانية إننا دخلنا الغرفة المحرمة بسببك، تقريبًا دخلتها مرة واحدة من وقت تأسيس التنظيم!».

أوشكت المزورة على كسر فكي بعد إزالة الشريط اللاصق الملفوف حوله بعنف متعمد، وبصقت داخل فمي كعلامة وداع، وكي أتذكرها في العالم الآخر مثلما بررت دناءة تصرفها. أما بثينة فلم تقل كثيرًا، اكتفت بالتبول عليَّ، ونديم حلق شعري ثانية، لكن بحرقه وليس بمقص، وزيطة فضَّل الاحتفاظ بنصيبه من حلماتي لما يحين موعد موتي، مبررًا: «العقاب صعب، الله يكون في عونها لما الروح تطلع، أنا بأمر واحد أحد في أقل من دقيقة الموضوع يخلص والحلمة تبقى ملكي!».

سألت المزورة الزمخشري عن طريقة إعدامي، ليقول بكل فخر وثقة إن خادمة متمردة مثلي تستحق الخوزقة كي تتذوق سكرات الموت البطيء، وهنا طلبت بثينة من الزمخشري، بدلال وغنج، توليها المهمة بمساعدة المزورة التي تعرف الخوزقة وأصولها، فيضحك الزمخشري ويوافق على طلبها قائلًا: «وأنا أقدر أرفض كلمة لبثينة هانم؟ يا خبر أبيض! طيب أنا عندي فكرة! كل الخادمات يا بثينة تحت أمرك! ارفعي كل واحدة على خازوق! لا، لا، لا، أنا عندي فكرة ثانية شعشعت في دماغي حالًا! يا نديم، وقت الإعدام هات الكاميرا! يا خبر أبيض على الجمال وسنين الحلاوة! صورة العام! بثينة ترفعهن على الخوازيق وأنت تصور المشهد النهائي! مقبرة

الخادمات الخازوقية! نديم، بعد الصورة العظيمة، حاول تغير في تفاصيلها وتنشرها على الإنترنت، فالناس تصدق إنها من فيلم جديد، أو لعبة، أو حتى مجهود شخصي لفنان حب يكتب عن مأساة متخيلة! لا يا جماعة! أنا منتظر الصورة فعلًا!».

قفز الزمخشري بطفولة، وقلدته بثينة، بينما ظل نديم يخبط الأرض أسفله بقدميه مع صفير استحسان لأفكار الزمخشري، والمزورة ترمقني بنظرات غلٍّ تتحول فجأة إلى تعاطف، ثم ترجع بسرعة إلى الغل والكراهية، أكره الاعتراف بحقيقة شعورها تجاهي، لكن المزورة تحبني، وأنا الله يحبني لأنه سيخلصني من العالم الأسود المقزز للتنظيم السري.

سألتني بثينة عن أمنيتي الأخيرة قبل تنفيذ الإعدام، وأمهلتني دقيقة كاملة بحالها للتمعن والتركيز في اختيار المشهد النهائي قبل ترك الحياة إلى الأبد وخروج الروح، مع تنويه بسيط باستبعاد مقترحات خائبة، مثل: التكلم في الهاتف مع زوجي، أو رؤية ابني، أو الوقوف في الشمس وشم الهواء! عدا ذلك، من المسموح لي الاستقرار على المطلب الأخير.

تأملوا ملامحي وأنا مستغرقة في تحديد رغبتي، لأقول لهم باقتناع تام، ونبرة استعطافية كي لا يُرفض طلبي، أن يقعد معي كاتب من الكتبة ويكتب حكايتي كقصة متخيلة، مع تغيير الأسماء الخاصة بهم، فمثلًا بثينة تصبح رضوى، نديم سليم، زيطة عطوة، الزمخشري الجبلاوي، وتغيير كل ما يلمح إلى وجود التنظيم.

هذه أمنيتي الأخيرة، وحلمي الأبدي منذ كنت صغيرة، أن تكتب

دور النشر أكثر من كتاب عن سلسلة نجاحاتي، ولأن الموضوع مستحيل، فهي على الأقل تطلع حكايتي في قصة طبعًا خيالية، كله سيفهم أنها خيال كاتب مريض.

بعد طلوع الروح، ووعد نديم بمراقبة كل كلمة ستكتب، وافق الزمخشري على طلبي، وأمر المزورة بإحضار فلان ليكتب سيرتي المتخيلة، الأبشع من أي خيال، ولشدة سوداوية التفاصيل لن يصدق القارئ وجود كيان مهمته الظاهرية حماية الأديب، وهدفه المختفي قتل الأدب لصالح كاتب واحد.

نبه الزمخشري إلى حتمية الانتهاء من كتابة روايتي في خلال أسبوع، مع حذف كل التفاصيل الحقيقية واستبدال شيء واقعي ملموس بها، يفهمه القارئ ويتفاعل معه، وشرح للكاتب مثالًا: «يعني التنظيم يبقى عبارة عن صفحة على الفيسبوك مثلًا، فاهمني؟». ثم أكمل وعيده بأنه في اليوم الثامن لن يخبرنا متى تحديدًا، سننتقل من دار الباطل إلى دار الحق، أو ربما نستيقظ والخازوق يخترقنا، واختتم حديثه السادي وأوامره الظالمة بأغرب جملة سمعتها منذ وجودي هنا: «أمينة، صعب جدًّا إني أنكر مدى إعجابي بأفكارك وشخصيتك، وطاعتك لأوامر التنظيم، آه فيه تمرد، وفترة صعبة قبل تعاونك معنا، لكن أمينة سمراء، خادمة تستحق فعلًا أن يُكتب عنها رواية! إن شاء الله فلان يكتبها، وأنا أعرف دار نشر عندها نقص في قصص عظيمة لكاتبات محترفات، وبيني وبينك يعني أنا عندي كاتبة كتابتها في المستوى العادي، لكن أختها حبيبتي، وياما طلبت مني فرصة نشر، فإن شاء الله

الرواية تكسر الدنيا، والعالم كله يتعاطف معك كشخصية في عمل عاشت حياة صعبة جدًّا!».

قبل مغادرته سألته سؤالي الأخير، سألته لماذا فعلوا كل ذلك لأجل نجيب محفوظ؟ مَن الذي أقنعهم بفرضية سقوط نجيب محفوظ من الذاكرة، أو وضعه في مرتبة الأدباء العاديين بوصفه مثلهم وليس الأفضل؟

حرك الزمخشري الكرسي، ووضعه أمامي بالضبط، ووقف فوقه، فأنظر إلى وجهه البعيد حقًّا، بفعل الارتفاع وطول جسد الزمخشري، وقال إنه بطريقة بسيطة سيشرح الموضوع.

التنظيم لم يكن أساسه هو الحفاظ على خلود نجيب محفوظ فقط، التنظيم كمشروع بدأ كمجرد فكرة قيد التنفيذ، وربما الجهات المسؤولة تحققها، أو تلغيها كمئات الأفكار اليومية، إلا أن المواقف الصعبة التي تعرض لها نجيب محفوظ، خصوصًا بعد موقفه من السلام، جعلت الأغلبية في تحفز دائم ضده.

مثلًا، وفقًا لأحداث معروفة، أحياها مؤخرًا صحفي لامع اسمه سعد القرش، في مقالة له، قال: «احتفلت مجلة «أدب ونقد» بالعيد الستين لميلاد يوسف إدريس، عام ١٩٨٧، في عدد خاص، تضمن رسالة إلى إدريس من نجيب سرور، الذي اتهم محفوظ بالرمادية والحياد واللامبالاة، لكن إدريس فوق نجيب محفوظ! ثم أنت تعلم لماذا وكيف حصل نجيب محفوظ على هذا التقدير وذلك التكريم! ومهما قيل عن «ثورية» نجيب محفوظ فهو لم ولن يكون أبدًا ثائرًا، وأنت ثائر من الرأس حتى القدمين،

HTTPS://T.ME/WAT2025

وهذا قدرك. ومهما قيل عن عالم نجيب محفوظ فسيظل عالمًا محدودًا دائمًا في حدود الطبقة الوسطى، أما عالمك فلا تحده حدود! إن عالمك هو كل العالم!».

طبعًا غير التهامسات والانتقادات الموجهة بصورة يومية لأديب نوبل، ومن يذهب إلى الأماكن التي يتردد عليها، ليجلس بجانبه ويبدأ وصلة الإهانات غير المباشرة، والمعروف طبعًا من المقصود بها، وعلى الرغم من كل الافتراءات فإنه ظل ثابتًا، فشلوا في استدراجه ناحية فكرهم العقيم، وظل هو الأديب العالمي، المحفوظ في ذاكرة التاريخ أبد الآبدين.

وصل إليهم ما هو أكثر من ذلك عن طريق البصاصين، أو بمعنى أصح عن طريق البصاص الأول، زيزو السايس، أقدم سائس في مصر، شرع في تأدية مهماته، بدءًا من انتهاء الجلسات الأولية لتأسيس التنظيم، وتم اختيارهم من قبل رجال الحكومة، ودوره اليومي مراقبة نجيب محفوظ فقط، لتوصيل الصورة الكاملة التفصيلية بتقرير أسبوعي.

أنهى الزمخشري كلامه عن التنظيم مع آخر نفس في سيجارته: «ياسمين، الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، شجرة كبيرة جدًّا، جذورها واصلة إلى أعمق نقطة في الأرض، وصعب جدًّا إن أي شخص يقتلعها، لكنها ممكن تموت لو الاهتمام بها قل، ولا يمكن، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أن يقل الاهتمام ولو ليوم واحد بعوالم رب الأدب!».

وأخيرًا، سمعت اسمي داخل التنظيم السري لحماية الأديب.

١٠

الإدانة الحقيقية لمجتمع كامل، نساؤه تقهر نساءه، وشوفينية ذكوره تكاد تبلغ عرش الرب، هي الموافقة التامة على الاستمتاع بألم فرد وإذلاله، باختلاف الطبقات والظروف، ولم ينتفض شخص ليسأل: أين المؤازرة الإنسانية؟

الإثم العام حاليًا هو اشتراك الخادمات في خوزقة زميلاتهن، إذ تساعد الخادمة شريكتها على الوقوف، تعتذر لها، تقبِّل رأسها، تبكي، تقيد حركتها وتكمم فمها، ثم تضعها بقلب متحجر فوق خازوق حديدي، فتسمع صرخات مكتومة من أسفل شريط لاصق، ويرعبها انزلاق بطيء متمرد لجسد مثقل بالحزن والبكاء، وتنتظر أن ترفعها خادمة لتلحق بمن سبقتها.

سردت قصة حياتي للكاتب فلان، الذي لم يعتذر عن الوشاية، على الرغم من أنني حافظت على سره في عالم لا يستحق وفاء الأنثى، لكنني شكرته بعدما كتب حكايتي، مع تغيير التفاصيل كما اتفقنا مع الزمخشري، وبعدها قادتني المزورة إلى نهايتي.

وقفت في جناح الخادمات أستعد لموتي، أتأمل مناظرهن وهن يستقبلن نهاياتهن بضمير غائب، سألتهن بصوت مرتجف جبان، فضَّل عدم الظهور، مكتفيًا بوجوده داخلي كحديث بيني وبين نفسي: لماذا لا نهرب أو نقاوم ما دامت النهاية واحدة؟ ما الذي سيحدث أسوأ من الموقف الحاضر؟ إذا كانت قصتنا كخادمات ستظل سرية إلى الأبد، فكتابة سطورها كما يليق بنهايتنا

HTTPS://T.ME/ARWA2025

هي الختام الأفضل لمسيرة ذل، حفظتها جدران التنظيم السري لحماية الأديب.

تابعتنا المزورة وهي أسفل قدمَي بثينة، تلعقهما وتغسلهما، وبثينة تشرب سيجارة رفيعة وكوب شاي، ولا تحرك عينيها بعيدًا عني، تغذي روحها المريضة بعذاب بنات جنسها، ترفع حاجبها الأيمن، تشير إلى المزورة فتنتفض ركضًا إلى الخارج، وترجع بصندوق يبدو من هيئته الغريبة أنه يحمل أدوات تعذيب.

جاءت المزورة لتنهي حياتي، ربطت يدَي، قيدت قدمَي، رفعتني بقوتها وجبروتها، ووضعتني فوق بداية الخازوق، ولم تتركني، بل غيرت وجهته وحركته تجاه الموضع الخطأ، منتظرة إشارة بثينة، أو زائرة الليل.

قامت بثينة، وهي ترتدي فستانًا، وتلبس حذاءً بكعب رفيع يضرب في الأرض كعلامة تنبيه تُسمعك رفرفة جناحَي ملاك الموت تقترب، ثم صفعتني برقة غريبة، رقة لا تليق مع سادية الموقف، وطالبت المزورة برفعي وإنزالي على الخازوق لتشعرني بالنشوة الأخيرة، تقول بصوت رقيق: «أنا واحدة ست، عارفة شعور الحرمان!».

بكيت، قاومت الشعور الذي مات بداخلي، غادرتني النشوة الجنسية إلى الأبد منذ الاغتصاب الأول، كرهت أي محاولة لإحياء التلذذ، حاولت توضيح غياب استمتاعي، الأمر الآن بالنسبة إليَّ يشبه التريُّض، أطلع وأنزل من دون أي تأوهات، وأخيرًا فهمت بثينة، وبنظرة من عينيها أنزلتني المزورة استعدادًا للمفاجأة الأخيرة.

HTTPS://T.ME/RWAYA2025

فتحت بثينة الصندوق، وأخرجت هاتفًا لتريني مقطعًا مصورًا لجثمان كرمة، ولجليسة الأطفال قاتلة ابنتي وهي تؤكد في تسجيل خاص أنه تم التخلص من الهدف! الآن عرفت وأنا هنا في التنظيم، قبل موتي مباشرة، أن الجليسة ضحت بسُمعتها وسنوات خبرتها مقابل الحصول على ثلاثة ملايين جنيه والسفر خارج مصر، بعد قتل ابنتي، وفقًا للمؤامرة المنصوبة ضدي من قبل التنظيم السري لحماية الأديب.

لم تهدأ بثينة بعد قتلي فعليًّا بإظهار حقيقة مقتل كرمة، لتعرض صور جنازة لصندوق صغير، يكفي بالضبط جسد ابني، وزوجي منهار، وكل أهلي وأصدقائي يبكون، ثم توالت الصور من داخل المستشفى، ولحظات خروج زوجي بالكفن، ولقطات لابني وهو في الشارع جثة هامدة. أرى الصور، أصرخ، أبكي، تنفجر الدموع، أحرك جسدي بجنون، يأبى رأسي التحرك معي، أريد ضرب بثينة أو المزورة، شعرت بأحبالي الصوتية ناهزت الانفصال. يدق قلبي سريعًا، بدأ عقلي يهذي، أقول كلمات لا تجمعها أي علاقة، أضحك، أبكي، أحرك عينَي في دوائر، أهز رأسي، أصابتني لوثة، روحي ترفض المغادرة، تتمسك بالحياة، تبتغي حزنًا يليق بمكانة أيهم، لقد خدعني الزمخشري، ظننت أن ابني بخير مع والده الذي يحاول تربيته خلال غيابي المؤقت.

أهز نصفي السفلي، تضحك بثينة وتقول للمزورة: «المجنونة ترقص! موت ابنها لحس دماغها! ومقطع كرمة ضيَّع الربع الفاضل! ارقصي يا حلوة ارقصي!».

لقد فرض عقلي سيطرته، تفاقمت المتلازمة ورمتني في دوامات من الهذيان، أتمايل على الرغم من قيودي، أضحك من أسفل الشريط اللاصق، والمزورة لا تصدق ما تراه.

في حديثي الأخير مع نفسي، في اللحظات النادرة القليلة التي وهبها العقل لي لأقول كلامًا معقولًا أفهمه قبل موتي، سألت ملاك الموت وأنا ألمحه مقتربًا مني بكرمة وأيهم: ترى من الذي قتلني؟ المجتمع؟ بثينة؟ الزمخشري؟ نجيب محفوظ؟ المرض؟ موت ابني وبنتي؟ دفاعي عن الأنثى؟ التنظيم السري لحماية الأديب؟ المجاذيب؟

في حديثي الأخير مع نفسي، في اللحظات النادرة القليلة التي وهبها العقل لي لأقول كلامًا معقولًا أفهمه قبل موتي، سألت تمثال الأديب الذي يقف خلف ملاك الموت، بنظرات مواساة: أيعقل أن تتحول حياتي إلى مأساة كاملة تنافس أحزان الأمم وويلات الحرب بسبب كرهي لكاتب، أو لاتهامي له بتأصيل الذكورية؟

في حديثي الأخير مع نفسي، في اللحظات النادرة القليلة التي وهبها العقل لي لأقول كلامًا معقولًا أفهمه قبل موتي، تذكرت اليوم الوحيد الذي فيه ضربت أيهم بعد أسابيع متتابعة من قلة النوم والإرهاق، تعمد الحزن تذكيري بأقسى لحظات حياتي لما عرض صراخي وأنا أصفع أيهم لأنه كتب بأحمر الشفاه على قميصي الأبيض المفضل، على الرغم من إمكانية محو غلطته بوضع القميص مع قليل من المسحوق، لكن الأكثر قسوة على عقلي الآن هو اقتراب أيهم وقتها وتقبيله يدَي كأنه يصالحني، فخرجت روحي، واللقطة الأخيرة

أمامي المنعكسة فوق مرآة عيني، وبثينة تعرض مقطعًا لتسجيل قديم من إحدى ندواتي.

أقول في المقطع إن الكاتب نجيب محفوظ تعمَّد نقل الواقع المجتمعي داخل روايته بأمانة شديدة وإخلاص يحسد عليه، إلى درجة أنه كتب المرأة المستكينة والعاهرة، الراقصة والمعلمة، الفاسدة والرافضة، المتمردة والهاربة، كتب معظم نماذج المرأة، وصبغهن بالضعف والتحول إلى الطريق المظلم في أغلب أعماله! لماذا كتبهن دومًا باحثات عن الجنس، أو عن الانتقام من المجتمع بالرذيلة؟ هل هذه فكرة الأديب عن سمة التمرد النسوي؟ توجيه ضربة للمجتمع المسؤول عن معاناة المرأة بخوضها للبغاء؟ ممن تنتقم المرأة إذن؟ إحسان تزني! ريري زانية! نفيسة عانس وتعول أسرة، إذن فلنجعلها تمارس الرذيلة! حميدة! البنت الجميلة المتمردة! حتى زهرة في «ميرامار» هربت من أهلها لتخدم الرجال في بنسيون! إننا نرفض المقولة الكاذبة التي تقول إن الأديب نجيب محفوظ وقف إلى جانب المرأة، وعرض قهرها ومأساتها في أعماله! لقد تعامل النقاد مع أدب الأديب بنظرة سطحية، الأديب الذكي الذي نجح في إقناعهم بمناصرة المرأة، وهو للأسف بعيد كل البعد عن قضية نبيلة كتلك! أغلب ـ وأكررها أقول أغلب وليس كل ـ شخصيات نجيب محفوظ النسائية هن الراقصات والغواني والعاهرات والمحظيات، وإذا لعب الحظ دوره وتفضَّل علينا بتجسيد شخصيات نسائية، فهن طبعًا مقهورات وجاهلات وخاضعات للسيطرة الذكورية! لقد اجتهد الأديب في تنميط المرأة، لأنه أحب مرة واحدة فقط وفشلت العلاقة، ومن وقتها

وهو ينتقم من كل امرأة بتحويل حياتها إلى جحيم، لقد كان الأديب يحلم بأن تتحول حياة النساء جميعهن إلى الأسوأ، خصوصًا صاحبة علاقة الحب الوحيدة الفاشلة، كأنه يقول لها: «رفض نجيب محفوظ هو العذاب الأبدي!».

وفي نهاية الندوة، نوَّهتُ عن كتاب سيصدر قريبًا للكاتبة ميار الشرقاوي، تتحدث فيه عن شخصيات أدب نجيب محفوظ النسائية.

أوقفت المقطع، وقالت قبل وضعي بطريقة صحيحة فوق الخازوق لأقابل نهايتي بألم بطيء، قد يستمر ـ حسب ما قالته المزورة ضاحكةً ـ لثلاثة أيام: «الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، كان نبيلًا واستثنائيًّا، رجلًا عبقريًّا جاء من كوكب بعيد، وفي النهاية واحدة ساذجة عندها مرض في عقلها ونفسيتها تحكم على الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ بالذكورية! الرجل عرض نماذج التمرد مقارنة بأخلاق وقته وعصره، وأنتِ، يا أغبى خلق الله، معترضة، وفي كل ندوة تنددين بتأصيله للذكورية؟ الحمد لله أن العالم سيتخلص من غبية منافقة فشلت في كل شيء، وأخيرًا لعب الحظ فيها ومعها، وقلة متخلفة صدقت هلوساتك، ومن الذي قال لكِ إن رب الأدب دخل في علاقة وفشلت؟ يا أعبط خلق الله، رب الأدب أحب واحدة تكبره بخمس سنوات، وكان يعرف وقتها أن العلاقة لن تنجح فصوَّرها في الثلاثية، تحديدًا في «قصر الشوق»، ورب الأدب بنفسه اعترف أن حكاية البطل كمال عبد الجواد تتشابه معه كثيرًا، لكنه كتب الحظ الحلو

لكمال عبد الجواد، وجعله يتحدث إلى حبيبته، بينما رب الأدب لم يفعل ذلك لدوافع كثيرة أنتِ أغبى وأقل من إدراكها! عزيزتي أمينة سمراء، إلى جهنم وبئس المصير يا حلوة!».

أيها الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، لن أعتذر لك، حتى وأنا أموت بسببك، أكرهك يا دافع شقائي، وإن تقابلنا في العالم الآخر فسأشير إليك من بين مليارات البشر، وأقول: «هذا الرجل، بأنانيته وبحثه عن الخلود، وبمسه وكراماته، قتلني وقتل ابني وابنتي، وقتل الأدب من بعده!».

كان المشهد الأخير هو رؤية صور جنازة أيهم مجددًا، ورؤية نجيب زوجي، قلت له قبل صعود الروح إلى بارئها: «إنني أنتظرك كي أحكي لك عن شوقي إلى الألوان، وعن جلسات زمان، وعن كيف أضعف الفراق عزيمتي. إنني أنتظرك بقلب ممزق، ربما يعود إلى صلاح حاله، وقتما تربت عليه وتقول: «لم يقتلك الألم، أنتِ قوية تعجز الحياة عن هزيمتك، لقد قتلك شعورك النبيل بالانتصار لكل نساء العالم، ونسيتِ يا ياسمين أن العالم نفسه ذكر، تتلذذ النسوة بالتقرب إليه، ولا مانع من دهسهن لكِ إذا تطلب الأمر قتل أنثى، في مقابل تحقيق حلم أنثى أخرى!»».

كما يليق بأب يحاول

١

سبحانك يا رب، لم أتخيل يومًا أن أمسك كتابًا وأنهيه في المسافة الزمنية الفاصلة بين نومتي الأولى والثانية، وتخطفني بطلة الرواية، أمينة سمراء، بحكايتها ومقاومتها ومشاعرها النبيلة، وكفاحها ضد نجيب محفوظ، لا، المفروض ننطق اسمه، كما كتبت الكاتبة، الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ.

كان نديم على حق عندما قال إن الحكاية ستسرق عقلي، وربما تكون المدخل الحقيقي لعوالم القراءة، خصوصًا مؤلفات عم الأدب والكتابة، نجيب محفوظ، برنس المجموعة الرسمية لمحبي الأديب.

لا أنكر أنني أفكر طوال اليوم في «أمينة وزائر الليل»، ويدهشني موافقة مكتبات الحدود على إقامة احتفالية ضخمة لتوزيع العمل الذي يعرض وجهة نظر سوداوية تحيط بأدب الأديب العظيم

حصريا على روايات وكتب كتيب
HTTPS://T.ME/RIWAYAT2025

صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ! للأمانة، أجد تصرفهم ناضجًا ومحايدًا، لم يجرؤ شخص منهم على توجيه أي إساءة، أو إحراج الكاتبة برفض تنظيم الحفل.

فترة نومي الثانية زاد فوق كوابيسها حلمي بأنني واحد من المخطوفين في المكان المجهول، حتى إنني تخيلت أمينة سمراء زوجتي ياسمين، كانت جميلة جدًّا، على الرغم من معاناتها مع أعضاء المجموعة الرسمية لمحبي الأديب.

أكثر شخصيتين كرهتهما في العمل، الجبلاوي والدباحة!

قال نديم إن الجبلاوي هو اسم أشهر شخصيات نجيب محفوظ الروائية، تقريبًا داخل عمل عنوانه «أولاد حارتنا»، والحقيقة يعني، رجل يقدس الأديب من المؤكد أنه سيختار الاسم الأشهر للتعبير عن شخصيته الغامضة، وهو ما أراه نقطة ضعف في العمل! والدباحة مقززة، عديمة الشخصية، تنتقم من الخادمات لأنها ضعيفة لا تقدر على زائرة الليل، فتنتظر ذهابها لتمارس سلطتها وتفرض سيطرتها بابتذال مصطنع، أراهِن أصلًا أنها تعشق الرجال، وكل أفعالها مجرد تقليد لفُجر وظلم زائرة الليل.

حاولت إخراج الرواية من بالي، حتى بعد استيقاظي ووصولي إلى المكتبة وكثرة مهام اليوم لم تفلح في رفع التفكير عن دماغي المفشوخ أساسًا، وكلما تحدث إليَّ نديم، أجبته بكلمات معدودات ولا أزيد، ماشيًا بين أرفف المكتبة كأني أبحث عن مخرج لبقية المخطوفين في المجموعة الرسمية لمحبي الأديب.

من تلقاء نفسي أخبرت بثينة أنني قرأت العمل، اندهشت وسألتني عن موضوعه أساسًا، فهي تقرأ من الأدب المصري للأديب فقط، وبقية اختياراتها تنتقيها بعناية من الأدب المترجم، أو تقرأ العمل بلغته الأصلية، وبعد شرحي لها من دون حرق أي أحداث، ضحكت وقالت: «زائرة الليل وخطف؟ مكان سري لتعذيب كارهي نجيب محفوظ؟ أفكار سوداء والله! الأديب العظـ... إحم إحم... الأديب الجميل، الأديب النبيل نجيب محفوظ، صانع الأعمال العظيمة، والمدافع عن النسوة، وناقل مأساويات النسوة في عصور الظلام، تُكتب عنه أعمال بمستوى متدنٍّ من القسوة والادعاء! لا يا جماعة، واضح إني محتاجة أتكلم مع الإدارة!».

لم تعطِني فرصة لأوضح وجهة نظري، اختفت من أمامي في لحظة، تبعها مجيء نديم الذي كاد يفقد توازنه بعد الاصطدام برف كتب متوسط الحجم لرواية «أمينة وزائر الليل»، لحقته سريعًا لنلملم النسخ قبل تعرضها للقطع أو أي انثناء.

استدعاني المدير لمرافقة نديم وبثينة في عربة المكتبة، أملًا في الانتهاء من مهمة ستسعد الزمخشري إذا أنجزناها قبل سنوية الأديب.

في الطريق، أزاح نديم غموضي، وعرض خطوات المهمة بإيجاز يحسد عليه، حيث إننا ذاهبون إلى مخزن مكتبات الحدود، لنشارك في أكبر عملية فلترة، ليست للكتب أو المجلدات، بل للجرائد، وذلك بسبب اقتناع الزمخشري العظيم باختفاء الصحف الورقية

يومًا، وسيستبدل الناس الإلكترونية بها، وساعتها سيعقد مزادات لبيع أشهر الجرائد بأعلى سعر، ومن العائدات سيبني أكبر مجمع جرائد في العالم!

تنهدت بثينة، وعلقت على طموح الزمخشري، وقالت إنها تراه شعلة نشاط لا تهدأ، الأصدق سعيًا والأكثر جرأة في الحفاظ على تثقيف العالم العربي، موضحة مسيرته الاستثنائية، منذ كان طالبًا حتى أصبح الرئيس التنفيذي لواحدة من أكبر سلاسل المكتبات المصرية والعربية. وعلى الرغم من انشغاله الدائم، بتحريك الحياة تجاه المعرفة، وعقد الشراكات اللانهائية مع عدد من المنظمات والمؤسسات المحلية والعالمية، فإنه لم يغفل يومًا دور كل الموظفين والموظفات، محافظًا على توفير الدعم المادي والمعنوي من دون أي استثناءات.

على الرغم من كثرة الطرق الموجودة للوصول إلى المنطقة الصناعية بمدينة السادس من أكتوبر، فإن السائق ـ الله يحميه ـ صمم على اتخاذ الطريق، ابتداءً من ميدان التحرير، ليوفقنا الله، ونلبس في زحام تظاهرات لا ترحم، والعجيب أنها لم تكن مناصرة لحزب سياسي، أو لصراع ثقافي آخر، أو حتى اعتراضًا على استمرار قتل ـ بفضل العبد لله ـ المجاذيب، بل نزلت جماهير الكرة المصرية اعتراضًا على فوز فريق «نجوم الشمس» بالدوري العام لكرة القدم.

في الوقت ذاته، وعبر موجات الراديو، سمعنا المذيعة وهي تندد بالتظاهرات، وتطالب الجماهير بالرجوع إلى بيوتها وعدم تعطيل

حركة المرور، وتقبُّل ضياع البطولة الأهم في الكرة المصرية من براثن الأندية الشهيرة.

تكلمت بثينة في هاتفها، واستقرت على اللجوء إلى توصيلة سريعة، وركوب دراجة بخارية خلف زميل تعرفه، لتلحق مهمتها سريعًا، فغادرنا العربة أيضًا باحثين عن وسيلة تنجدنا من التراشق الجماهيري الذي أعجزنا تفسيره، حيث تقف جماهير الأبيض أمام جماهير الأحمر، وكلاهما يلوم الآخر، ويتهمه بضياع البطولة وتسليمها على طبق من ذهب ودولارات لمنافس حديث العهد أحرز بإمكانيات ضخمة وميزانية خيالية البطولة المعشوقة للمشجعين.

فشلت محاولاتنا للمرور من بين الجماهير والحواجز الأمنية، ومع إغلاق الشوارع كلها المؤدية من خارج إلى داخل الميدان والعكس، كنظام مصيدة الفئران، فكرنا في السير إلى مسافة بعيدة، أو لأقرب محطة مترو أنفاق، لكن المدير هاتفنا منقذًا ليخبرنا بضرورة الابتعاد عن محيط المكتبة وميدان التحرير، وأن الفرع مغلق الآن بأمر من الإدارة خوفًا على الكتب والمكان من أي أعمال شغب، مع عدم خصم اليوم، والحل الأفضل حاليًّا العودة إلى البيت.

ودَّعت نديم، وحسدت بثينة على سرعة بديهتها، ثم هاتفت كريم لأخبره بالعبث الرياضي، وفي نهاية المكالمة اقترح عليَّ المجيء، إذا وجدت طريقًا، لتقضية الوقت معه، وفي آخر النهار يمكننا بدء برنامج جديد أساسه التمشية الطويلة، والحديث عن نفسيتي ومشاكلي، كمقابلة بين صديقين. أوضح أننا سنتقابل أمام عيادته في شبرا ثم

نتجه بعربته إلى مطعم راقٍ داخل التجمع الخامس قريب من فرع المكتبة الفخم، الأكبر على الإطلاق، بشارع عمر بن الخطاب خلف مكتبة التجمع.

مشيت من ميدان التحرير، متفاديًا التظاهرات والمناوشات، ومع انشغال الضباط والعساكر بالحواجز الأمنية وردع الجماهير إن تخطت حدودها، نجحت في الوصول أخيرًا إلى ميدان عبد المنعم رياض، بعد كر وفر من صياح وتهديدات، وقلة قيمة، وركبت من هناك مواصلة إلى ميدان لبنان لأخذ عربتي متجهًا إلى كريم، واضعًا في الحسبان تفعيل التطبيق بعد انتهاء مقابلتنا لكسب لقمة عيش تعين جيبي على المصاريف وتسنده لتحقيق حملته.

بعدما نجحت في اقتحام حدود شبرا، وهزيمة سخافة سايس المنطقة، ركنت السيارة أمام عيادة شريكي، الدكتور البيطري خليل سويلم، الذي يجلس أمام عميلة، ببرود أعصاب وسيجارة مشتعلة، تشتمه وتسبه بسبب تقاعسه عن علاج قطها ورميه داخل صندوق حديدي أسفل درج البناية من دون أي اهتمام بالقط المريض، مهددة بحبسه إن لزم الأمر.

هاتفت كريم لأخبره بوصولي، فطلب مني الانتظار لعشر دقائق أو أقل، حتى تجيء أمه لتسلم عليه قبل عودتها إلى المنزل مع صديقة عمرها.

وقفت أمام المحال رافضًا دعوات الجلوس، ألعب في هاتفي، أركب صورًا نموذجية لوجهي، أعيد قراءة رسائل ياسمين، أقرأ الفاتحة لأيهم الذي لا يفارق خيالي، أستعيد تفاصيل رواية «أمينة

وزائر الليل»، حتى وقفت عربة نقل بجانبي وخرجت سيدة تزغرد وأخرى تكبر، استقبالًا لتمثال المسيح، ثم غاب الشوف.

٢

عرفت بمحض الصدفة، وأنا أجلس القرفصاء مكبلًا ومضروبًا بصحبة كريم المقيد معي بنفس الكلبشات، وهو فاقد للوعي، بالكاد يفهم ما يدور حوله، أننا تقريبًا داخل أحد مكاتب الأمن، لبدء تنفيذ التحريات والتحقيقات معنا بخصوص تهمة الجاسوسية ثم عرضنا على النيابة لاتخاذ كافة الإجراءات.

سألت ضابطًا، بمنتهى الأدب والرقي، عن مكاننا بالتحديد، ليجيب ببرود: «يفرق معك المكان؟ المهم إنك في مصر يا أستاذ، فرع أكتوبر، فرع قصر النيل، فرع الجونة، شيء لا يخصك!».

ورحل، ليسحبنا ضابط آخر ويدخلنا إلى غرفة تحقيقات تشبه غرف المؤتمرات الإعلامية في وسعها وتعدد مقاعدها، وبالداخل ينتظرنا رجل، من هيئته العامة وهدوء طبيعته تعرف أنك أمام شخصية مهمة، وهو نسخة قريبة الشبه من الفنان المصري عبد الله رجب.

تأملني الرجل كثيرًا، وبصفعة واحدة رجع الوعي إلى كريم، الذي قام منتفضًا صارخًا: «والله العظيم أنا بريء يا سعادة الباشا، والله العظيم أنا بريء!».

فيشير الضابط إليه بالتزام الصمت، ويوجه أسئلته إليَّ: «شوف

يا أستاذ نجيب سليم أبو رية الديكة، حضرتك موجود هنا للاشتباه في شخصك وفي إنك جاسوس، والموضوع راجع لوجود الكارنيه مع زميلك الأستاذ كريم حسين الورداني، فأنا سؤالي واضح وصريح: هل كارنيه معالي الباشا ضاع وسط الخناقة، ولَّا نروح عنوانك في ميدان لبنان ونقلب البيت؟».

سألته عن أي كارنيه يتحدث، وتكلمت بثبات شخص حقيقي يجهل ما الذي جلبه إلى مقر مكتب الأمن أساسًا. أجاب الضابط بعد تقليب الكارنيه بين يديه: «تفضَّل يا أستاذ نجيب، اسم زميلك، ورقم العضوية، ومكتوب فوق «ت.س.ح.ا». طبعًا كلمة «تسحا» غير مفهومة، وحاليًّا الدولة مقلوبة بسبب جاسوسين، ومن أي منطقة؟ شبرا! أرض الجدعان والرجولة والفخر! فأتمنى تساعدني يا نجيب، أنت وكريم، والموضوع ينتهي بهدوء وسلامة لأن الجاسوسية عقوبتها الإعدام! سامع يا كريم؟ الإعدام! وأنت يا نجيب، حسب معلوماتنا زوجتك مخطوفة وابنك مات! يعني حياتك كلها مصائب! تقوم يا جدع تنتقم مننا وتبيع شرفك وشرف بلدك؟ ولمصلحة إسرائيل؟ أنا فعلًا مصدوم يا نجيب!».

أقسمت له بشرف ورحمة أمي، ورحمة ابني وغلاوة زوجتي، ببراءة سيرتي من تهمة الجاسوسية، وأنني مجرد مريض نفسي يزور عيادة كريم ليُعالج من رهاب المنازل واكتئاب ما بعد الولادة الذكوري، وموظف تحت التدريب في مكتبة صباحًا، ومساءً سائق يسعى إلى كسب لقمة العيش، ويبحث عن زوجته يوميًّا في المستشفيات والأقسام ودور الرعاية.

رفع يده فظننت أنه سيضربني، ليضحك قائلًا: «يا نجيب! خائف! أنا مستحيل أضربك! الكلام الماسخ الخائب والأسلوب الضعيف في إني أجبرك على الاعتراف بالضرب أنا غير معترف به تمامًا! طيب، يا أستاذ كريم، آسف، يا دكتور كريم، ممكن حضرتك تشرح لنا، أنا ونجيب، حوار ت.س.ح.ا؟».

بصعوبة خرجت الكلمات من فم كريم، بعدما طلب سيجارة وكوب ماء، ليخبره بكل شيء: «أحب أقول حاجة، وأقسم برحمة أمي المقتولة والمرمية حاليًّا في ثلاجة المشرحة، كلامي لو طلع أنا غير مسؤول عن النتائج، أنا لا أجرؤ على رفع عيني في عينك، فأرجوك لا تفكر في جملتي على أنها تهديد! لكن أنا لو شرحت لحضرتك موضوع «تسحا»، فتقريبًا يا سعادة الباشا الموضوع سيبقى آخر ما قد تسمعه في حياتك، فأنا يا سيادة الباشا أحب أسألك لآخر مرة: حضرتك فعلًا عاوز تعرف حوار «تسحا»؟».

يضحك الضابط ويجيب سريعًا من دون تفكير: «أحب أعرف الإجابة يا دكتور كريم، واضح إنهم هددوك، لكن الخوف عليهم وليس منهم، فلو العدو قدر يزرع الخوف جواك ويقول لك إنك لو فضحت سرهم تبقى نهايتك أكيدة، فإن شاء الله نهاية العدو هي الأكيدة، وأكيد أنت فاهم، طول ما الجاسوس متعاون معنا؛ فالجهات المسؤولة تقدر تعرض صفقات وتخفيفات جائز تكون في مصلحتك!».

دخل مدني بكوبَي ماء وسيجارتين، شرب كريم الكوبين بنهم تائه في الصحراء، ووجد أخيرًا من يرويه، ثم أشعل السيجارة قائلًا:

«هي الحكاية غريبة، لكن أقسم بالله ما سأقوله هو الحقيقة الكاملة وراء التنظيم السري لحماية الأديب!».

٣

دخل أكثر من ضابط، والاندهاش بصحبتهم، لا يصدِّق أحدهم، ولا أنا، ما قاله كريم طوال ساعتين عن التنظيم السري لحماية الأديب.

أول ما جاء في بالي، بعد سماع الحكاية، هو رواية «أمينة وزائر الليل»، لتشابه الكثير من التفاصيل مع ما سرده كريم، صرخت في وجوههم، طالبتهم بسرعة التحرك لإنقاذ أرواح الأبرياء، وأولهم زوجتي التي بالتأكيد معهم الآن، وهاجمتني نوبة بكاء وخوف، نفَسي يتسارع، قارب قلبي على القفز من مكانه، سألتهم عن الحلول، طالبتهم بالتصرف أو بتفسير ما الذي يحدث هنا، تنظيم مَن؟ تنظيم سري لحماية نجيب محفوظ؟ حمايته من ماذا؟ أي عاقل قد يهاجم أو يضر الأديب الأكثر شهرة في العالم العربي؟

احتد النقاش بين كريم والضباط، قال واحد منهم يشبه الفنان أحمد عبد العزيز: «أنت متأكد يا ابن الكلب! تنظيم سري لحماية نجيب محفوظ؟ بين بلدين؟ أنت مستوعب كلامك؟ أنت شارب حاجة؟ ولَّا أنت فاكر نفسك أذكى مننا وعاوز تكسب وقت تفكر فيه وتلاقي طريقة تهرب بها من اتهام الجاسوسية! انطق!».

أتابع وجوههم، اندهاش تام، وكريم يشرح التفاصيل ببرود

أعصاب، وطريقة حديث تقسم على صدق كل كلمة، لفرط تنظيم الحكاية، والإجابة عن أي سؤال، من دون تغيير في أحداث الحكاية، أو تعديل ما حكاه سابقًا. كان يجيب عن أسئلتهم، كأنه يخبرهم عن رحلته الفائتة إلى شاطئ الساحل الشمالي، وليس عن تنظيم سري يقتل ويسرق وينهب ويعذب، ينتشر ويتوغل، يستعمل الفقراء والمجاذيب والبصاصين لمحاوطة الشعب المصري بسيرة الأديب، والتأكد من تربعه دومًا على عرش الأدب، وعدم زحزحة مكانته ولو لمسافة أقل من السنتيمتر.

لقد صدق الحاج إبراهيم حين قال إن صاحب الدماغ الداهية هو من قتل الأدباء دفاعًا عن كُتَّابها، مع تغيير طفيف في قصته، لم يقتلهم المسؤول نفسه بل التنظيم السري، لضمان لجوء القرَّاء إلى مؤلفات الأديب، هو ومن يحبهم، أما البقية فيتم تهميشهم! لقد استولى نجيب محفوظ على الجزء الأكبر من حب القرَّاء، ونجح التنظيم في قتل الجزء الآخر من أجل دوام حال الأديب الاستثنائي!

سأله الضابط الذي يشبه الفنان أحمد عبد العزيز عن دوري في التنظيم، فأجاب كريم: «لا، نجيب رجل غلبان، يتابع معي رحلة علاجه من رهاب المنازل واكتئاب ما بعد الولادة الذكوري، وموظف محترم تحت التدريب في المكتبة، طبعًا لا يوجد أي علاقة، النوعية البريئة الساذجة المطحونة وجودها نادر في التنظيم، هو تفكيره غلبان جدًّا، فصعب يكون معنا، يعني ربما ـ وأقول ربما ـ ينضم إلى طائفة البصاصين!».

زاد التخبط، الوجوه تنكر المسألة برمَّتها، الضباط على وشك

إجراء الاتصالات لمعرفة إلى ماذا سيؤول الأمر، كريم يطلب سيجارة، أحد الضباط يناوله واحدة، وفي عينيه سؤال واحد: من المسؤول عن كل تلك المصائب؟ وفي زخم التساؤلات والإنكارات، والترحم على من مات، فُتح الباب فجأة، لنتفاجأ جميعًا بطلَّة رجل عرفت أنه الزمخشري من صورته المعلَّقة في المكتبة، مع رجل صاحب هيبة وهيئة، أجبرتا رجال الأمن على الانتفاض من أماكنهم وأداء التحية.

قال الضابط الذي يشبه الفنان أحمد عبد العزيز: «سيادة النائب! تفضل يا أفندم!».

لم يتحدث النائب، وكل ما قاله، بعد رمي ملف ضخم أمامي: «بعد إذن حضراتكم يا أساتذة، الدكتور كريم حسين الورداني، مطلوب في جهاز آخر، وأنا المسؤول عن نقله، أما الباشا نجيب سليم أبو رية الديكة، فحضراتكم كل المعلومات موجودة داخل الملف الموضوع قدامكم! ومبروك عليكم الترقيات إن شاء الله!».

بسهولة إزالة شعرة من العجين، خرج كريم مع الزمخشري، وبقيت أنا محاطًا بنظرات الضباط الذين قالوا كلهم في صوت واحد: «أحا!». ظننت أن اللفظ اعتراض على صدق رواية الدكتور كريم، أو فلنقل على صدق الرواية فقط، من دون الالتفات إلى مجيء شخصية مهمة لتصطحب جاسوسًا معها إلى الخارج، لكن الضابط الذي يشبه عبد الله رجب صرخ في وجهي: «أنت! قاتل المجاذيب طوال الفترة الفائتة، والأخبار والأجهزة تقول الإخوان، وفي الآخر عيل بشخة يطلع هو المسؤول عن كل الحوادث!».

هجمتْ برودة غريبة، وتنميل أغرب سيطر على دماغي، من

رعب كشف هويتي، نهضت متراجعًا إلى الخلف، مفزوعًا لهول المفاجأة، حاولت الركض خارجًا لكنهم بحركة واحدة طرحوني أرضًا، وتكالبوا حولي لشل حركتي تمامًا، واستكمال التحقيق معي حول قتل المجاذيب.

في البداية راوغت، لعبت على نقطة مرضي، كيف لشخص بملامح مميزة أن يمشي بين المجاذيب قاتلًا، من دون كشف هويته أو القبض عليه، وكيف لرجل يكبله الحزن، أن يفكر في الانتقام، بدلًا من البحث عن زوجته المختفية ومساعدة رجال المباحث والنيابة للعثور عليها.

على الرغم من اقتناعي الداخلي بوجود فرصة أو مخرج، لكن الملف الموضوع أمامهم، قتل مجاذيب أفكاري، ولم يترك صغيرة أو كبيرة في كل خططي إلا وعرضها، بصور مأخوذة من زوايا مختلفة، من ضمنها زاوية سفلية! هل تم زرع كاميرا في سيارتي؟

حكيت لهم كل شيء، خصوصًا حياتي بعد ظهور كريم حسين الورداني، واختتمت أقوالي بحديث يليق برجل عاش كل حياته يبحث عن هويته: «أنا مظلوم، من يوم ولادتي وأنا الظلم راكب حياتي، عيب خِلقي، ومرض في أذني، وأب لا يطيق سيرتي، وأم تربيني كعرائس الخشب، ودنيا تعاملني معاملة خاصة، تسرق المتعة مني وتخطف زوجتي وتقتل ابني عن طريق المجاذيب! أنا المفروض أطلع براءة، ومخرج عظيم يصور قصة حياتي ويحولها إلى فيلم يكسر السينما. أنا المفروض أطلع براءة، آه والله العظيم، لأني ضحية ناس كثيرة جدًّا، أمي الله يرحمها، وأب عاش طول عمره على مبدأ الشحاذة، ومجتمع

داس على كرامتي، وزبائن «مشوارك» وجشعهم وراء العروض، وضحية فقر البلد، وتنمر الناس، والعربيات الصينية، وضحية عم بدر البواب، وكريم الدكتور، وضحية مجاذيب البلد، أو نقدر نقول مجاذيب نجيب محفوظ؟ أنا أصلًا ضحية نجيب محفوظ! أنا رجل شرقي، غير مسموح له يقول آه، ممنوع يرتاح، مكتوب عليه الشقاء والبؤس، مكتوب يشوف كل حاجة تضايقه، ويسكت لو العالم كله رفض إنه يشوفه! طيب تصدق بالله يا سعادة الباشا؟ أنا آخر مرة شخص نده اسمي، كان في اختبارات «مشوارك»، لكن قبلها وبعدها الحياة ماشية من فوقي، أنا شفاف بالنسبة إليها، نادرًا لما شخص يقول لي تعالَ مثلًا يا نجيب نشرب شاي سوا، تعالَ يا نجيب ننزل نخرج، نمشي على الكورنيش، أو حتى أضعف الإيمان، إن أي شخص يتصل بتلفوني، غير زبائن «مشوارك»، ويسأل عن أحوالي. هل أي شخص منكم قادر يستوعب معاناة أب فقد ابنه؟ ومعاناة ابن فقد أمان الأب؟ أنا بسبب كل حاجة في حياتي، وصلت إلى أني كائن مهمش، فرح يوم ما مات ابنه للحظات، بسبب إن أخيرًا الناس بدأت تتصل، وتطمئن على صحتي وتواسيني، وإن المكالمات تغيرت من السؤال عن مكاني أو سبب التأخير أو شكوى جاءت لخدمة العملاء مني، إلى السؤال عني! أنا، نجيب سليم أبو رية الديكة، اسمي على اسم نجيب محفوظ، ما أنا أمي الله يرحمها كانت تعشقه، لكن حظي؟ حظي حظ نجيب الريحاني! هو حضراتكم فعلًا، عاوزين تعرفوا سبب قتلي للمجاذيب؟ طيب ما أنا حاولت أطلع في القنوات، وياما قلت وطلبت واستعطفت وكتبت منشورات، يا رئيس الجمهورية أنا عاوز

ياسمين شاهين زوجتي، ياسمين، جميلة الجميلات، المخطوفة، وأنا متأكد أنها ماتت نفس ميتة بطلة رواية «أمينة وزائر الليل»! أرجوكم، كفاية ضحك، أنا قاصد كل كلامي، أي واحد منكم يأمر الساعي، يجري يشتري الرواية، وأقسم بشرف أمي ورحمتها كم المعلومات متشابه، وهي ماتت فخورة بنفسها، نفس فخري بذاتي لأني قدرت أقتل أوسخ خلق الله، وحق ابني يرجع ولو بشكل بسيط! أنا عاوز أقول، أراهنكم جميعًا، إن أي شخص منكم لن يقدر أن يكون مكاني لمدة ساعة واحدة! أنا...».

قاطع كلامي انبعاث دخان مفاجئ، وغياب الشوف بصورة ضبابية!

٤

أفلام الحركة والإثارة لم تكن من مفضلاتي، لأن بطلها دومًا رجل وسيم مفتول العضلات، قد يقف أمام شارع بمفرده، ويقضي عليه بقلم رصاص، وهذه هي المبالغة التي تتعمد شعوب العالم صنعها لتظهر عزيمة رجالها، واستثنائية جبروت نسائها، والقدرة الخارقة والذكاء التكتيكي وراء تحقيق الهدف المطلوب.

مثل فيلم الحركة، الذي أنا بطله حاليًّا، والموقف حولي عبثي إلى أقصى درجة بعد دخول أفراد ملثمين بحوزتهم أسلحة، الواحد منها قادر على هدم المبنى من أول طلقة، خصوصًا مع اختباء المهاجمين خلف دروع وملابس رسمية، تشبه تلك التي يرتديها شرطيو الدول

الأجنبية، فتعجز أنت كمتابع تافه لحرب شرسة عن التفرقة بين من معك ومن ضدك.

في البداية، دفع الملثمون رجال الأمن جميعًا، بمعنى الكلمة حرفيًّا، داخل محيط المكتب، رافعين أياديهم كعلامة استسلام تام، ليجاريهم الضباط الملتفون حولي ويلقون السلاح أرضًا، ثم هاجمتنا مجددًا قنابل الدخان، فجعلت المشهد أكثر ضبابية، وأصوات التكبير هي الشيء الوحيد الواضح، مع ظهور أوامر مثل: «الشهادة يا رجالة! كلنا فداء البلد!». ومن بين الضباب رأيته، ميزته من بين الموجودين، نديم، الذي دخل مسرعًا بخنجر فتح الجرائد وبدأ يطعن الجميع!

باستثناء ضابط وحيد وأنا، لم يترك نديم شخصًا حيًّا، طعنهم بمنتهى الخفة والسهولة وانعدام أي أفكار عن السجن والثواب والعقاب، نفذ سن الخنجر إلى رقبة الضباط، لم يمهلهم فرصة لفتح باب المكتب وتفعيل وضع الاستغاثة، كانت الطعنات سريعة، تعرف مقصدها فلا تخطئه أو تحيد عنه، وفي ثوانٍ قليلة سقط المطعونون، ضاغطين جميعًا على مكان الجرح، كآخر محاولات التمسك بالحياة أو غريزة البقاء تقريبًا.

بعد استيعاب صدمة القتل، والمصيبة الجديدة التي وقعت فيها، مع زميلي الساذج، أو الذي كنت أظنه أكثر الموظفين سذاجة، سمعت نديم يتحدث في هاتفه، منظفًا يديه من الدماء مبتسمًا للرجال حوله، ثم التفت إليَّ تحديدًا قائلًا: «المجموعة في الطريق، كل حاجة معمول حسابها، مطلوب منا الانتظار! اقعد، وإن شاء الله كل حاجة تبقى تمام!».

جلست في مكاني أرضًا أتطلع إلى الوجوه، منتظرًا الكارثة المقبلة، بجانبي الضابط الوحيد الحي، يصرخ بهم، يطلب منهم قتله مثلما فعلوا مع زملائه، يسبهم بأمهاتهم، يستفزهم، كي يتشجع أحدهم ويطلق رصاصة رحمة تعفيه من الحزن طوال حياته الباقية، وبينما يجتهد الضابط الحزين، دخل الزمخشري مجددًا بصحبة بثينة، وخرج الجميع إلا نديم الذي يجلس ويقوم ويتحرك بعصبية مفرطة.

تنحنح الزمخشري، طلب كوب شاي من بثينة، التي ضحكت حين رأتني ضعيفًا مرميًّا على الأرض، متبولًا على نفسي، رحلت وهي تلعن اليوم الذي رأت فيه نجيب سليم أبو رية الديكة.

ساعدنا الزمخشري على القعود، أنا والضابط، ووجَّه حديثه إليه أولًا: «سيادة النقيب، كفاية شتائم! الرجال هنا في غاية الاحترام! إحم إحم... آسف... أنا نسيت أعرف نفسي، أنا الزمخشري، المدير التنفيذي لسلسلة مكتبات الحدود، ورئيس التنظيم السري لحماية الأديب، فرع مصر. حضرتك موجود لأن المسألة بصراحة راجعة إلى تفكير الأستاذ نديم، اقترح علينا أننا نسلم ملف نجيب سليم أبو رية الديكة، مع قلق ومناوشات وهجوم، وضباط تموت من عندكم، وناس تموت من عندي، وأنت في الآخر تعيش بملف قاتل المجاذيب، وأنك قتلت الإرهابيين والبقية هربوا، فالترقية تكون مضمونة، وصورتك تبقى في كل مكان! الحقيقة التنظيم السري ومكتبات الحدود جواهم فخر الدنيا كله لأنك من ضمن قائمة قرَّاء الداخلية، خصوصًا أعمال نجيب محفوظ. لذلك، هدية الولاء، ملف إرهابي وترقية وشهرة في كل شبر فيكِ يا مصر!».

لم يقتنع الضابط بحملة مباهج الحياة التي يطلقها الزمخشري منذ وصوله، وبصق عليه قائلًا: «وأعيش بعار انضمامي إلى تنظيم سري غرضه قتل الناس!».

فيخرج الزمخشري مطرقتين، ويبعدني عن محيط الضابط، ليعيد تشكيل دماغه، بتحويله من رأس سليم إلى لحم مفروم، وكلام من نوعية: «غبي! نفعتك الكرامة صح؟ يا ربي على غباء الشعب!».

غلبني البكاء والتقيؤ، أفرغت ما في معدتي على الطاولة، لتختلط بقايا الطعام المهضوم بدماء وقطع لحم وعظام الضابط، ويتحول المشهد إلى كابوس مروع، بطله مجنون يحمل مطرقتين، حوله جيش وموظف شكله ساذج لكنه سادي، وبنت - المفروض أنها رقيقة - تضحك على منظر القتيل، وأنا أرتجف من الخوف وبرودة مفاصلي، لا أشعر بيدي أو قدمي، برودة غريبة تجبر أسناني على الاصطكاك، وركبتَي على التخبط، ورعشة يدي، كأنني شخص مصاب بشلل رعاش تجاهل موعد الدواء فزادت عليه الأعراض نتيجة لتقاعسه.

استقبل الزمخشري مكالمة، تحول فيها من قاتل مجنون إلى مدافع ثقافي هادئ: «نعم يا أفندم؟ آه أهلًا بحضرتك، آه التوقيت مناسب طبعًا، خير يا أستاذ؟ آه، النشر الإلكتروني، تمام، أعتقد إن ردي في الإيميل واضح؟ حضرتك عاوز تحجز معنا قبل فتح مرحلة النشر لمكتبات الحدود ونتفق على النشر الإلكتروني، وأنا بصفتي المدير أقول لسيادتك العرض مرفوض! موضوع الكتب الإلكترونية مرفوض مرفوض مرفوض! يعني الكاتب يتعب ويكتب وفي الآخر القارئ وهو نائم في بيته، في سريره، يفتح تلفونه ولَّا أي نيلة، وبمجرد ضغطة

الكتاب يبقى عنده! أين احترام مجهود الكاتب؟ سنوات التأليف؟ فرحة شراء الكتب يا بيه وزيارة المكتبات؟ حضرتك فاكر إن مدير سلسلة مكتبات ممكن يوافق على اقتراحك التافه؟ ردي مهما كان العرض المادي، شكرًا، يفتح الله!».

مال ملثم على أذن الزمخشري اليسرى، يخبره بأمر مهم، أو يطلب إذنه في الانصراف، فيشير إليه بالموافقة، ليغادر وسط حراسة اثنين من الملثمين، تبعه دخول رجل أربعيني ينظف المنضدة ويزيل الدماء وبقايا طعامي، ثم تضع بثينة أمام الزمخشري كوب الشاي، ليشرب بمزاج وسلطنة، داعيًا لها بمجيء زوج ابن حلال، أمه دعت له، فيتذوق أحلى خمسينة شاي.

أتابع الجنون المحاصر، خصوصًا نديم، المختلف تمامًا عن نديم الذي أعرفه، ملامحه متغيرة بالكامل، نظرات وجهه جادة، يمشي بثبات وثقة، كأنه شخص آخر لا يمت بصلة لنديم صاحب المشية المضحكة والبلاهة المفضوحة من تصرفاته وتعليقاته.

جلس بجانب الزمخشري، رفع قدميه فوق الطاولة، مستندًا على ظهر المقعد، وقال للزمخشري: «الجماعة كلهم هنا، والعربية جاهزة، قدامك عشر دقائق بالضبط! اضبط ساعتك!».

سمع الزمخشري كلامه، وفتح هاتفه باحثًا عن الموقت، ليختار الرقم عشرة، ويحدثني: «أخيرًا يا نجيب، أخيرًا قابلت العبقري صاحب اقتراح الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ بالفرانكو، وقاتل المجاذيب الخفي!».

ضحك ساخرًا، ودفعت المنضدة بقدمي عندما سمعت جملة الرواية الأشهر، إنه الجبلاوي!

حاولت مهاجمته، محاولة يائسة من رجل يدافع عن آخر ما تبقى من كرامته، إلا أن خذلان الواقع لي رفض تركي وحيدًا في مصيبة كتلك، وصفعني ـ مع الضرب والصفع الموجودين أساسًا ـ بالتحول المفاجئ لشخصية نديم، تجاه شخصي وضعفي، حيث قام نديم ـ الذي كنت أعتبره من دائرة الأمان ـ وركل دماغي بقوة مغتصب يضعف ضحيته، فأسقط عن المقعد وأرتطم بالأرض بلا أي تحكم مني، بسبب تكبيلي الكامل وتقييدي المؤلم، فيستقبلني سيراميك المكان، وينزف أنفي، مع وجود ـ الله أعلم ـ جرح أسفل رأسي جراء فجائية السقطة.

أكمل الزمخشري كلامه بعد تحريك مقعده ووضعه بجانب جسدي الواقع تحته، فأراه من أسفل، وينظر هو إليَّ من فوقية تليق بجنونه: «كفاية يا نجيب، اسمع الكلمتين قبل نهايتك يا ابني، أولًا معلومة سريعة، هو أنت فعلًا كنت تتعامل مع نفسك كقاتل محترف؟ يا نهار أبيض! يا نجيب، المجاذيب جزء كبير من رأس مالي، والتنظيم معتمد عليهم في مهمات كثيرة. فريق البصاصين في كل مكان مهمتهم مراقبة الكتب والمجاذيب، فأنا نفسي أفهم، من المسؤول عن توصيل فكرة التخفي والاحترافية لك؟ عقلك المريض أم خيالك الساذج؟ قاتل محترف؟ يا نهار أبيض! خططك كلها مفقوسة وفي قمة السذاجة! السينما لحست دماغك! يعني لما تنزل قدام ممر مقهى ريش، وتخرج من الناحية الثانية، المفروض إنك راوغت وهربت من الحكومة

والكاميرات؟ عيل أهبل والله! أنت مجرد مواطن غلبان، عيل تربى من صغره على كلمة نعم وحاضر، وإنه يبقى أقل من أوسخ كلب ويسكت! فجأة الصدفة لعبت دورها، وتحول إلى قاتل! يا نهار أبيض يا جدعان! عامةً التنظيم اعتمد عليك وعلى غبائك في تخفيف عدد المجاذيب، لأن العدد بدأ يزداد ويضغط على الميزانية المخصصة، والتنظيم مكان كريم، استحالة يرفض أو يحرج ضيوفه، فشكرًا يا أستاذ نجيب على خدمتك الجليلة، وطبعًا قبل ما تسأل عرفنا كل الكلام بأي طريقة، فتطبيق «لا حدود» عبارة عن تطبيق مراقبة ومتابعة بالصوت والصورة يا متخلف! ثانيًا، وهو الموضوع الأهم، والدة الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، الست المبروكة، فاطمة مصطفى قشيشة، السيدة الفاضلة الموصوفة، حسب كلام ابنها، بمخزن الثقافة الشعبية في حياته! الست المبروكة، فاطمة مصطفى قشيشة، كانت أمية، لا تقرأ ولا تكتب، لكن بسم الله ما شاء الله عليها، ياما قالت حكايات للأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، وكانت دايمًا تزور الحسين، وهو معها لا يفارقها ولا تفارقه، غير طبعًا زيارتها لأماكن أثرية كثيرة، من ضمنها المتحف المصري، وخصوصًا غرفة المومياوات! وأكيد محتاج أقول لك إنها زارت الآثار القبطية، بالتحديد دير مار جرجس، يمكن تفهم تعمقها الثقافي الفطري! الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ قال عنها: «الحقيقة أن علاقتي بوالدتي كانت أوثق من علاقتي بوالدي لأسباب كثيرة، منها أن والدي كان

مشغولًا، ودائمًا كان خارج البيت في عمله، في حين أنني كنت ملازمًا لأمي باستمرار، وفي حين أن والدي مات عام ١٩٣٧، عاشت أمي بعده سنوات طويلة، إلى أن تجاوز عمرها المائة عام، وتوفيت إلى رحمة الله عام ١٩٦٨، وفي نفس السنة التي حصلت فيها على جائزة الدولة التقديرية، ولقد ظللت أعيش معها في منزلنا حتى تزوجت عام ١٩٥٤، وجاءت شقيقة لي مات زوجها لتعيش مع أمي!». طبعًا يا نجيب يا سليم يا ابن سليم الشحاذ والرخيصة أميرة، أنت جاهل بموضوع المس المحفوظي والكرامات المحفوظية، أحب أقول لك أنت على وجه الخصوص، إن ارتباط الجن بنجيب محفوظ وعائلته موجود من زمان، من أيام شباب والدته، وكإثبات صغير جدًّا لما ابنها وهو صغير تزداد شقاوته كانت تهدده بإرسال روح له في الحلم تنغص عليه الراحة، ولما كان يسكت ويجلس خائفًا تعده بإبعاد الشياطين عنه! وحكايات أخته الكبرى زينب عن المزورة والعفاريت، وسماع أصوات الشياطين ليلًا! أصلًا كل الكائنات كانت تحيط به، ليس لتخويفه بل لتتعرف على معجزة زماننا، وترى من هو الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، الذي ستشمله بالاهتمام والمعجزات! المقدمة المختصرة الفائتة، هي ملخص كلامي وتثقيفي وتعليمي لواحد جاهل، أبوه شحاذ وأمه رخيصة، وزوجته أقل ما يقال عنها إنها مجنونة ومخبولة، على الرغم من أنها البطل الحقيقي، وفي العلاقات الشمال تغلب أي ست في مجالها، لكن الجاهل المتخلف طلع في مقطع مباشر وشتم بكل وقاحة، الست المبروكة فاطمة مصطفى قشيشة، وطبعًا أنت فاكر

الشتيمة، أشهر شتيمة للأمهات في بلدك! فالست المبروكة، سبب تشبع للأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ بالحكايات، وظهوره كسارد متفرد واستثنائي جاء من وادي عبقر، لما تتكلم عنها يبقى الاحترام والتبجيل والتقديس فوق دماغك، لكن معلهش، لما تشوفها في الآخرة حاول تعتذر لها.
أنا ملاحظ إنك متعجب وفيه نظرة اندهاش فوق خلقتك العكرة لما سمعت كلامي، يا ترى سبب التعجب سيرة أمك وأبيك؟ آه يا نجيب، أمك عرفناها في آخر أيامها، فريق البصاصين والمجاذيب قالوا إنها مجنونة شراء أعمال للأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، يا جدع أسماء أخواتك على أسماء شخصيات الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، وأنت اسمك نجيب! أمك عن طريق المكتبة تعرفنا عليها، وياما عملت حسابها في الهدايا والإكراميات، لكن أمك في النهاية الطمع بدأ يلعب في صدرها، خصوصًا لما الشغل بين التنظيم السري والمركز الخيري العجيب زاد، مستغرب من كلامي؟ يا نجيب، أمك الله أكبر عليها، كانت أكثر واحدة متمكنة في تعذيب أولاد الملجأ! يا ابني للأسف أبوك كان يجري في دم أمك، تعشقه، ومستعدة تعمل أي حاجة مقابل إنها ترضيه، فالمركز الخيري كان الساتر الاجتماعي وراء تعذيبها اليومي للعيال بسبب سيادتك! كل يوم تعذب في عيال المركز الخيري بسبب إن ربنا رزقها بعيل حالة خاصة، وأبوك شاف نفسه الأرخص في سوق الرجال، فمن ساعتها وهي نازلة في العيال ضرب وتعذيب! التنظيم

عرف الموضوع من البصاصين قبل ثورة يناير بشهرين، واجهنا أمك بالموضوع والتسجيلات والإثباتات، والسكوت مقابل قبول الموت! ومن وقتها كنا لما نحب نربي أي ابن كلب تخطى حدود الأدب مع الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، كنا نكلمها وهي تقوم بالواجب، أو نزور المركز ونقوم بالواجب مع كل المخطوفين، والمقابل؟ ملاليم والله، وهدايا، هي كانت ست قنوعة الصراحة، وياما صدعتنا إنها ماشية في نظام تربيتك على نفس طريقة تربية أم مصطفى سليمان في رواية «المرايا»، الحرية لأخواتك، وفرض القيود والسيطرة عليك يا حبيب وروح أمك! كأن أخواتك الذكور وأنت الأنثى! لكن هي حافظت على هويتك! لا تؤاخذني يا نجيب، أمك كانت تعد الفلوس وهي تغسل قدمَي، وتشتكي من عفانة وبخل الوالد، تعشقه جدًّا، لكن تقول لي إنه حوَّل حياتها إلى جحيم بسبب مرضه الغريب بالشحاذة والسلفة! أبوك فعلًا كان حالة غريبة يا نجيب، أنا عاجز عن فهم مرضه، فلوس المرتب وشغله يرفع البلاطة ويدفنها، وكل يوم يكلم فلان وفلانة وعلان وعلانة، ويشكي بجملته الشهيرة: «بحق لا إله إلا الله! أنا جيبي فيه خمسة جنيه!». غبي! نفسي كان يغير حتى المبلغ! يقول مرة عشرة أو عشرين!».

عجز لساني عن قول أي كلمة، يستقبل عقلي توضيحاته وتسقط منه كرصاصات تتجه ناحية قلبي، تدميه وتجرحه وتفجره، ثم تعيد تجميع الأشلاء لتكرر فعلتها، أسمعه والدموع اقتربت من إغراق الغرفة، المفاجآت تتوالى على كرامتي ودماغي، إلى درجة أنني أقول لنفسي

إن المقلب السخيف المعمول في شخصي حاليًّا سينتهي، وربما أنا في كابوس في نومتي الأولى أو الثانية، وسأستيقظ من تلقاء نفسي!

اهتز هاتفه، ففهم أن الوقت انتهى، قاموا جميعًا، سألته قبل رحيلهم عن مصيري وعن مصير أمي الله يرحمها، فقال بسرعة مراقبًا الطريق بالخارج لضمان نجاح خطة هروبه: «مصيرك؟ فيه مفاجأة داخلة عليك حالًا! أما بالنسبة إلى أمك، الله يرحمها طمعت في مبلغ كبير، كانت عاوزة تسيب البيت وتشتري شقة في مكان نظيف غير الدرب الأحمر وشق العرسة، رفضنا، فالهانم الوسخة بصقت على صورة الأديب العظيم صاحب الكرامات والموضوع في مكانة القديسين والشهداء نجيب محفوظ، الموجودة عندها في جدار المركز، ورمتها في أقرب صندوق زبالة، عرفنا الخبر والحركة السافلة، جهزنا بعدها بيومين بالضبط خطة قتلها، الموضوع أسهل مما تتخيل، تاكسي ينتظر موعد نزولها، يقترب، تركب، يتحرك، يركب شخص آخر، رصاصة في دماغها، والتاكسي بعدها يقع من فوق أي كوبري، شوف يا أخي، الوحيدة في ملفات التنظيم المقتولة بأرخص خطط القتل والله!».

سمعت نديم وهو يسأله: «ستقول له من قتل ابنه؟».

دفع الزمخشري الجميع خارجًا، وقال بصوت عالٍ وضحكة أعلى: «نجيب، أنا والتنظيم السري السبب في كل حاجة، الوظيفة والدكتور النفسي وقتل ابنك وخطف زوجتك وقتل أمك. يااااااه، أنا عارفك ومراقبك من زمان جدًّا يا نجيب! ثواني، نديم، يا نديم، المفاجأة وصلت؟ تمام، المفاجأة وصلت، استمتع يا عم نجيب! سلام يا نجيب سليم أبو رية الديكة!».

٥

ساد الصمت، رحلوا جميعًا، أشعر بدنو نهايتي، وأسمع خطوات ثابتة تمشي على مهل وتقترب، يُفتح الباب، يدخل نديم، يقول إنه يودعني للمرة الأخيرة، ويصور المقطع النهائي لآخر أيامي في الحياة، كي يضعه مع غيره من مئات المقاطع المتشابهة التي تجمع شيئين مشتركين، كريم وبطل المأساة.

بلامبالاة يسألني نديم عن سبب وجومي واندهاش ملامحي، أتجاهل سؤاله، وأرد عليه بسؤال مختلف: «المفاجأة إن ياسمين ناوية تظهر، ولَّا أبويا انضم إلى التنظيم وفي طريقه إنه يقتلني؟».

سخر من إجابتي ببصقة على الأرض حين سمع اسم ياسمين، وقال: «تخيل يا صديقي، أنا أقول لك إن مهمتي تصوير المقطع الأخير لسيادتك، وأنت تقول لي ياسمين ناوية تظهر! الله يرحم ياسمين! يا نجيب أرجوك افتح دماغك وامسح سيرة ياسمين النجسة منها، أنت هنا بسبب ياسمين! كل المأساة والألم والحزن بسببها! تخيل مثلًا لو القدر وفق رأسين في الحلال ورشح لك زوجة ثانية أجمل من ياسمين، زوجة دمها أخف وست بيت ورافضة لحوار النسوية وشغل الحريات المقرف، وكانت تخلف أحلى عيل، ولا ذراع ناقصة ولا قدم مبتورة!».

بنفس لامبالاة نديم طالبته بضرورة اختيار كلماته، والحديث عن زوجتي بصيغة أفضل من تلك، ليقذفني ببقايا الشاي التي تركها الزمخشري في كوبه، وسب جسارتي ودفاعي عن زوجتي، ثم فك

قيودي وناولني عصا غليظة تشبه النبوت، ولم يكمل حديثه الودي معي، بل أخرج الكاميرا ووقف في ركن من أركان الغرفة موجهًا العدسة ناحيتي، صارخًا: «دافع عن نفسك يا نجيب! استقبل سيرة الموت بشجاعة الأبطال!».

ليجلجل صوته فجأة قائلًا: «يا أهل الله، كرم الضيف واجب!».

مع نطقه لكلمة «واجب»، وفي لحظة اختفاء حرف الباء، دخل من الباب عدد كبير من المجاذيب، كلهم يركضون نحوي محملين بشتى الأسلحة، تشكيلة متنوعة تفيد حاملها فيسيطر على منطقة بأكملها، والموقف هنا عبارة عن اشتباك ظالم بين مجاذيب منطقة كاملة وفرد وحيد بعصا خشبية قد تبقيه حيًّا لعدة دقائق.

تحركت غريزة البقاء، أطوح العصا يمينًا ويسارًا، ونديم يسجل المشهد مشجعًا، أضربهم ويضربونني، يهاجمون ثم بتردد يتراجعون إلى الخلف، فأبادرهم أنا محاولًا شق طريقي إلى الخارج، لكنني لمحت عند الباب رجلًا يحمل سلاحًا، تقريبًا هو الخطة البديلة إذا نجحت في قتل المجاذيب.

يقولون كلامًا عجيبًا، ينطق واحد مثلًا: «أفوظ! لا! أفوظ! لا!»، ويقول الآخر: «كرم الكريم في كل خطوة يا رب.. نقف نصلي والشيطان يهرب!». ومن بينهم تهاجمني سيدتان، لا يليق بهما موضوع المجذوبية، إلا أنني ركلت واحدة لتبتعد، والأخرى فشخت دماغها بضربة جعلتها تسقط صريعة تقريبًا.

أتعجب من صمود قوتي، أستقبل ضربات كفيلة بقتل فيل، ومع ذلك أنا مستمر، أحارب، ألعن المجاذيب الذين قتلوا ابني وحرموني

HTTPS://NEWAY2025

من حكايتي معه كأب، أب لن يعرف حتى ماذا كان سيصير الولد؟ ضابط شرطة أم طبيبًا؟ كاتبًا؟ صحفيًّا؟

أهاجم المجاذيب، وأقفز بين الأماكن، ذلك يلكمني وتلك تجرحني بسكين، ومخبول يقذفني بحجر ضخم، لشدة ارتطامه بي كسر ذراعي اليمنى، صرخت من الألم، وأكملت مهمتي في الدفاع عن نفسي، موافقًا على الموت برصاصة الرجل الواقف عند الباب ولا أن يقتلني المجاذيب، المجاذيب الذين سلبوا ابني مني، أيهم، من كنت أنتظر مروره بمراحل النضج، كي أقولها له صراحة، إنني لن أعامله مثلما فعل والدي، ولن أكون شحاذًا يتأفف الكل من رؤيته، ولن أكرهه بسبب حالته الخاصة، أو اتهامه بكونه السبب الرئيسي وراء تدهور صحتي الجنسية، ولن أسخر منه أبدًا، موضحًا باستخفاف أن الرب زهق من تشطيب خلقك، فنفخك داخل رحم أمك بنصف ذراع.

راودني منذ ولادته قلق فكرة الانفصال عنا، ونجح المجاذيب في تأكيد قلقي وتحويله إلى مأساة عن طريق قتله، لماذا؟ لأن والده شتم أديبًا، وأمه هاجمته لسنوات طوال، فدفع هو الثمن أولًا، وكفَّرت ياسمين عن خطيئتها وماتت، والآن أكفِّر أنا الآخر عن خطيئة كلمتين خرجتا مني لمساندة زوجتي في حربها ضد ذكورية المجتمع.

خارت قوتي، ذراعي اليسرى تحمل هم البقاء، تدافع عن كيان كامل بمفردها، والعقل يقنع الجسد بالاستسلام، لتسمع الرؤية كلامه، وتشوش معطياتها المرسلة إلى المخ، فلا يفهم ما الذي يراه،

أعتقد ـ وبعد محاولة جادة ـ أنني سأقابل الرب الآن، بعدما طعنني مجذوب بسكين اخترق جنبي الأيمن، وصدمني آخر بمقعد، بينما جلس فوقي رجل يحمل مطواة، وضعها في كل مكان كما يحلو له، خدي وحاجبي وعيني اليسرى وأذني اليمنى ورقبتي، وهأنا أضغط بيدي فوق جرح الرقبة كي لا يهرب الدم، مبتسمًا على إرادتي الخائبة التي تتمسك بالبقاء.

العالم صار من حولي غريبًا، ينضح بشعاع نوراني، وأصوات جميلة أسمعها بترتيب مبهر لأول مرة، مع ظهور صوت أجهل كنهه، ثم رأيت نفسي بصحبة نجيب محفوظ في غرفة قديمة يتدلى منها مصباح أصفر، نجلس بين رجال ونساء، يتابعهم بصمت مع نظرات فخر تعلو وجهه، سألته: «من هؤلاء؟»، قال: «أهل الله!». حاولت القيام، ربت على كتفي، وهز رأسه مبتسمًا، وقال: «إليك هذا اللحن، احفظه مني جيدًا، وترنم به عند الحاجة، وستجد فيه الشفاء من كل غم وهم!». قلت له: «عندي مشكلة! لا أسمع الألحان ولا الموسيقى، أنا مولود بمرض نادر!»، فلا يجيب، يبتسم فقط، ويُخرج من فمه صوتًا في غاية الرقة والعذوبة.

في آخر لحظاتي في الحياة، سمعت الموسيقى، سحرتني العذوبة، بكيت، ليس لأنني أموت بل لموقف الرب مني، لماذا حرمني هذا الجمال؟ ما الذي سيضيره إذا كان تركني بأذن تسمع الموسيقى؟ على الأقل كنت سألجأ إليها في كل مواقف الخذلان والضعف وتخلي الحياة عني.

قال نجيب محفوظ وهو يشرب فنجانه: «لا بد من إنجاز المهمة!»،

وسحب يدي، لنخرج معًا إلى القاهرة، بشوارعها ومجاذيبها ومواطنيها، بزحام طرقها وفقر أغلبية شعبها، أسأله: «إلى أين؟»، يجيب: «إلى بلاد الله الواسعة!»، فلا أنطق بعدها كلمة، خصوصًا حين رأيت ملاك الموت خلفنا، يتأملني بنظرة غضب كادت تسقط لحمي من شدة الرعب.

قلت لنجيب محفوظ: «الموت خلفنا!»، قال: «عظيم! جاء في وقته!»، ولم يلتفت ليرى المشهد بنفسه، بل دخلنا إلى مقهى شعبي، وجلسنا، أنا ونجيب وملاك الموت، ليظهر نادل بلعبة الطاولة والشاي والشيشة، ويعلق نجيب ضاحكًا: «حاول الموت هزيمتي منذ سنوات، وفشل هو والنسيان! كلما قال أحدهم نجيب محفوظ مات! تجيب الحياة لم يمت! نجيب محفوظ هو الأديب الوحيد الذي لم يمت! إنه حي بيننا، قد تنسى الذاكرة نفسها وتسقط من كينونة ذاتها كذاكرة، ولن يسقط نجيب محفوظ من ذاكرة العالم والأدب أبدًا!». قلت له: «هل مصيري بعد كل تلك الحكاية أن أشاهدك وأنت تغلب الموت في عشرة طاولة؟»، ثم سألته بعد صمت طويل، ومراقبة لمهارة نجيب، واستثنائية الموت في اللعب بالنرد: «لماذا أصبحت فجأة فيلسوفًا؟ أتكلم كأنني أديب يتقن اللغة ويدرك فوارق استخداماتها؟».

ليجيبني الأديب، وهو يضحك على خطة الموت الهزيلة في محاولة هزيمة نجيب محفوظ، قائلًا: «إنك الآن تتحدث بلغة أهل الموت، كل الذين ماتوا تخلوا عن لغتهم الدنيوية، مغادرين حدود المعرفة البشرية الضئيلة، وصاروا أصحاب لغة واحدة. باختصار،

إننا نتكلم بلغة الكون! إننا حين نموت لا نتكلم بصوتنا، بل بصوت الطبيعة، لا نتكلم بصراعاتنا، بل بهدوء التسامح، لا نتكلم بعنصريتنا وطبقيتنا، لكن بوحدة الموقف الحالي، وحدة أننا أموات، أموات رحمنا الله من الدنيا الفانية ونقلنا إلى الراحة الأبدية! يا نجيب، أنت تتحدث بصوت كل المظلومين، وأنا أتحدث بصوت كل الأدباء، وتلك الجميلة الجالسة هناك تتكلم بصوت كل المقهورات! ألم تسأل نفسك مرة، لما تقوم القيامة كيف سيفهم الأجانب الله؟ وكيف سيفهم الصيني أوامر الملائكة؟ الكون له لغة واحدة يتقنها البشر حين تسبقهم كلمة «المرحوم»!».

قلت له بعد محاضرته الغرائبية عن الموت والأصوات واللغة: «إنني لا أتحدث بصوت كل مظلوم، إنني أتحدث بصوت كل أب حاول في حياته توفير حياة كريمة لعائلته! إنني أتحدث بصوت كل أب يستيقظ صباحًا ويسأل نفسه قبل القيام من سريره: «هل في جيبي ما يكفي لجلب لقمة العيش؟». إنني، وبعد كل ما حدث، وموتي الذي رسمت خطته أمي وأبي منذ مولدي، مرورًا بكل مواقف الحياة الصعبة، من قتل ابني وزوجتي، وصولًا إلى التنظيم السري، أقولها حتى إن لم يسمعني العالم، كما اعتاد على معاملتي وتجاهلي، أقولها بكل فخر، لقد عشت حياتي بمشاعر متناقضة وحزن لا يفارقني، ومع ذلك نجحت بصورة مؤقتة في كتابة سطور سيرة عظيمة، يبهجني حكيها لأهل الجنة إن كنت منهم، أو لأهل النار لو غضب الرب مني!».

رأيت ياسمين في فستان أبيض، تركض تجاهي مع أيهم بذراع كاملة غير منقوصة، وبصحبة بنت جميلة قالت إن اسمها كرمة،

احتضنت عائلتي، ومشينا كلنا في غياهب البرزخ، في محيط اللاحياة واللاموت، براحة لم أعرفها، وبملامح كاملة تعلق ياسمين عليها: «شكلك وسيم جدًّا! آية من آيات الجمال يا نجيب! عينك اليمنى رجعت إلى مكانها الطبيعي!»، فأشكرها على حسن كلامها، وأطلب منها السماح لي بالعودة إلى جسدي في الأرض، فتسألني متعجبة: «لماذا يا نجيب؟ أنت معنا هنا! الحمد لله ربنا لم شمل العائلة!».

فأقول لها، وأنا ألاعب أيهم وكرمة: «سأرجع إلى الأرض كي أرى لحظاتي الأخيرة بعيني، كي أرى كيف سأموت في النهاية، هل سيتركني المجرمون في الغرفة، أم سيدفنني نديم في مقابر سرية، أم أن عربة التنظيم السري ستدهس جسدي عدة مرات فيتساوى مع الأسفلت، ويعجز المسعفون عن فصلي، فيقترح شخص تركي حتى أذوب ويتداخل جسدي مع الأرض؟».

لا تقتنع بإجابتي، تتعلق برقبتي، تقبِّلني، تسألني: «من الذي قتلك؟»، أقول: «إنهم المجاذيب، أو ربما قتلتني فكرة الهوية والتشبث بأمل التحقق والوصول إلى غاية ترضي فكرتي عن الأب المتخيل في حياتي، الأب الذي لم أقابله»، فتنبهر بالإجابة النموذجية، وتعيد سؤالها عن سر تمسكي بالعودة لمشاهدة لحظاتي الأخيرة، أقول لها وأيهم يبتسم لأنه أخيرًا وجد أباه، ونجيب محفوظ يقترب منا بصحبة ملاك الموت، وهو يشير إلى ساعته غاضبًا، بسبب هزيمته مجددًا من نجيب محفوظ وليس بسبب تأخري: «كي أفارق الحياة يا ياسمين، كما يليق بأب يحاول!».

HTTPS://WWW.2025

شكر خاص

في أثناء مروري أمام مؤلفات نجيب محفوظ داخل إحدى مكتبات القاهرة، ظهرت فكرة الرواية بكامل أحداثها، كأنه كان ينتظر مرور كاتب ليلهمه كما ألهم الكثيرين، ومنذ وقتها وأنا أكتب وأراجع وأمحو، وهنا لا مفر من ذكر كل مرجع ساعدني صاحبه، بطريقة غير مباشرة، في كتابة سطور ذلك العمل:

أعمال نجيب محفوظ المذكورة لدعم الفكرة: «في حب نجيب محفوظ» ـ رجاء النقاش، «صفحات من مذكرات نجيب محفوظ» ـ رجاء النقاش، «نجيب محفوظ وفن صناعة العبقرية» ـ د. مصري حنورة، «البدايات والنهايات» ـ محمد شعير، «معجم شخصيات نجيب محفوظ» ـ مصطفى بيومي، «المسكوت عنه في عالم نجيب محفوظ» ـ مصطفى بيومي، «هتلر في عالم نجيب محفوظ» ـ مصطفى بيومي، «نجيب محفوظ يتذكر» ـ جمال الغيطاني، «المجالس المحفوظية» ـ جمال الغيطاني، «أنا نجيب محفوظ» ـ إبراهيم عبد العزيز، «ليالي نجيب محفوظ في شبرد» ـ

حصريا على قناة عصير الكتب
HTTPS://T.ME/RIWAYAT2025

إبراهيم عبد العزيز، «مقامات في حضرة المحترم» ـ سيد الوكيل، «بخط اليد وعلم الوصول» ـ طارق الطاهر، «محفوظ وأحلامه التي لا تنتهي» ـ أحمد مصطفى علي، «المرأة في أدب نجيب محفوظ» ـ د. فوزية العشماوي، «في حضرة نجيب محفوظ» ـ محمد سلماوي، «ثلاثون عامًا في صحبة نجيب محفوظ» ـ محمود الشنواني، «أشباح في طريق البيت» ـ عزمي عبد الوهاب، «حديث التاريخ للمستقبل» ـ د. محمد حسين أبو العلا، «أساتذتي نجيب محفوظ» ـ إعداد وتقديم إبراهيم عبد العزيز، ترجمة النصوص الفارسية ـ من مقال الأستاذ الدكتور يحيى داود عباس، أستاذ ورئيس قسم اللغة الفارسية الأسبق، أرشيف مجلة «المجلة»، أرشيف جريدة «الأحرار» المصرية، أرشيف جريدة «الوطن»، شركة «أدهم العبودي» للمحاماة والتحكيم الدولي، مكتب القاهرة، المركز القومي للسموم بالقصر العيني، طوارئ مركز السموم الإكلينيكي ـ بجامعة عين شمس، مكتب صحة السيدة زينب، إدارة مستشفى المنيرة العام ـ السيدة زينب، نقطة شرطة المنيرة بشارع صفية زغلول ـ النقيب أحمد زكي، كباتن «مشوارك»: أحمد محمد صقر، نبيل عبد الله، إسلام صلاح، مايكل فهمي.

لزوجتي الغالية، الدكتورة شروق رأفت، على تحملها لكل تلك الفترة، التي كنت أغرق فيها داخل دوامات الكتابة.

لصديقي الأديب أدهم العبودي، على تحمله لكم مكالماتي اليومية، كي أسأله عن تفصيلة قانونية أو أدبية.

لصديقي وزميل العمل القديم، مصطفى إبراهيم، للأديب هشام

الخشن، للكاتبة والمترجمة بسمة الخولي، للأستاذ أسامة المهدي، للمهندس محمد خالد شريف، والصديق العزيز محمد ياسين.

وأخيرًا، للأديب العالمي نجيب محفوظ، لأنه مصدر إلهام لكل الأجيال.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا

@RIWAYAT2025

@RIWAYAT2025

HTTPS://T.ME/RIWAYAT2025

Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

حصريا على روايات وكتب عربية
وعالمية
HTTPS://T.ME/RIWAYAT2025

عن المؤلف

مصطفى منير، كاتب مصري من مواليد القاهرة عام ١٩٨٩، تخرج في كلية الألسن، جامعة عين شمس، قسم اللغة الإنجليزية، ويعمل في مجال الدعاية والإعلان.

صدرت له عدة روايات، منها: «حانة الفوضى»، «قيامة الظل»، «تلاوات المحو».

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا

@RIWAYAT2025

@RIWAYAT2025

Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

حصريا على روايات وكتب عربية
وعالمية
HTTPS://T.ME/RIWAYAT2025